فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

348-347
2011

ملف العدد

الشاعر مهدي محمد علي... وداعا !

مقالات

حكمت محمد فرحان ماجد زيدان الربيعي
سمير حسن ليلو موفق جواد الطائي
سليم الوردي سنان أحمد حقّي
هاشم نعمة

نصوص قديمة

عامر عبد الله

طاولة مستديرة

مشروع حذف الاصفار الثلاثة
من العملة العراقية

نصوص مترجمة

أندرياس فير

حوارات

حوار مع الدكتور علي عباس

أدب وفن

محمود عبد الوهاب ... وداعاً !

سلام حريه سباح كنجي
فاضل ناصر كركوكلي حسينة بنيان
فليحة حسن وفاء الربيعي
جميل الشبيبي وهاب المرعب

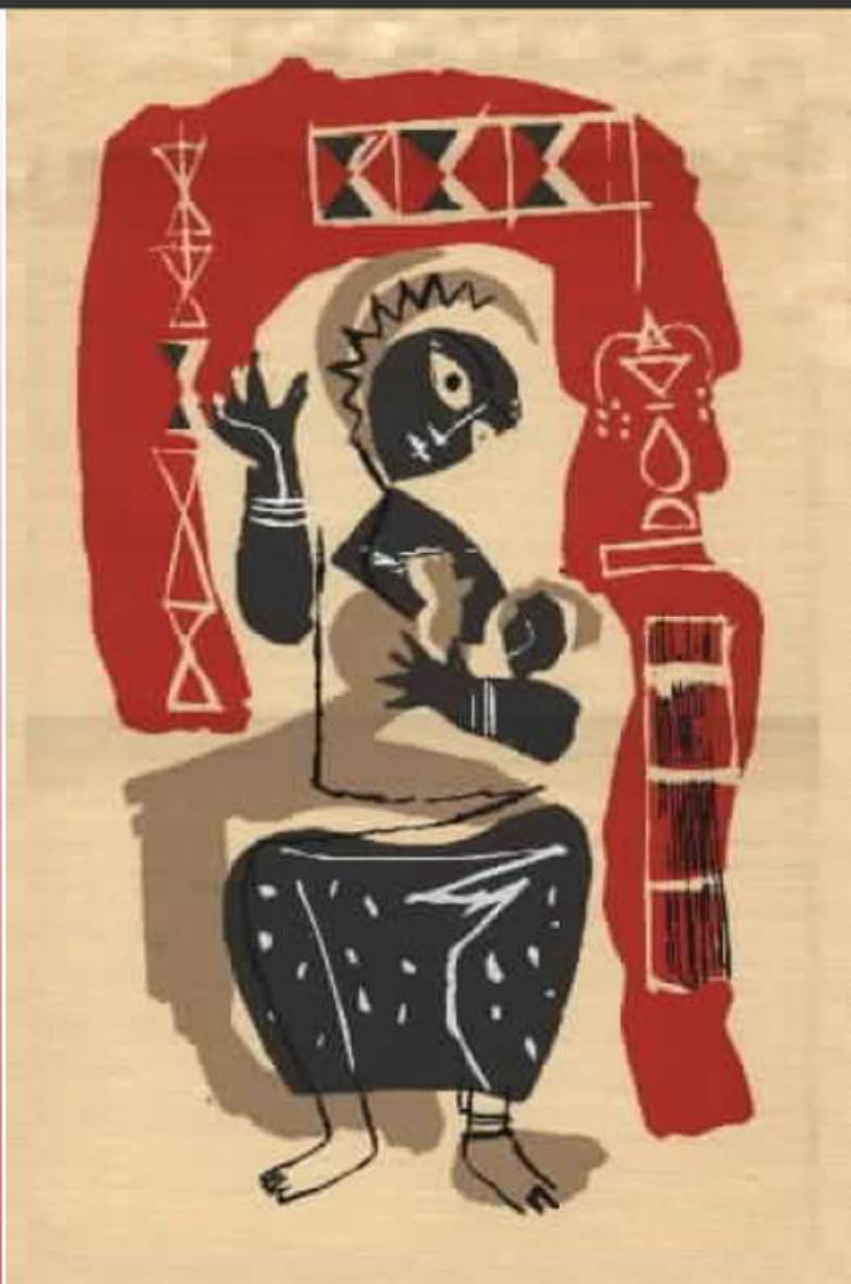

الثقافة الجديدة

فكر علمي- ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

348-347

المواد المنشورة تعبّر عن آراء اصحابها

اغلق تحرير العدد في 5 كانون الاول 2011

السعر : 2000 دينار

الاشتراك السنوي : (6أعداد) : 50 دولار أو ما يعادلها و 100 دولار للمؤسسات.
ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير :
thakafajadida4u@gmail.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت :
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة : بغداد – شارع ابو نؤاس، والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع في المكتبة الوطنية :781
يمكن تحويل مبالغ الاشتراك على الحساب المصرفي للمجلة :

ALJADID
Lloyds TSB Bank plc
Sort Code 30-93-89
Account No: 1871659
UK

ترجو هيئة التحرير المساهمين في المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
*أن تكون المقالة مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلا للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الألكتروني أو على قرص مدمج. أما المكتوبة باليد فنرجو إرسال نسختها الأصلية. وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير، فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لاتعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الألكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والاعلان

محتويات العدد

5. **كلمة العدد**
7. **ملف العدد: مهدي محمد علي.. ابن البصرة جنة البستان...وداعا!**
8. نعي هيئة التحرير
9. تعزية المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي

أدباء وكتاب البصرة ينعون فقيدهم العزيز مهدي محمد علي

11. خمرة مهدي.....عبدالكريم كاصد
19. مهدي محمد علي: شجرة مثمرة.. ومنجز غمرته الظلال.....جاسم العايف
26. مهدي محمد علي .. الرحيل المعاكس.....وداد فاخر
29. نصوص شعرية ونثرية كتبها مهدي في فترات سابقة

مقالات

41. حقوق العراق في المياه المشتركة.....حكمت محمد فرحان
46. المهام الجديدة الملقاة على عاتق وزارة الصناعة والمعادن.....سمير حسن ليلو
53. أنموذج للدور القيادي في الوظيفة العامة.....سليم الوردي
63. القوى الاجتماعية الفاعلة في الانتفاضات الشعبية في البلدان العربية.....هاشم نعمة
74. موقف الحزب الشيوعي العراقي من الجبهة الوطنية والقومية التقدمية.....ماجد زيدان الربيعي
84. نحو منهجية للحفاظ على المواقع الأثرية في محيط بغداد وتنميتها.....موفق جواد الطائي
88. في ضوء مقال (في قضايا الإسكان) للدكتور مظفر الجابري.....سنان أحمد حقّي

طاولة مستديرة

91. مشروع حذف الاصفار الثلاثة من العملة العراقية

نصوص قديمة

111. الطريق التاريخي لوحدة الأمة العربية.....عامر عبد اللّه

نصوص مترجمة

128. أندرياس فير: التسلط الأوربي– تفكيك الديمقراطية كنتيجة لأزمة اليورو.....ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

136. حوار مع الدكتور علي عباس مراد.....حاوره : سعدون هليل

أدب وفـــن

153. **محمود عبد الوهاب ... وداعاً** ! هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)

قصص قصيرة

154. الصفعة.....سلام حربه

159. قطّة المرحومة قدريّة.....فاضل ناصر كركوكلي

مقالات

165. العنوان وأيقونة الاشهار(ياحادي العيس) إنموذجاً..... فليحة حسن

168. من أشكال التجريب في السرد الروائي العراقي.....جميل الشبيبي

176. سلام إبراهيم يُبدعُ مِنْ بَاطن الجحيم..!!.....صباح كنجي

شعر

182. قصيدتان.....حسينة بنيان

184. قصيدتان .....وفاء الربيعي

مقامات

186. من مقامات بديع الزمان إلى مقامات هذا الزمان.....وهاب المرعب

لوحة الغلاف الاول للفنان جواد سليم

لوحة الغلاف الاخير للفنان وائل المرعب

كلمة العدد

الخطاب الثقافي الراهن، في بعض تنويعاته تحديدا وخصوصا المهيمن منه، يعيش حالة من الرتابة والنمطية. وهو منذ فترة طويلة حبيس موضوعات متداولة ورهين أحداث معينة تمجد البطل الوهم أو يخاطب حالة اللاوعي وبعضه يمجد الهويات الفرعية ويستخدم اصطلاحات مختارة، يخاطب بها حالة اللاوعي (أو قل ما قبل الوعي) عند الجمهور، يمارس وظيفته الإيديولوجية في ظروف الأزمة المتمثلة بخلق حالة من اللاوعي بتلك المشكلات مما يحرف القضايا الثقافية عن حقلها الصحيح، كمحاولة لتهميش الجمهور ثقافيا، وكجزء من محاولة إعادة إنتاج سيطرته الإيديولوجية المتسمة بحالة متفجرة دوما.

في هذا الإطار تتنوع الرؤى والمشاريع، وتنبثق إشكاليات عديدة من بينها تلك المتعلقة بالمشروع الثقافي المطلوب. والسجال الذي يدور حوله بين من يريد أن يكون هذا المشروع جزء عضويا مندمجا بالمشروع العام لتحويل المجتمع على طريق " الانفتاح " ورسملة مختلف جوانب الحياة، أي تيار يريد من هذا المشروع أن يخلق الميكانيزمات العملية على الصعيد الثقافي لإعادة إنتاج التبعية ضمن بنية متكاملة، وبين من يريد صياغة مشروع ثقافي وطني وديمقراطي يضمن خلق الظروف لازدهار كل التيارات والثقافات على المستوى المحلي ومتفاعل مع الثقافة على المستوى العالمي بكل تنويعاتها وأبعادها الحضارية التقدمية. إننا إذن أمام جملة من القضايا التي يدور حولها صراع تغذية تفاعلات الأزمة البنيوية الراهنة التي تعيشها بلادنا وصعود تلك القوى التي تطرح بديلها " الثقافي " كجزء من مشروعها " التحويلي "، الأمر الذي يثير أسئلة متنوعة حول إمكانيات وشروط ومحددات بناء المشروع الثقافي البديل المقتحم للبنية الفكرية التقليدية التي تجاوزها الزمن وحركة التاريخ، مشروع ثقافي متحرر وتحرري يستطيع كسر القوالب التي تجمدت فصارت عائقا أمام تطور المعرفة وازدهار الثقافة الوطنية والديمقراطية. تحتاج هذه المهمة الى مثقف لا تكون وظيفته تمجيد السلطة والمساهمة، في حقله، في إعادة إنتاج سيطرتها، أو كما يطلق عليه " موظف " الثقافة أو تقني المعرفة حسب سارتر.

ومن هنا تنطرح إشكالية المثقف والسياسي والعلاقة بينهما. تشير التجربة الإبداعية في بلادنا، كما في بلدان أخرى، الى أن هناك خلافات عميقة حول هذه القضية، لا يتسع المجال هنا للخوض في تفاصيلها (فالشيطان يكمن في التفاصيل، كما يقال)، ولكن ما نريد الإشارة إليه هنا هو كيفية النظر لهذه القضية. حيث يقدم المثقف كنقيض للسياسي، وحيث تصنع السلطة السائدة " مثقفيها "، وبالمقابل هناك المثقفون المبدعون المطاردون من طرف حراس " الثقافة " المهيمنة. نحن إذن أمام مثقف من طراز آخر هو المثقف العضوي، بحسب تعبير المفكر الإيطالي المعروف (غرامشي).

المثقف العضوي بمعنى من المعاني هو مثقف منخرط في لجة الصراع المجتمعي الدائر ليس حول الراهن فقط، على أهميته، بل حول البديل المطلوب.. أي حول المستقبل. لذا فان إشكالية المثقف –السياسي، أي العلاقة الجدلية بين الفكر من جهة والسياسة من جهة ثانية، تنطرح هنا بقوة ولكن " بعيدا عن ابتذال الآيديولوجيا –بمعناها السلبي – ، وقريباً من مجابهة أسئلة الواقع في إطار ذلك التفاعل كتجلٍ للتنوير وضرورة للتغيير "، فلا وجود لثقافة وطنية فاعلة إلا في وجودها حاملاً للمشروع السياسي الوطني الديمقراطي ومحرضاً عليه ومنقحا لخطواته. ولعلنا اليوم في هذه الحقبة الانتقالية والاستثنائية في فرادتها، في أشدّ الحاجة إلى بلوغ مقاربات فكرية وصياغة مفاهيم جديدة من شأنها أن تدرك أبعاد الأزمة العميقة التي يعيشها مجتمعنا وبلادنا، وتساعد في بلورة البرامج والسياسات الكفيلة بتجاوزها، وبما يساعد تدشين أسس الديمقراطية وبناء عراق حر وسيد نفسه.

لقد اعتادت الأنظمة الدكتاتورية والشمولية أن تشوه وظيفة الإبداع عبر قيام " مثقفيها " في إنتاج وإعادة إنتاج مفاهيم الارتزاق والابتذال الثقافيين.. وتأبيد سلطة الاستبداد في المجتمع. ونقيض مثقف السلطة هو المثقف العضوي الذي يتماهى بإبداعه ونشاطه الثقافي والفكري مع قضية شعبه في الحرية والديمقراطية والتعددية. انه حامل رايات التنوير والحداثة والعقلانية في مواجهة ثقافة الاستبداد والعسف و الخنوع وتأبيد الواقع.

وأخيرا، يقارب عام 2011 على نهايته وبانتظار عام آخر ننتهز هذه الفرصة لنتقدم لقراء مجلتنا بأطيب التهاني بالعام الجديد،2012، متمنين للجميع موفور الصحة والموفقية ولشعبنا السلم والأمان. ينتهي عام2011 وبلادنا تنتظر لحظة حاسمة تتمثل في أن تاريخ 12/31/ 2011 هو موعد رحيل آخر جندي محتل.. إنها لحظة عظيمة بكل المقاييس. وبهذه المناسبة نهنئ جميع بنات وأبناء شعبنا بتحقيق هذا الهدف النبيل ونتطلع الى أن تكون كل القوى والأحزاب السياسية ومختلف الشرائح والفئات والطبقات الاجتماعية بمستوى تحديات المرحلة القادمة، الصعبة والخطيرة في الوقت نفسه. ونراهن هنا، مرة أخرى، على الدور التنويري للمثقف في أن يلعب دوره في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ بلادنا.

إننا على ثقة أكيدة بشعبنا وبقدراته التي لا تنضب.. ولدينا كل المسوغات للقول في انه سيكون بمستوى تحديات الانتقال الى الأوضاع الجديدة، بعد رحيل المحتلين من أراضينا ومياهنا وسمائنا.

سيكسب شعبنا الرهان هذه المرة، أيضا ! نراهن على ذلك، كما كنا دوما.

ملف العدد

مهدي محمد علي..

ابن البصرة جنة البستان...وداعا

الشاعر مهدي محمد علي... وداعا !

بمشاعر حزن بالغ وألم عميق تنعى هيئة تحرير مجلة (**الثقافة الجديدة**) نبأ رحيل عضو مجلس تحريرها والمسؤول عن باب: أدب وفن فيها لعدة سنوات الفقيد الشاعر المبدع مهدي محمد على.

هكذا إذن انسحب مهدي وقرر أن ينام سائرا في رحلته الأبدية.... غادرنا بهدوء كحمامة حملت ريشها لتسافر... غادرنا (أبو أطياف)، الذي كان حبيبا كالبراءة، جميلا كغرسة زيتون، صادقا كطفل، غادرنا المسكون بحب مدينته الغافية على الخليج مجسدا ذلك في: "**البصرة.. جنة البستان .. ذاكرة نثرية** "، حيث الروح الملتبسة بحب الوطن والبصرة. في هذا العمل تنبأ مهدي انه لن يعود إلى بصرته إلا بعد سنين طويلة، وربما لن يعود أبداً، ويبدو أنه أدرك في ومضة الشعر أن الريح ستركن للسكون، وان الورد وحده هو الطائر الذي يطير عكس اتجاه الريح. لكن " جنة البستان "، التي كتب عنها مهدي قائلا: " قررت أن احمل بصرتي معي مهما تتبدل المنافي والبلدان "، ستبقى بانتظار عودته الى شواطئها التي ما زالت تفتح عيونها لينام فيها ابنا بارا لها فهي تشتاق الى فوانيس روحه تضيء أعماقها.

في الرحيل الأبدي للجميل مهدي نحمل معا باقة ورد حمراء ونوقد شمعة ونسمع في وداعه مطرا قادما وربيعا آتيا، وسنظل نحترق اشتياقا الى فوانيس روحه المسكونة بحب عراق جديد لا مكان فيه للعسف... وطن للآمال والأحلام الجميلة.. وطن جسده مهدي في قصائده الجميلة الكثيرة ومنها: (لقطات).. (من مدينة تعانق النهر).. (سياج).. (مواقع) (ظهيرة)..(سحر الكينونة) .. (أمومة)..و (يا خوفي).. وغيرها الكثير.

نودعك يا مهدي بلوعة المحبين الملسوعين بمفاجأة فراقك.... لن ننساك أيها الذاهب في شتاء البياض... فأنت من سيفاجئنا خارج مساءاتنا بضحكتك الشفيفة وطيبتك البصراوية الأصيلة ووداعتك. ستكبر فينا صديقا عزيزا، ورفيق درب حفظ الوطن والقضية النبيلة في سنوات عجاف.

للفقيد العزيز **مهدي محمد** علي الذكر الطيّب..... وللعزيزة أم أطياف والحبيبة أطياف – ولجميع أفراد عائلة مهدي الكبيرة وأحبته ومتذوقي شعره الجميل صادق مشاعر العزاء مقرونة بالتضامن الحار في هذا المصاب الجلل.

هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)
بغداد في 2011/11/30

تعزية المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي

ينعى المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي الرفيق الشاعر والأديب المعروف "مهدي محمد علي" الذي توفى يوم الأربعاء الموافق 2011/11/30 في إحدى مستشفيات دمشق.

لقد عرف الفقيد العزيز، في الوسط الأدبي والثقافي بمنجزه الإبداعي المتميز، وتعبيره الصادق عن هموم وتطلعات الناس العراقيين الطيبين صوب الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

كما عرف بنضاله ضد السلطات الديكتاتورية، ومزوري الثقافة الوطنية والديمقراطية، وظل التزامه عاليا بحزبه المجيد، وبشعاره العتيد في الوطن الحر والشعب السعيد.

تعازينا الحارة لرفاقه وأصدقائه ومحبيه الكثر ولعائلته الكريمة، راجين لهم الصبر والسلوان.

وللفقيد الغالي الذكر الطيب دوما.

أدباء وكتاب البصرة ينعون فقيدهم العزيز الشاعر مهدي محمد علي

بحزن وأسف ومرارة تلقى أدباء وكتاب ومثقفو مدينة البصرة وفاة صديقهم الغالي الشاعر (مهدي محمد علي) ليل27/ 28 الجاري في أحد مستشفيات مدينة حلب السورية ، والتي يقيم فيها وأسرته الصغيرة منذ أكثر من عقدين. ويؤكدون إن وفاة العزيز (مهدي) خسارة فادحة لهم و للثقافة الوطنية العراقية الديمقراطية . لقد أجبر النظام البعثي المنهار الزميل الشاعر (مهدي محمد علي) من خلال مطاردته ومحاولة اعتقاله ،على الرحيل بعيداً عن مدينته ووطنه عبر بادية السماوة، في رحلة مضنية وشاقة استمرت لمدة ثمانية أيام، برفقة صديقه الشاعر (عبد الكريم كاصد) وبواسطة بعض المهربين نحو الكويت، خلاصاً من براثن الذئب البعثي المتوحش في نهاية عام 1978 بقي (مهدي) منذ ذلك التاريخ وهو يتنقل من منفى إلى منفى، وعينه على وطنه العراق ومدينته البصرة التي خصها بكتابه النثري المتميز (البصرة..جنة البستان) دار المدى دمشق 1998، كما واصل التعلق بمدينته وناسها وأصدقائه فيها ، عبر كتاباته النثرية المتنوعة ، و قصائده التي ضمتها دواوينه الشعرية التي أصدرها في المنفى ، إذ صدر للفقيد الغالي ديوانه الأول / رحيل عام 78/ وزارة الثقافة والإرشاد القومي / دمشق 1983

وصدرت له بعد ذلك المجاميع الشعرية التالية: سر التفاحة/دار بابل/ دمشق1987/، شمعة في قاع النهر/وزارة الثقافة السورية1995/، خطى العين/ اتحاد الكتاب العرب/

دمشق 1995/ ، سماع منفرد/ دار المدى للثقافة والنشر/ دمشق1996/، ضوء الجذور/ وزارة الثقافة السورية2001/ ، قَطْرُ الشَّذى/ الهيئة العامة السورية للكتاب 2008. والراحل الشاعر (مهدي محمد علي) ولد في البصرة عام1945 ونشر أولى قصائده في عام 1971. تخرج من كلية التربية / جامعة بغداد/ عام1968 ومارس التدريس في مدارس البصرة ، حتى لحظة هروبه منها، وهو عضو هيئة تحرير مجلة "الثقافة الجديدة". إن أدباء وكتاب البصرة ينتابهم الأسى العميق والمرارة البالغة على هذا الرحيل المبكر لزميلهم الشاعر والصديق الرائع (مهدي محمد علي) الذي لم يهادن في حياته المؤسسات السلطوية أو يتناغم معها قط ، تحت أي ظرف قاس مرّ به أو واجهه، ويؤكدون إن (مهدي محمد علي) سيبقى مثلاً يحتذى به في مسيرتهم الثقافية داخل مدينتهم، ووطنهم العراق وشعبهم الناهض من رماد القمع والتعسف والحروب العبثية الخاسرة والاحتلال ، والذي سيواصل بصلابة ودون تراجع مسيرته كما واصلها مواجهاً الدكتاتوريات السابقة والراهنة. الذكر الطيب والدائم للصديق الفقيد الغالي الشاعر(مهدي محمد علي) والفخر بسيرته الحياتية الناصعة ، ومنجزاته الأدبية والثقافية المتنوعة المتميزة المتعددة.

السبت،3 كانون1/ديسمبر 2011

خمرة مهدي

عبدالكريم كاصد

لا يمكنني حتى هذه اللحظة أن أتخيّل مهدي غائباً، وقد أحتاج إلى زمنٍ لأقتنع أن رحلة مهدي هذه هي الرحلة الأخيرة. قبل أسبوع فقط من رحيله اتصلتُ به فكلّمني دون أن يبدو عليه أبداً أنه سيشرع برحلة على الأرض أو في السماء فلا صوته نمّ ولا ألفاظه أنه سيغادرني إلى الأبد.

بضعة أيام هي ويدخل مهدي الأبدية.. تلك الأبدية التي كان يمرّ بها في شعره فيمسها مسّاً رفيقاً وهو يبتسم أو يضحك .. مهدي الذي يخشى المغامرة ويدخلها مغامراً لا يفارقه الهدوء أبداً.

في الصحراء في رحلتنا على الجمل لم ينقطع مهدي عن طرائفه .. ما أكثرها! طرائفهُ هذه لم تغادره حتى وهو في أصعب المواقف ولعلّها هي ما يجعلني شديد الانتباه لجِدِّه أيضاً.

مرّة في زيارتي الأولى لدمشق بعد رحيلي عنها كنّا في سهرة وكان مهدي مبتهجاً، يتحسس كأسه بين آونةٍ وأخرى منتشياً، دون أن يمزج خمرته بالماء، عملاً ربما بقول أبي نواس الذي أحببناه معاً:

لا تجعل الماء لها قاهراً

ولا تسلّطها على مائها

غير أن بعض الجالسين لم يستسغ ذلك، فهمس في أذني مستغرباً رغم أن مهدي لم يبدُ عليه ما هو غير مألوف في جلسته ولا في حديثه: يظهر أنّ صاحبك .... إلخ؟

في اليوم التالي قلتُ له، هو الذي أوثره على نفسي :

يا مهدي ألا تريد أن تستمع بشربك ؟

قال: طبعاً.

قلتُ له: لماذا تجعل الآخرين يتطلعون إليك فيفسدون متعتك بعرقك الحبيب. قطرة ماء ويستحيل شرابك أبيض فتشربه هانئاً بلا رقيب

قال لي: ما قلته صحيح

وضحك

وحين التقيتهُ في حلب للمرة الثانية قبل سنتين أخذني إلى مطعمٍ وطلبنا مع الطعام شراباً فقلت له: ما رأيك هل نطلب عرقاً؟

قال لي: لا.. لقد تركت العرق

فكان ذلك مدعاة لفرحي.

قلت له مازحاً: يا مهدي هذه خطوة تستحق أن نشرب من أجلها العرق

لكنه أضاف : لقد استبدلته بالجنّ

فضحكتُ وقلتُ له وأنا الأنسيّ سأشرب معك الجنّ .

ورغم أخوتنا الطويلة لم اسأله حين التقينا عن هذه اللحية التي تزيده عمراً وتحجب أجمل ما في وجهه من ملامح طفولية رقيقة لا تخفيها حتى الشيخوخة .. ملامح طالما أحببتها وقد لا يراها غيري، ولكن ثمة حذر يوقفني عما ينبغي أن أفضي به حتى لأحبائي، لا سيما إنني أسرفت في عتابي له لعدم تواصله مع النشر، أو لعدم استخدامه الإنترنت أو لعزلته أو.... وغير ذلك من أمور كم تبدو صغيرة الآن أمام هول الموت.

مع ذلك كنت أُكبر في مهدي صفاءَ روحه وحصافته التي لم تغادره يوماً حتى وهو في أشدّ ظروفه تعاسة، أو في أشدّ مقاماته انتشاءً، بل وألفيتني أستأنس بعاداته وطقوسه التي تتوسطها دوماً كأسه البيضاء ،عندما كنا جارين في دمشق، وكأنّ كأسه هذه الفنار الذي يرشد سفنه المبحرة، وهو يقرأ أو يكتب. ولا أخفي القارئ أنني وودتُ لو أنني شعرتُ بجزء صغير من متعة طقوسه، فلياليّ ولياليه تخلو من المتعة تماماً نقضيها في الترجمة والكتابة، والعمل المأجور، ولعلّ ساعاته كانت أكثر جفافاً فهو يبيع ما يكتب بالقطعة ليعيش، وما أكثر المقالات التي نشرت له بدون اسمه والمقاولون الذين باعوا مقالاته للصحف كثر وهم بارعون في تسويق بضائعهم أو فضائلهم، ويساريّون أيضاً.

لن أتحدث عن الكتب التي ظهرتْ بأسماء أخرى.

لا أدري كيف يمكن الإبحار في مستنقع كبير كهذا بدون أشرعة لا تمنحها غيرُ هذه الكأس. يشربها البعض لينسى ولكن مهدي يشربها ليستيقظ .. ليتذكر .. أو ليحتال على فكره المشاع. وهذا ما كنت افتقده لذلك تبدو لياليّ أشدّ جفافا ومقتاً (من منّا تُرى لياليه أشدّ جفافا؟). وحين يلتقي السكران والصاحي، عند منتصف الليل، وقد احدودب ظهراهما لا تميز أحدهما عن الآخر. فأنا سكران أيضاً من همّ الكتابة، وبؤس الترجمة. ومع ذلك فما أشقى الأيام التي عشناها في دمشق. وما أقسى المقاولين الذين كثيراً ما يتعمدون الخطأ في عدّ الصفحات ليقلّ الدفع وحين نذكّرهم بأرقّ الألفاظ أنّ ثمة خطأ في العد يعدّون الصفحات مسرعين لينشطر الخطأ نصفين: جنيّ ويابس –ما أجملك يا أبا نواس– وهكذا يرضى الطرفان: المعوز والمقاول اليساريّ المتخم صاحب المؤسسة الكبيرة الممتدة الأطراف إلى أصغر جريدة خليجية أو مؤسسة مشتراة.

إنّه الجليس بحق، النديم بحق، والشاعر بحق وما يهمني الآن لا الحديث عنه جليساً أو نديماً، حتى ولا صديقاً حميماً، وقد عشتُ معه جلّ سنوات حياتي في البصرة وعدن ودمشق ، وكتبت عنه صفحات عديدة من قبل، وسأكتب عنه ربما صفحات عديدة، وإنما عن شعره إن كان ثمة مسافة بينه وبين شعره، وهذا محال.

كم يبدو شعره بسيطاً ولكن ثمة صنعة خفية.. صنعة ماهرة لم تفارقه قطّ حتى في آخر دواوينه بل إنها أضحتْ أشدّ إحكاماً في بعض قصائده الأخيرة ولا سيما القصيرة منها. ولكي لا يبدو هذا الرأي وكأنه رأيٌ أملاه الموت، فإنني سأورد مقالة كتبتها عن شعره قبل ما يقرب من ثلاثين

عاماً ليتضح للقارئ أنه أمام شاعر هو من بين أجمل شعرائنا. لم يستطع نقدنا القاصر اكتشاف عالمه الغنيّ لانشغاله بما هو خارج الشعر، لكنني قبل أن أورد مقالتي هذه سأشير إلى بعض قصائده الأخيرة التي غفل عنها هذا النقد، مثلما غفل عن غيرها من قصائد جيدة ليلغو بما هو من سَقَط الشعر.

خذوا هذا المقطع الذي لا يمكن أن يكتبه إلا من خبر اللغة والشعر طويلا لما فيه من حركة وإيجاز ودقة في اللفظ ومهارة في اللغة ولما فيه أيضاً من بساطة وشعبية نادرتين!

جيدها الضوء
وجنتها جمرة
شعرها
ظلّها
ها..ها
ها..ها
ها..ها
خطوها
مايزال!

قصيدة (عابرة)

أو هذا المقطع الجريء النابض بالحياة:

أيّتلك الغلام البهيج
أيّتلك العيون الضحوكة
باللمعان
أيّتلك الخدود
أيّتلك الأنيف الوسيم
أيّتلك الجُنَيْك
أيّتلك الغلام
كما درّة
في ثياب معفّرة
كيف تمضي خطاك إليك؟!

قصيدة (نرسيس المايكروباص)

أو هذه القصيدة الذكية بالتقاطاتها، وتفاصيلها المشبعة بحب الناس:

عائدون إلى البيت
عند الغروب
قبيل الفطور:
مشوقٌ إلى الله يمشي الهوينى
وشيخٌ يعود بباقة فجلٍ على عجلٍ
ثم سيّدةٌ أوصلت بعضَ فطرتها للذي يستحقّ
وآخر يلهث، وهو يقودُ
- على حرّ تموز -
دراجة
حملتهُ، وثابراً على ردفها
وصغيراً تشبّث
وهو يتابع أنفاسَ والدهِ
يترقّب أن يسمع الطوب
يرفع صوتَ المدينة
ثم المآذن ترفع صوت الأذان
الملاعق تسمع رنّتها
يفطر الصائمون
يغيبون في خدرٍ
ثمّ ينتظرون، على النار،
وسوسة الشاي بعد الفطور
تصحصحهم للتراويح

قصيدة (لحظة رمضان2)

المقالة التي كتبتها قبل ما يقرب من ثلاثين عاما هي فصل من كتاب معدّ للطبع بعنوان (متنٌ أم هامش؟):

طوفان المشاعر وبوصة الورق
(قراءة في ديوان رحيل عام 1978)

حين نشر الشاعر مهدي محمد علي قصيدته (لقطات من مدينة تعانق ماء النهر) أولّ مرة في عام 1972، كتب الدكتور أنور الغساني –وكان في ألمانيا آنذاك– معتبراً إياها انعطافة في الشعر العراقي. ولا يحضرني ما أورده لتعليل ذلك، وقد اختلف معه في كون هذه القصيدة انعطافة لم تسبقها محاولات شبيهة في الشعر العراقي. ولكنني أجد انتباهة الغساني بحدّ ذاتها حصافة في الإشارة إلى ما يستحق التقييم في شعرنا الذي يتطلب الفحص الدائم لاكتشاف ما يكمن خلف شكله الظاهري البسيط من حرارة في التجربة، ومهارة في التشكيل، تقرب أحيانا من الطبع.

ولعلّ هذه الانتباهة نبعتْ من قدرة القصيدة على التقاط المشهد اليومي العابر واكتناه مدلولاته الإنسانية لتجعله جزءاً من تحسسنا الجمالي لواقع أليف استحال في القصيدة الى واقع أكثر ألفة ولكن عبر منظور استطاع تجاوز عادية الحدث ليكتشف ما كان مخبوءاً فيه، لا من أجل غرابة يضفيها على مشهدٍ له جماله وحقيقته اللذان أزاحت القصيدة عنهما غبار المألوف، فكأن المشهد يحمل سطوعه الباهر فيه فلا يحتاج إلا الى لمسة بسيطة لإضاءته.. لمسة لا توحي بصنعة الشاعر التي أخفتها ممارسته الشعرية الطويلة ومنظوره الشعري المرهف في التعامل مع معطيات الواقع وجوانبه المتعددة، عبر الاستخلاص الفني للموضوع الذي يقود القارىء الى ما يريد ه الشعر لا بما يضيفه من أوهام تطمس موضوعه، وإنما من خلال ما يفرزه الموضوع نفسه من دلالة، وما يحتويه من غنى هما سبب توجهه وهدفه في التناول ومن ثم في التوصيل.

ولعل هذا التوجه لدى الشاعر مهدي محمد علي يفسر قدرة قصيدته على التوصيل، أي أن التوصيل لم يكن نابعا من رغبة الشاعر في طرح الأفكار، بل من طبيعة الموضوع ذاته الذي لم يعد مهارة ولا مشجبا لأفكار ولا فسحة شعرية تتسكع فيها القصيدة بلا اتجاه، وإنما أصبح نابعاً من براعة الشاعر في تشكيل موضوعه قبل أيّ شيء، وذلك لا يتأتى إلا لشاعر ذي مقدرة فنية واسعة تختفي وراء الموضوع وليس فيه.. إذ كثيرا ما تفاجئنا القصائد بالمهارات الشعرية في موضوعات لا تدل عليها، فكأن الشاعر معني بإظهار مقدرته على النظم وليس معنيّاً بالقصيدة التي تستوعب موضوعها فنياً.

وتشكل قصيدتا (البئر) و(السياج) في المجموعة نموذجين يدلان على ما أردنا أن نقوله، ففي قصيدة(البئر) يتذكر الشاعر صندوقاً كبيراً كان يكنز فيه مئات الصحف وقصاصات الأوراق والأشياء الأخرى، ويتدلى فيه كما يتدلى في بئر بحثاً عن صحيفة قديمة أو قصاصة ورق أو أجزاء

لعبة محطمة تلبية لرغبة طفل، ولكن الصندوق سرعان ما يستحيل وطنا في نهاية القصيدة.. وطنا بعيدا يتدلى نحوه كما يتدلى في الصندوق مستخدماً التشبيه السابق ذاته (كما أتدلى في بئر) مضيفاً نعتين جديدين إلى التشبيه هما (أليف وموحش).

أتذكر صندوقاً كبيرا
كنت ألمز فيه مئات الصحف
وقصاصات الأوراق
وأشياء أخرى
أتدلى فيه كما أتدلى في بئر
بحثاً عن صحيفة قديمة
أو قصاصة ورق
أو تلبية لرغبة طفل
بحثاً عن أجزاء لعبة محطمة
لقد ابتعد الصندوق
ابتعدت غرفتي
وابتعد الوطن
وأنا الآن أتدلى نحو وطني
كما أتدلى نحو بئر أليف موحش!

إننا إذا إزاء قصيدة تبدو للوهلة الأولى بسيطة بساطة متناهية بأشيائها ولكنّها تُخفي في الحقيقة طوفاناً من المشاعر المركبة والأزمنة التي ينفتح بعضها على بعض، فكأنما هي عالم بحدّ ذاته له مدلولاته العديدة وزواياه التي تتعدّد بتعدّد الرؤية الواحدة، فالصندوق الكبير الذي يعدد الشاعر أشياءه القديمة والذي يشبه البئر إنما هو صندوقه الحقيقي فعلا ولكنه في نفس الوقت صندوق ذاته الخفية المضطربة المنفتحة على الزمن الماضي والطفولة التي أصبحت استدعاء لزمن غابر يستدعي بالضرورة الوطن أيضاً، فكأنّنا هنا لسنا إزاء صندوق حقيقي، بل إزاء لا شعور شبه غائم مظلم كهذا الذي يطالعنا في دراسات علم النفس التحليلي وإن كان من طبيعة أخرى، ولكن الشاعر سرعان ما يدرك ابتعاده عن زمن كهذا ليتأمل زمنه الحاضر الذي يستحيل فيه الصندوق إلى وطنٍ يتدلى نحوه كما يتدلى نحو بئر لم يفقد ألفته ولكن بات موحشاً، ولعلّ في اقتران الصندوق بالوطن، والماضي بالحاضر، والطفولة بالنفي، ما يولد هذا الشعور الذي يتسم بتناقضه ووحدته معا، والذي هو عالم من المشاعر المتضاربة إزاء الطفولة والأشياء والوطن.. تتبادل مواقعها وتأثيراتها عبر الأزمنة المختلفة ما يحدونا الى القول مع زميلنا الشاعر والناقد محمد الأسعد الذي تناول الديوان بدقة فائقة إنّ مهدي هنا (يصبّ طوفاناً من المشاعر على بوصة من الورق)، مستعيراً تعبير الشاعر الصيني القديم في وصفه للشعر.

وفي هذا العالم الشعري يلعب البئر، الذي استعارته القصيدة عنوانا لها، دور الأشياء التي تصادفنا في الأحلام حيث الأشياء لا تتبادل أدوارها من خلال منطق الشاعر الذهني الذي يحل شيئا محل شيء آخر، بل من خلال القصيدة التي تستحيل حلماً بذاتها وواقعاً مراً في آن واحد تضيء فيه الأشياء بعضها بعضا.

إن هذه القصيدة في رأيي تقف مثالاً فنياً رفيعاً على قدرة الشعر على تحويل أشد المفاهيم تجريداً إلى واقع حيّ انطلاقاً من التجربة الملموسة والجزئيات الصغيرة التي لا تُستنفد بالتحليل والتي تكتسب من

خلالها المفاهيم تجسيدها الشعري بعيدا عن الاستعمال الشائع لها في الواقع أو في هذا الشعر الذي يطل علينا كل يوم بتداعياته المملة التي يصورها لنا النقد الصحفي أنها الشعر.

ومثلما اتخذ عالم القصيدة المكتظّ شكله الظاهري البسيط كذلك اتخذ الإيقاع شكله الهاديء الأليف عبر ألفاظه وجمله الموحية التي تتغير أزمنتها تغيراً غير ملحوظ للوهلة الأولى، مخفية المشاعر الحادة المتناقضة عبر تحولاتها العديدة التي تأتي الأخيرة حدّاً لها وتفجيراً في آن واحد.

أما في قصيدة (السياج) فإنّ الشاعر المتعب الحانق يأمر أطفال الجيران أن يكفّوا عن امتطاء السياج كالحصان، وحين لم يستجيبوا وظلوا محدقين يكتشف فجأة عيونهم الجميلة الملونة.. ثم تنتهي القصيدة هكذا:

وحين كفوا

صار السياج بينا فاصلا

واختفى ذلك النبات البشري المتسلق

وأزهاره الجميلة الملونة

ولا يخفى ما في هذا المقطع من عذوبة ومفارقة، فالذي كفّ هو الشاعر وليس الأطفال الذين سيواصلون حركتهم في مكان آخر والذين لم يستأنس الشاعر لمغادرتهم بعد اكتشافه عيونهم الملوّنة، كما أن الحركة التي تطالعنا في المقطع الأول سرعان ما تخفت مع اختفاء الأطفال لتبدأ ثانية في ذات الشاعر من خلال وصفه بالنبات البشري المتسلق..هذا الوصف الذي يعبر عن فقدان لحظة ملونة مشبعة بحالة إنسانية نادرة.

لقد استطاع الشاعر من خلال هذه الاستعارة الفائقة بجمالها وبساطتها وجدّتها أن يدلّل على قدرة حية حسية مدهشة في التشكيل، إذ من الصعب تصنيف هذه الاستعارة ضمن ما هو مألوف في البلاغة القديمة.. إنها استعارة من نوع جديد تتضمن نوعيها التصريحي والمكني في آنٍ واحد.

هذا التناول الأليف لأشياء الواقع وتفصيلاته هو الذي جعل شعر الشاعر حافلاً بالحيوات الصغيرة التي تشكل عالماً مزدحماً بناسهِ الأليفين ولعلّ قصيدة (قيلولة) تلخيص لطريقته الشعرية في التناول:

في البيت المزدحم بالمهجرين

أجلس على جذع شجرة قديمة

أضفر خوص النخيل

وأتأمل الأرض المغطاة بأوراق السنة الماضية

أفكر بهؤلاء

الذين تزدحم بهم

السلالم والمنعطفات

هؤلاء

الذين ستزدحم بهم قصائدي

فهذه القصيدة التي تذكرنا بمقطوعات الشعر الصيني لا تفصح عن طريقة الشاعر فقط وإنما تفصح عن إنسانيته التي لا يلوّح بها كالراية وإنما يبوح بها بهدوء الشاعر الذي يكتظّ بهؤلاء الذين تزدحم بهم السلالم والمنعطفات، في وحدته وهو ينتبذ ركنه المنعزل جالساً على جذع شجرة قديمة في البيت الذي يضمه مع هؤلاء المنفيين.

أضفر خوص النخيل

وأتأمل الأرض المغطاة بأوراق السنة

الماضية

إنني أجد في هذين البيتين على شدة بساطتهما جمالا يعود إلى موقعهما في القصيدة وإلى ما فيهما من حياة وموت، من اصفرار أوراق وخضرة خوص، من سكون وحركة، وهذا الفعل الإنساني(أضفر خوص النخيل) ذو المدلول الشعبي الذي يذكرنا لشعبيته بهذا المقطع للشاعر الياباني (بوسون):

يا لبهجة عبور النهر في الصيف
على عبّارة
والمفان في اليد

لقد بحث الشاعر في وطنه ومنفاه مثلما بحث في صندوقه عن تفاصيل معذبة وأناس مهمومين يتجسد فيهم الوطن أكثر مما يتجسد في أفكار غائمة وانفعالات صاخبة تخص الشاعر وحده.

إن أناس الشاعر وتفاصيله هم أناس وتفاصيل واقع بعينه:

أتذكرك يا أمي
وأتأمل القصيدة
فأرسم سجادة للصلاة
وقارورة للدواء
أتذكرك ناحلة مهمومة يا أختي
وأتأمل القصيدة
فأضيف صفصافة
وجدولا
وطحالب
أتذكرك يا نفسي
فأضيف أفقا راميا
يؤطرهُ الدخان
وجرة مكسورة!

من قصيدة (بالازميل)

إننا لا ننفي بقولنا هذا اغتناء الشاعر بالأفكار الخاصة به ولكننا ننفي كون هذه الأفكار وليدة ذهن الشاعر وليست وليدة الواقع بكلّ فجائعه وتناقضاته. إنّ الشاعر هنا لا يدلّل على فكرته وإنما يدلّل على قصيدته بما تصوره من واقع يتشكل فيها ومن أفكار هي محصلة لهذا الواقع وليست نتيجة مفترضة تتحمل الصدق أو الكذب، فالشاعر حين يصوّر هؤلاء الذين تسببوا في نكبة شعبنا يستعير لهم الأواني المستطرقة ليجسد ما حصل بالفعل لدى تلك المخلوقات المتشابهة في حقدها، المتنقلة بفعلها من ترديد الأفكار الميتة بشكل ببغاوي إلى الممارسة الهمجية في سحق ألوف الناس.

وهذه الاستعارة تصبح لدى الشاعر صورة للقصيدة بكاملها تتحد فيها الآلية والحركة، الفاجعة والكاركتير..

هبّوا مثل الجوقة المذعورين
ضد ألوف الناس:
..أبداً ...أبداً
لا يمكن هذا....!!
فرأينا كيف ارتفع الماء الآسن
في آنية بشرية
بين نحيف وبدين!

قصيدة (الأواني المستطرقة)

هذا الإخلاص الشديد للشعر هو الذي جعل شاعراً ذا أفكار كمهدي يتعامل مع واقع فعليّ وليس مع تجريدات مفارقة لهذا

الواقع: لان الشاعر في قصائده لا يتعامل مع نماذج مسبقة في ذهنه، بل مع واقع هو حاضر أبدا للتقييم حتى ولو كان ماضياً تصوره القصيدة، لان هذا الماضي يحضر من خلال تقييمه المتجدد بعيداً عما يفترضه الشاعر. فالأم لديه:

لم تحب سوى أبنائها الذين يغادرونها
واحدا بعد الآخر
ولم تعرف غير الصلاة والمرض!

قصيدة (أمي)

إن ديوان (رحيل عام 78) وما أعقبه من قصائد للشاعر شهادة فنية لأدنى تفصيلاتنا وأحاسيسنا في الوطن والمنفى مكذبة دعوى الذين ينعون على شعرنا لا مبالاته وعزلته وقصوره الفنيّ:

يا للهوة التي حدثت بيني وبين أمي
ذلك الفراق الذي تم دون وداع
كما لو كنت ماضيا لشرب الماء
أو لتجفيف اليدين!

هكذا ودع الكثيرون منا وطنهم. إن عنوان هذه القصيدة (تغريب) يشكل عنصراً أساسياً في القصيدة، فأي تغريب أشد من هذا حين نودع الوطن الذي لازمنا و لازمناه، عابرين.

إنّ هذه الشهادة لا نلمسها فقط حين ينحني الشاعر على بئر وطنه وإنما تتجلى أيضاً بالطريقة ذاتها في تعامله مع تفاصيل المنفى، ففي قصيدة (حقول أبين) نحن إزاء واقع يشكّل مستويات عديدة دون أن يفقد الخيط الذي يجعل تشكيل القصيدة ذا دلالة إنسانية قادرة على التوصيل عبر الوصف الذي يمزج الحدث والفعل الإنسانيين، ليصبح ديكور القصيدة وحدثها في آن واحد، مذكرة إيانا بنبرة الشعراء الإنسانيين وحكمتها الموجزة التي لا تفقد عذوبتها وفنيتها في أشدّ أشكالها بساطة وتوجها:

حتى أنت أيتها الصغيرة
جئت الى بئر الطاحونة
بدلوك الصغير!
افسحوا لها المكان
رعوها تنسلل من بين الأرجل
دون انتظار الطابور
إنها صغيرة وهادئة
إنها لاتقول شيئا
افسحوا لها المكان!

قصائد
إلى مهدي محمد علي

1

لك الخِرج
تذكرهُ؟
لم يكن غيرَ كسرةِ خبزٍ
وبضعةَ أشياء
نحملها في الطريق
أنلقيه،
أم إننا
حين أقبلت الناس
واكتظت السوق
قلنا: بضاعتنا هذه
هل تُردّ إلينا؟

2

أجل أيتها الصديق

هناك من سيأتي
وقد أتى
حاملاً حطبَ الشتاء إلى الصيف
مستظلاً بنار الظهيرة
لاعناً قشعريرة الشعر
أجل وسيهلل له الكثيرون

3

قد نضيع الطريقَ إلى البيت
ونحمل أشعارنا في محفّرٍ
ناقمين على الأرض
عنودين صابرين لا يرانا أحد
في هذا الملعب الواسع
الذي غصّ بالشعراء

4

سأسرّك بنبإ عظيم
لا أحتملُ
وقد أرهقني
لقد ولدتُ جبلاً
وها هي إحدى علاماتِ
صخرة الشعر
وينبوعُها الذي يسيل

أحاول أن أعود بعيدا بذاكرتي لسنين مضت وبالضبط في بداية سبعينيات القرن الماضي حيث نشطت من جديد كل خلايا الحزب وقواعده وتدفقت فيها دماء شبابية جديدة متحدية ديماغوجية وهرطقات (الحزب القائد) ، وإرهابه والتصفيات الجسدية للعديد من رفاقنا الشهداء . فعادت للمنظمات الديمقراطية حيويتها ونشاطاتها وأخذت تتغلغل بقوة وإصرار بين شباب

مهدي محمد علي: شجرة مثمرة.. ومنجز غمرته الظلال

جاسم العايف

تربطني بالشاعر الرّاحل "مهدي محمد علي"، منذ مطلع عقد ستينيات القرن الماضي، علاقة قامت على اهتمامات ثقافية – أدبية، في بدايات تطلعاتنا تلك. وكان الشاعر عبد الكريم كاصد، صديقنا المشترك، جسر تلك الصداقة التي توطّدت وتعمّقت جداً أوائل السبعينيات. في منتصف عام 1978 تصاعدت موجة العسف السلطوي وسرعان ما انقلبت إلى هستيريا من القمع الأعمى الذي أهوى بسياطه على ظهور الوطنيين والتقدميين، ما اضطرنا مهدي وكريم وعزيز السماوي، الذي كان منسباً للعمل في البصرة، وأنا إلى أن نلتقي،غالباً، في بيتي، بعد أن بات التردد على المدينة ومباهجها البريئة صعباً، ولا ضرورة تستدعي علنية اللقاءات. عن ذلك البيت المؤجر، كتب مهدي، خلال إقامته المؤقتة، سراً، في الكويت قصيدة (صديق)، التي نشرها بعد ذلك في (عدن)، دون أن ينشر الإهداء، خشية منه عليَّ، وقد أكد ليّ ذلك (كريم) أولاً، في رسالة مطولة كتبها لي وبعثها من عدن بوساطة أحد الأصدقاء المسافرين إلى دمشق، ووصلتني

مهربة، بعد أشهر من تاريخ إرسالها، وعندما التقينا، مهدي وأنا، خلال زيارته البصرة في منتصف شباط عام 2005 ، وهي الزيارة الأولى له بعد هروبه، منها، والأخيرة أيضاً، أخبرني بذلك:

صديق
أعرف الباب
والعتبة الحجرية
والممر الصغير
والشجيرة نحو اليمين
.....
أذكر الآن قهوة مُرّة
وابتسامة مُرّة
وهو يجهد أن يستضيء الكتب

وكلامَ الصديق" الكويت/ 1979/ ديوان/ رحيل عام 78

كانت تلك اللقاءات محفوفة بمخاطر كثيرة غير متوقعة، إلا أننا كنا نتغلب فيها على ما يحيطنا من خوف وخشية، متجاهلين كل ما سيحدث أو نتوقع حدوثه لنا، في أية لحظة، ونظل ، إلى ما بعد منتصف الليل نستمع بمرح وحميمية، إلى طرائف (مهدي وعزيز) المتواصلة، حول ما آلت إليه الأمور العامة. في إحدى الليالي، غادر كريم ومهدي قبل منتصف الليل، وبقي (عزيز) معي، لكنه استيقظ في الساعة الرابعة فجراً، فأتحفته بكوفية ملونة قديمة كنت أحتفظ بها لتقيه البرد وأعين حرس النظام، ثم ودعته في باب مسكني، وغادر نحو مرآب السيارات المتجهة إلى بغداد، ومذ ذلك الفجر لم أشاهده أو التقه نهائياً إذ توفي ودفن في إحدى مقابر لندن. علمت بعد ذلك أن كريماً غادر أيضاً متخفياً تجاه بغداد، ولم أره، إلا بعد سقوط النظام، وفي سفوان، لحضور مهرجان المربد الثاني/ المنعقد أوائل نيسان عام ٢٠٠٥/ دورة الشاعر فوزي كريم. بعد تلك الليلة وفي الصباح تم اقتيادي من مقر عملي إلى مديرية أمن البصرة. وفي وقت متأخر من الليل (تكرموا) عليّ، فنقلوني، بالسيارة إل (فولكس وأكن) ذاتها، وألقوني قريباً من منزلي بوحشية وقسوة وفظاظة. لا ضرورة أن أسرد ما حدث لي، طوال النهار وجزء من الليل، في سراديب مديرية الأمن ، فهذا الأمر لا يشكل ليّ أي امتياز، إذ شاركني فيه آلاف الناس، الذين تعرضوا لأقسى وأفتك وأشد ضراوة مما تعرضت له ، وفيهم من بات مجهول المصير حتى اللحظة، وآخرون لم يعثر لهم إلا على وثائق ، باردة، تكشف عن المصائر الغادرة المحزنة التي انتهوا إليها، دون ذنوب أو معاصٍ ارتكبوها، ومع أن كل ما جرى عصيّ على النسيان، إلا انه بات من الماضي وأطمح ويشاركني في ذلك ملايين العراقيين في أن لا يتكرر أيّ مقطع منه، تحت أية ذريعة ما ، وبأي شكل أو مسمى كان، الآن أو في المستقبل لأي آدمي يعيش، أو سيولد في قادم الأيام على هذه الأرض. في الصباح ، أرسلت أخي الصغير إلى مكان، يقع في منطقة العشار، أكدت له انه

حتماً سيجد (مهدي) فيه، ويوصيه باقتراحي عليه ضرورة مغادرته البصرة وفي اليوم بالذات، وفيما إذا تمكن من ذلك فعليه المغادرة في اللحظة ذاتها. وفعلاً التقاه هناك، واستجاب، سريعاً، مهدي، لمقترحي، فانتقل سراً إلى (بغداد) مع حلول ظلام ذلك اليوم. وهناك بقي مختبئاً في غرفة بالقرب من أحد الأسواق العامة، تعود لوالد أحد أصدقائه، الذي يعمل بالتجارة، وهي عبارة عن مخزن

لحفظ البضائع المستوردة والمحلية، تم ترتيب مكان بسيط جداً لمهدي بينها:

حينما يهبط الليل تخرج،
خمسون يوماً
لم ترَ شمس النهار،
خمسون يوماً
وأنت قابع في غرفة عاريات
في طابق علوي

***

خمسون يوماً
تتمطى في ظلام النهار
على حشد من الوسائد والأوراق !"
بغداد/ رحيل عام 78

2

غادر مهدي ،العراق ، بصحبة الشاعر" "عبد الكريم كاصد" ، بدلالة بعض المهربين ، عبر بادية السماوة، في رحلة جحيمية، نحو (الكويت)، ومنها إلى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية –حينها:

في أول هذا العام
غادرتُ الوطن بزيٍّ بدويّ
وعبرتُ صحاراه على ظهر بعير
في قافلة من رمل ورياح
ونياق و أدلاّء
ورجال تبحث عن رزق ما بعد الصحراء
.....
سبعة أيام بلياليها
لم نعرف غير ذُلول ودليل
وسماء ورمال
وصحارى تصفر فيها الريح
.....
وطن يمتد إلى أقصى الأرض وأقصى الروح

***

شربنا من مياه السيل
شاركنا الرواحل تمرها
والاهتزاز المرّ فوق ظهورها
والهمهماتِ إذا قطعنا سبخة زَلَقاً
وأنصتنا لها تجرّ

***

أمي تذكرني
وأنا أتوسد رمل الصحراء
ملتحفاً برحال
تملأ سمعي أصوات كلاب الصحراء
تخطفني أنوار الدوريات ". /
الكويت/ رحيل عام 78

خلال زيارة "مهدي" البصرة ، شباط عام 2005 وفي استضافة لاتحاد الأدباء والكتاب له، أعلن انه وعبد الكريم كاصد غادرا الكويت بجوازات سفر رسمية يمنية، وقد سافرا بطائرة متهالكة جداً عائدة لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، وإنها خلال تحليقها فوق مياه الخليج العربي، كادت أن تهوي هناك، فأمسك بيد عبد الكريم كاصد قائلاً:" حتى لو سقطت الطائرة هنا، وأصبحنا فريسة سهلة وشهية لكل ما هو مجهول في تلك المياه.. فأننا نكون قد نجونا"!؟. ظل مهدي سنوات في اليمن الجنوبية يعمل في المجال الإعلامي والثقافي. حتى غادر إلى مناف لا عد لها . لكنه بقي يعيش حياته في "البصرة" ، وكتب عنها كتابه (البصرة..جنة البستان)- إصدارات دار

المدى/1998- دمشق. وقد استغرق منه ثلاث سنوات بدأ فيها من عام1982 حين تأكدت حالة النفي ، وبعد أن استشرف المستقبل، رأى انه لن يعود إلى مدينته إلا بعد سنين طويلة ، وربما لن يعود أبداً، وانه بالتأكيد، حتى وإن عاد، فهو لن يعود مطلقاً، إلى بصرة الطفولة والصبا ، لأنها بدأت في الواقع تتثلم منذ إزالة (الطاق) في (العشار) ومبنى (البنك العربي) وساعة (سورين) ، وتغير ملامح (كورنيش) شط العرب، وكذلك مقهى بعض مثقفي وأدباء المدينة الذين يغلب عليهم توجه سياسي معين، ومن المشخصين جيداً من سلطات ذلك الزمان وأجهزتها الحزبية والأمنية المتعددة. ومع تتابع وتواصل هدم ومحو شواخص بصرته، بقي (مهدي) في كل قصائده التي كتبها خلال أكثر من ثلاثة عقود وهو خارج البصرة، مصراً على تذييلها بـ (البصرة-....) ويضع المدينة التي هو فيها بعدها مثلاً:(البصرة-عدن)أو (البصرة- موسكو)أو(البصرة- طرابلس) وأخيراً(البصرة-حلب).يذكر (مهدي) في مقدمة (البصرة ..جنة البستان) : "قررت أن احمل بصرتي معي مهما تتبدل المنافي والبلدان، بكل أحوالها وتحولاتها ، ورأيت إن ذلك يستلزم أن أحفظ مدينتي تلك في صفحات كتاب ، وعليه باشرت برسمه بالكلمات..وقد رسمت المدينة كما رأيتها وعشتها وكما رأيت ناسها وعايشتهم من عمر الخامسة حتى الخامسة عشرة..إنه رؤيا طفل، لواقع مدينة البصرة في بداية العقد الخمسيني" يلاحظ في (البصرة جنة البستان) المزج بين الاستذكارات النثرية المطعمة بالشعر، للكشف عن تصورات ذلك الطفل وأخيلته/ الشقي تارة ، الرقيق في الغالب/ الذي يجلس في أعلى شجرة (التوت - التكي) العالية ليتذوق ما يشاء من ثمرها ، ويمسك بيديه صغار البلابل بلحمها الطري ، لكنه يرق لصراخ أمها، التي تحوم حوله فزعة، فيتركها دون أذى، كما انه وعي الطفل وذاكرته الحادة جداً التي تحتفظ بسمات مدينته، ومع انه في المنفى ، إلا انه يتفحص قصص مَنْ عايشهم فيها ومنهم أمه وإخوته وأخواته وجيرانه وأصحاب طفولته ، من الذكور والإناث ، وحتى أصوات بائعي (الصمون الحار والقيمر صباحاً)، وكذلك يؤرخ لصوت (البلبل) الذي عادة ما كانت تبدأ (دار الإذاعة العراقية) بثها الصباحي بإشارته، والذي يختفي صباح14 تموز 1958 .

بدأت مسيرة (مهدي) الشعرية منذ خريف عام1961 إذ عرف به أستاذه، في الدراسة، الشاعر سعدي يوسف، ونشر له مع مقدمة خص بها قصيدته، الأولى ، المنشورة، في إحدى الصحف اليومية التي تصدر في بغداد ، في خريف عام 1945 ولد مهدي أيضاً. رسخت تجربته الشعرية منذ بداية السبعينيات بتواصله مع النشر، واعتماده ما سمي،حينها، بـ (القصيدة اليومية). بعد كل ما قدمه (مهدي) ثقافياً وأدبياً ومع كل إصداراته الشعرية التالية :/رحيل عام 78/ وزارة الثقافة والإرشاد القومي / دمشق 1983 /، سِر التفاحة/دار بابل/ دمشق 1987/، شمعة في قاع النهر/ وزارة الثقافة السورية 1995/، خطى العين/ اتحاد الكتاب العرب/ دمشق 1995/ ، سماع منفرد/ دار المدى للثقافة والنشر/ دمشق 1996/، ضوء الجذور/ وزارة الثقافة السورية2001/ ، قَطْرُ الشَّذى/ الهيئة

العامة السورية للكتاب2008 ، وكذلك / البصرة جنة البستان/ . إضافة لعضويته في هيئة تحرير مجلة "الثقافة الجديدة" ومسؤوليته عن صفحاتها الثقافية والأدبية والفنية وما كتبه فيها طوال أكثر من عقدين ونصف لكنه بقي بعيداً عن الاهتمام اللائق بما أصدره وتناول دواوينه نقدياً ، وفحص تجربته الشعرية التي تنتمي في صميمها للشعر العراقي . وما كتب عنها ، بعضه ، لا يتجاوز التعريف الصحفي. وربما لم يرد له ولشعره /دون جزم/ في الانطولوجيات الشعرية التي صدرت عن الشعر العراقي ، أي ذكر باستثناء اختيارات الشاعر "هاشم شفيق"، ضمن سلسة "كتاب في جريدة" الذي تصدره منظمة اليونسكو، والشاعر (شفيق) لم يذكر كل ما صدر له من مجاميع شعرية واكتفى ببعضها. بقي "مهدي " كاسم شعري، مع كل تلك المنجزات، مغموراً بالظلال، حتى أنه لم تتم دعوته إلى مرابد بعد السقوط ، إلا في المربد الثاني، وضمن أدباء المنافي الذين يحضرون على نفقتهم الخاصة، وكأنه لا ينتسب للشعر العراقي أو البصرة بالذات !؟.

3

يستثمر مهدي محمد علي في ديوانه (رحيل عام 78) ثنائية / الحضور – الغياب/ حضور الذاكرة – الماضي – وغيابها الآني، استدلال الأمكنة والأحداث والأشخاص بوضوح، محاورتهم ، طغيان ملامحهم ، الاحتفاظ بأدق الخصائص الواقعية للمشهد – الماضي القابع في الذاكرة – غياب الوطن في المنفى واختراق المنفى ذاته في حضور الوطن، الناس، الأحداث، الصلات اليومية ، المدن ، الشوارع، الساحات العامة وغبارها، حدائق البيوت، الأزقة، البساتين، الأنهر ، ألوان الستائر، المنزلية، تراب الغرف المقفلة، وحتى فسحة ضوء نافذة المطبخ. هذه الاستحضارات، محاولة للتشبث بالماضي الهارب، استناداً إلى قوة الذاكرة وحضورها العيني– المتفوق، المتوقد من خلال إقصاء المنفى ، والعمل على نفيه كوجود متحقق، ومُعطى دون اختيار شخصي، ثم العمل على تجاوز حضوره اليومي – الطاغي المتجسد بالحاضر ذاته، الملموس المباشر. تعتمد ذاكرة(مهدي) الشعرية المشاهد بطريقة ليست حلمية، بل متجاوزة ومنظمة من خلال اشتغال آليات الذاكرة التي تستدعي الوطن (الحاضر – الغائب) ، وكذلك الصديق ، الأم، صبية الجيران والسياج الذي يتسلقونه كأنهم نبات بشري، المكتبة، الأخت الكبرى، كلاب الحي وقططه، وتعود قصيدة "مهدي" لتحتفي بالبئر العذبة – بئر الطفولة :

أتدلى فيه كما أتدلى في بئر
بحثاً عن صحيفة قديمة
أو تلبية لرغبة طفل
بحثاً عن أجزاء لعبة محطمة
وأنا الآن أتدلى نحو وطني
كما أتدلى نحو بئر أليفة وموحشة عدن

تقبض ذاكرة المنفى على الماضي، لتستريح من أعباء الحاضر، ولتخترق الراهن وتسعى لان تمسك بالأشياء – الغائبة – ولتؤنسن العلاقات الشخصية، التي تتمسك بها الذاكرة بقصدية لمغالبة الحاضر المشخص عبر المنفى. تفعل الذاكرة حتى الجمادات، وتستدعي كلاب الجيران السائبة النابحة ليلا في مشهد فنتازي، بقصدية، لتجاوز وقائع الحياة اليومية للمنفي قسراً، فحضور الطفل المتدلي مرتبط بفضاء الذاكرة

لخلق معادلة مع الحاضر (الموجع – الموحش) ، تتشبث الذاكرة بالأشياء الهاربة من الحاضر والساكنة هناك، في الماضي البعيد، لكنها لا تتوقف عند الشخصي فقط:

أما زالت غرفتي وحيدة
تتمرغ في سكون الوطن
الوطن الذي تلوى على رماد الحرب
الحرب التي تلتهم الذكريات ؟! موسكو

ثمة حضور يومي للمشاهد، مستقى من بساطة الحياة، ومصادفاتها الغريبة، المدهشة المكتظة، فالأطفال، في قصيدة –سياج– بصخبهم وشقاواتهم والذين يمتنعون عن تسلق سياج البيت، بعد نَهرِهم، يحولون السياج إلى عازل عن الحياة ذاتها، بعد أن كانوا (النبات البشري المتسلق)، وتبادل الأدوار بين المانح والمتسكع في قصيدة– مواقع– والخاضع للمصادفة البحتة، وصَبيّة الحارس في قصيدة– ستائر– التي تراقب ستائر المنزل،وتجهل لماذا وكيف وأين توضع تلك الستائر؟!. وتتحول الصور اليومية إلى فعل مملوء بالغضب والمرارة ، ويبقى الأمل الذي يفعّل هذه الكائنات البشرية ، المقتنعة بحياتها الهامشية التي تحولها اللغة والصور إلى نسيج يضج بالحركة والوجود المتوتر والإنساني.

عام1973 نشر (مهدي)، في طريق الشعب، قصيدة بعنوان (قصيدة منزلية) عدت حينها من أهم القصائد التي تناولت ربة البيت، وعبودية عملها المنزلي اليومي، والتي ترى الغرفات والأبواب والشبابيك مشرعة والحديقة مهجورة للعصافير عند الضحى، وهي تنقل خطواتها في بيتها لتعيد ترتيبه ، الأواني ، الستائر ، الأحذية ، الأسرة، الكتب المدرسية المبعثرة ، ملابس النوم، كراسي الحديقة، وبعد دورتها تلك في عبوديتها اليومية – المنزلية الدائمة ، تستدعي ضحكاتهم وإهمالهم المتعمد المملوء بصخبهم الذي يثير الزوابع في بيتها المرتب بأناقة والساكن الآن، وتؤاخذهم بأسى مغلف بالحنان والحب غير المحدود والممزوج بالعتب:

يثيرون زوبعة في الفناجين..؟
هم قد يثيرون كل الزوابع في الأرض
لكنهم ، داخل البيت
يحفون أنفسهم بالصياح الحبيب إلى النفس
يلقون أنفسهم في أتون المناقشة الفجة الطعم...
لا ترغبين مناقشة حتى الجذور
.....
تحبينهم
تهمسين لنفسك: لو يدخلون المطابخ يوماً
وتبتسمين قليلاً
.....
تودين لو يكبرون سريعاً
وأن يملكوا وسط محركِ
تبتسمين طويلاً
وقد تدمع العين، إذ تبتسمين!

وتظل (امرأة المنزل) معلقةً بين حالتين، أولاهما هواجسها عند تأخر عودتهم، والأخرى فرحها ببيتها المتوازن حالياً ، الأنيق بعملها ، وبصماتها، ثم لتبدأ دورة معتادة يومية أخرى:

يصطفق الباب
تملأ ضجتهم باحة البيت والغرفات
ترين الشبابيك تفتح ثانيةً

والعصافير تهتزّ فوق غصون الحديقة
والبيت يرتج
.....
تبتسمين طويلاً
وقد تدمع العين، إذ تبتسمين! لبصرة

بعد سنوات يختبئ الشاعر" مهدي محمد علي" مُكرهاً في بغداد، وفي تلك الحالة التي عليها يستدعي " امرأة المنزل " ويكتب عنها ثانيةً قصيدته (هوامش.. على قصيدة منزلية) عن امرأة المنزل ذاتها ، التي تفقد الأبناء واحداً واحداً. وبعد انقطاع توازنها وسكونها القديم، وهي تنتقل بين المدن وبوابات المواقف والسجون وحتى المقابر، باحثة عن الأعزاء، ومحاصرة بالأسئلة التي لا جواب لها، فتحاول أن تشم رائحة الأبناء الذين كبروا:

لقد أوغل الأبناء في الكلام
أوغلوا.. حتى تهشمت الفناجين
وانفطرت الصحون و أُرهقت السكين
وانفجرت رميةَ الصبر!

وتبعثروا هنا وهناك دون أدنى أمل بلقائهم أو حتى معرفة مصائرهم. وعند عودتها ، يائسة قانطة وحيدة وذليلة، منكسرة ، يلفها السواد، إلى بيتها القديم ذاته، حيث حديقته خالية ومهجورة ترابط فيها العصافير ،والغربان نهاراً وليلاً:

ترين البيت خالياً
بينما يمتلئ فراغه بالأناشيد المعادة
تأتي من مدرسة مجاورة
تأتي في
كل وقت
لتمحو من على الجدران
أرقاما عزيزة بغدار

4

يذكر الشاعر عبد الكريم كاصد في كتاب (الشاعر.. خارج النص/ ص 73) :" حين كنا في سوريا،هاربين من النظام، نعيش متجاورين، مهدي محمد علي وأنا، كان هو مشغولاً بمشروعه الرائع (البصرة..جنة البستان) وهو من أجمل الكتب التي صدرت في المنفى. قرأه الكثيرون: مهندسون، أطباء، عمال، طلاب، وتم تهريبه إلى العراق آنذاك، ولكنه للأسف لم يجد أي صدىً، في الجو الثقافي العراقي والعربي الصدئ". عن تجاهل منجزاته الشعرية والنثرية المتعددة المتنوعة يقول (مهدي) في حوار أجراه معه الناقد (مقداد مسعود):"هذا من اختصاص النقاد ومن مهماتهم..ومن جانبي فأنني لا أبيح لنفسي أن احدد صفتي أو موضعي غير أنني أستطيع أن اصف تجربتي الشعرية وكتاباتي الأخرى لأضيئها لا لكي أعطيها قيمة محددة أو درجة بعينها..ولقد وصفت نفسي مرة وأنا أتحدث عن تجربتي: بأنني شجرة في حديقة عامة انتظر أن يلتفتَ إليَّ احد العابرين فينبه عابراً آخر، فآخر..حتى يقبل الناس نحوي"!؟. مع الغياب النهائي لأخي العزيز (مهدي) ترى مَنْ سيلتفتَ إلى ما قدمه من منجز شعري ثرّ طافح بما هو إنساني، ثريّ بملامحه المحلية، غنيّ بناسه البسطاء القابعين في أسفل القاع الاجتماعي والمقصيين عن الحياة الإنسانية اللائقة والغارقين في الإهمال، في بلد لا حد لثرائه المادي الهائل، وليس هناك مَنْ تفقدهم أو سأل عنهم، خاصة ممن حكمهم سابقا أو حالياً،..كيف يمكن أن يقبل أولئك الناس وغيرهم نحوه.!؟. وكيف سيصله ذلك !؟ ومَن سيطلعهُ عليه!؟..بعد رحيله المفجع.. الذي لم يكن في أوانهِ.

مهدي محمد علي ..
الرحيل المعاكس

وداد فاخر❖

البصرة في كافة المحلات والمناطق / طلبة .. شبيبة.. عمال .. نساء. . والتف من جديد حول الحزب جمع غفير من المثقفين والرياضيين أن لم يكن داخل التنظيمات الديمقراطية، أو خلايا الحزب فبقلوبهم وعواطفهم كانوا مع الحزب.

في تلك الفترة ونحن في خضم العمل الجماهيري النشط لضم اكبر عدد من الشباب للشبيبة التقيت الشخصية الوطنية والمثقف المرح الذي لا تفارق النكتة العفوية لسانه دائما إن كان على شكل تعليق عابر أو حسچه عراقية الشاعر الهادئ والأنيق والعفيف مهدي محمد علي . ولم نكن قبل ذلك بعيدين عن بعض فكلانا تقريبا أبناء منطقة واحدة وذلك لتداخل محلات البصرة القديمة مع بعضها فقد كان يسكن مع أخيه الأكبر كاظم في محلة الخليلية وأنا اسكن في محلة أبو الحسن الملاصقة لها ويفصل بيننا كم دربونه صغيرة .

كنا نعرف بعضنا كأبناء منطقة واحدة وكحاملي فكر تقدمي ، لكن العلاقة الحميمية جاءت من اجتماعنا بخلية حزبية في تلك الفترة ، بينما كنت احمل إعجابا بداخلي لأخيه كاظم منذ صباي، العامل النقابي السابق والنشط في نقابة الخياطين في البصرة بعد ثورة تموز الذي كان يتردد على بيت احد أصدقائي في محلتنا والذي كان يختفي فيه لفترة بعد أن عاد نشاط رجال بهجت العطية ضد الحزب في بداية ستينات القرن الماضي أيام الزعيم. الرفيق المرحوم علي ذهب (أبو تحسين) الذي كان يزودنا بالقصص والكتب السوفيتية وبدأ منذ أول صبانا يغرس حب الماركسية في قلوبنا فقرأنا الأم والفولاذ سقيناه وغيرها من الروايات الثورية .

وكان مهدي إلى جانب هدوئه ولطافته نشطا وحيويا بالنسبة للعمل الحزبي، وكان احد القلائل معي لتوفير مكان لاجتماعاتنا حيث كنا نجتمع في بيت أخيه. وفي باقي الأيام كنا نلتقي أحيانا في العشار ، وبعد أن افتتحت مكتبتي (مكتبة عشتار) في سوق الهنود بالعشار صارت لقاءاتنا شبه يومية حيث يعرج بعد انتهاء دوامه في المدرسة للمكتبة ويقف لنتحدث عن أحداث الساعة بعد أن أساله عن آخر نتاجاته الأدبية ، أو ننغمس في الحديث المر عما يعانيه رفاقنا الطلبة من مضايقات وتحرشات وحتى الاعتداءات الجسدية من قبل قطعان البعث المنضوين داخل اتحادهم الفاشي (الاتحاد الوطني لطلبة العراق) ، بعد أن تحول الحديث السابق الذي كان يجري بيننا حول التعجيل بانتهاء المرحلة

الديمقراطية والبدء بترسيخ سلطة الشعب، وسيكارة مهدي لا تفارق أصابعه في معظم الأحيان وهي تنتقل بين أصابعه وشفاهه إلى تمني وأحلام . وعندما يستأذن في العودة للبيت أقول : له بعد وقت وين؟ ، يجيبني أعود لصومعتي في غرفتي لأعيش أجوائي الرومانسية بين ذبالة الشمعة التي أوقدها لتنير ظلام غرفتي بعد أن أطفأ المصباح وأسجل خلالها نجواي التي تخرج من دواخلي .

وكان يشاركنا الحديث أحيانا بعض رفاق الحزب الذين نعرفهم أو كنا نعمل معهم سابقا أو بعض الشخصيات الوطنية ، كالمرحوم الأستاذ عبد المنعم كمال الدين ، والأستاذ عبد العباس الشيخ حسين ويصادف أن يحضر أحيانا احد رفاقنا في العمل داخل الخلية وهو القاص عبد الحسين لا يسعفني المقام بذكر اسمه الكامل ، ورفاق وأصدقاء آخرين .

وكان حديث مهدي في معظم الأحيان يتناول حاجة الكثير من بعض طلبته وأوضاع بعضهم المأساوية، فكان يحمل همهم إلى جانب هموم الوطن.

وفي يوم افتتح احد الخياطين المحل الملاصق لمكتبتي، وكان شخصا ودودا وطيبا للغاية وأتذكر اسمه كاظم وهو أصلا من أهالي الناصرية النازحين للبصرة. بعد فتره وجيزة لاحظت بعد عصر كل يوم حضور شباب بأعمار مختلفة لمحله ووقوف بعضهم ملاصقين للمكتبة وهم يتندرون ويضحكون ، وحضر معهم بعد ذلك احد ضباط القوات الخاصة وهو رياضي كمال أجسام من أهالي العشار وكان محسوبا من قبل كأحد أصدقاء الحزب ، فكانت فرصة لكي أسأله عن الجماعة فأخبرني هامسا : هؤلاء ضباط امن البصرة وبين قوسين أكد بأنهم (خوش ولد) !!! . وكان احدهم وهو شاب أبيض وسيم ، كما كان يبدو في منتصف العشرينيات من عمره يبادرني بالسلام والسؤال عن الصحة والأحوال عندما أكون متواجدا في المكتبة حال وصوله وقبل دخوله لمحل الخياط وعرفت من صديقنا الضابط إن اسمه علي وهو من أهل الدليم.

سارعت بإخبار جميع رفاقنا من المترددين على المكتبة بالوضع الجديد والحذر إثناء الحديث بوجود هؤلاء (الرفاق الخوش ولد) ، فتساءل مهدي بطريقته الساخرة: (شنو هذول ورانه ورانه ؟؟) .

ورغم تفرقنا كرفاق في خلية واحدة وانتقال البعض منا لعمل آخر لكن مهدي لم يتوقف عن التردد على المكتبة وهو يحمل بدواخله هموم الناس وسوء الأوضاع السياسية وخاصة في بداية الهجمة الشرسة على حزبنا وقواعده . وسألني في احد تلك الأيام الصعبة جدا في صيف العام ١٩٧٨ : هل لا زال إمام مسجد الأوقاف صديقا للحزب؟ ، أجبته نعم فالرجل مثير جدا للإعجاب ومخلص للنهاية ولا زلنا نرسل له جريدة طريق الشعب يوميا بعد أن تم توزيعها بصوره سرية من جديد بين الرفاق عن طريق الحزب. وكان يردد دائما اعجابه بذلك الشيخ الجليل عندما أخبرت رفاقي في الخلية يوما ما عن نقاء هذا الرجل الذي كسبه ابنه احد زملائنا في الشبيبة كصديق متبرع للحزب ، وهو إمام احد مساجد الأوقاف حيث يؤم المصلين وظل مواظبا معنا مشاركا في دفع تبرعه حتى تركي للعراق في نهاية آب1978 في

هجرتنا الأولى عن الوطن التي استمرت لحد اليوم ، والتقيته بمعية ابنه (واثق) أكثر من مرة وكان يستقبلني بود وترحاب ويثني على الحزب ورفاقه وكنت اشعر تجاهه باحترام وتقدير كبيرين وهو بملابسه الدينية الوقورة ، فتحية لذلك الشيخ الوقور (أبو واثق) إن كان على قيد الحياة والذكر الطيب له إن رحل عن عالمنا بفكره النير وأخلاقه الحميدة .

وبتصاعد الهجمة الفاشية الشرسة ضد حزبنا وبداية الاعتقالات المبرمجة بدأ تردد الرفاق على المكتبة يكاد يكون شبه نادر واتخذ الجميع الحيطة والحذر لقوة وشراسة ووحشية الهجمة الفاشية. ثم بدأ البعض يعد العدة للاختفاء عن عيون رجال الأمن ومخبريهم وخاصة في المحلات والعمل والمدارس ، وانقطعت فجأة وغصبا عن الجميع جميع الأواصر بين الرفاق وكان مهدي احدهم حيث افتقدته في الفترة الأخيره ما قبل تركي للعراق بصورة تامة .

وعادت نفس الروح الرفاقية السابقة بيني وبين مهدي بعد تسلمه تحرير أدب وفن في (الثقافة الجديدة) وأنا أشعر بروحه المرحة وخفة دمه ونكاته المتواصلة على صفحاتها ، ولم نلتق إلا لمرة واحدة في عاصمة الأمويين دمشق الشام العام 2002 ، ويوم قرأت رحيل مهدي المبكر والمعاكس لهجرة الطيور الزاحفة للبصرة من بط وخضيري ودراج ودجاج الماء وبقية الطيور المهاجرة في أول موسم الشتاء، لم أجد ما يواسينني عن فقدانه رغم ترديدي بيت الشعر المحزن:

يا صيحةً تُحمدُ من صوائح

ما أهون الموت على النوائح

الذكر الطيب لغريد البصرة الشادي مهدي محمد علي ، ذلك الطائر الجميل الذي استعجل رحلته المبكرة المعاكسة للطيور المهاجرة ، وحلق بعيدا في أجواء ملائكية ساحرة حاضنا بين جوانحه بصرة أبو الأسود الدؤولي والفراهيدي والسياب ومصطفى عبد اللّه والبريكان ، البصري العفيف اليد واللسان .

***فيينا / النمسا**

نصوص شعرية ونثرية كتبها مهدي
في فترات سابقة

حالتنا..حالة!

احتاج الى عشرة أمثالي
كي أتحمل حالي،
في العشق
وفي سعي العيش:
الخبز
المازوت
الغاز
خطى أهلي
والناس
وجاري الجاهل
احتاج الى عشرة مهديين سواي
لعرقلة الدجال الاعور في هذه الأيام

بصرة حلب
1997/3/15

مزاج غائم!

هذا الماشي
في هذا الدرب
وحيدا
في هذا اليوم الشتوي
وهذا الغيم
وهذا الظهر الساكن
مازا في جنبيه يسليه؟!
مازا يدعوه الى هذا السير الغامض
في هذا الدرب
وهذا اليوم
وهذا الظهر
وهذا الغيم؟!
هل يستوقفه
احد
أو شجر
أو ذكرى؟!
أم سوف يظل يسير
- كما الساري في النوم-
حتى آخر الدرب
وآخر هذا الغيم؟!

بصرة حلب
1997/11/17

غروب الراعي

الى روح عدّاي أبو السنحول

استحضرك الآن،
واستحضر تلك السخلات
ترافقك الرحلة للمرعى
والعودة للبيت
... تتبعك الى المرعى
في الفجر
وعند غروب اليوم
ستتبع نقر عصاك الى المأوى
..بعصاك
ستنقر أبوابا تفتح
تنقر،
والسخلة تدخل أول بيت

تنقر..
تدخل أخرى
تنقر
تنقر
حتى ينضب سربك
تبقى وحدك
تنقر في الدرب
تواخي روحك
وعصاك
الى فجر اليوم التالي،
كي تتبعك السخلات
الى المرعى
تخلو معهن
وروحك
والمزمار
وتنوح!
وتعود غروب اليوم
لتنقر أبوابا تفتح للسخلات
وأنت بلا احد
يفتح بابا يؤويك

بصرة حلب
1997/1/21

مقامة الأسئلة ❖

كيف أفكّرُ بالمُتحفِ مُقتحماً بالجَزَمات؟!
كيف أرى أعظمَ مكتبةٍ للمخطوطات
تُمزَقُ .. وتُسرقُ تذرّ، تذروها ريح الأحذية القذرة؟!
(لا أجرؤ أن ألفظُ إن حريقاً أضرم فيها)!

***

كيف أفكر بالبصرة دونَ مياهٍ صالحةٍ
أو خبزٍ
أو نخلٍ
أو حرّاسْ

***

كيف تجيءُ امرأةٌ في حلمي عند جدارٍ في البصرةِ
فتقول بوجهٍ وضّاح
بالشفتين الطيبتين: أحبّك
فأحاول أن ألفظ شكراً بالهمسِ
فأصحو من حُلمي أسفا!
كيف أتابع فَرْم البصلاتِ الصغرى، عبر المأساةِ
من آخر بصلاتِ الموسم
كي اصنع منها الخس وبعض الخضرةِ صحن السلطةْ
لأخي - وهو أبي - القادم من زلك القرنِ
يتابع في هذا القرنِ الحرب على البصرة
منبتاً
وعلى بغداد ومُتحفِها
وأنا - منفرداً - أبكي مكتبةً كنتُ أقدسها!

***

كيف اصدقُ أنَ أناساً عرباً
وعراقيين - ويا للأسف -
يثقون بأمريكا
بعدَ دمارِ الحربين السابقتين
وحصار دام لأكثر من عشرِ سنينْ
يثقون بأن الأمريكيّ الخوش ..بوش
يحرّرهم
وبلا ثمن؟!!!
كيف؟! وكيف؟! وكيف؟!

ولن أتجاوز، في هذا المَوْرِد، أكثر من قولي
يا هَيْفْ!

***

هل أتوقّعُ شيئاً يبقى؟
أم أتوقّى شيئاً لم يحدث؟!
أم أتوفّرُ للمتبقي من أحلامي..
منتظراً وجه المرآة وضّاحاً
وجداراً في البصرةِ لا يتحقّقُ إلاّ في الحُلم
و >شكراً <مني لايُلفظُ إلا بالهمس
فأصحو من حُلمي مصدوماً بالمارينز الأمريكان
الغازينَ لدجلةَ
والنخلةَ
والمُتحفْ
ليقيموا في بغداد حكومةَ منفى؟!

***

هل أتوقّعُ..
أم أتوقّى..
أم أتوفّرُ للصمتِ الآتي
من شدّةِ صخبِ الأمريكان؟!

بصرة حلب
ربيع 2003
(الثقافة الجديدة)، العدد 309/ 2003

ذلك المواطن ❖

مهدي محمد علي

سموه قديماً زيد الخيل
وسماهُ رسول الله بزيد الخير
لكني عايشتُ الزير القصور لديّ
في القرن الحادي والعشرين
باسم يومي هو (زيد صباح ياسمين)!
عايشتُ الزيد فتى بالمعنى الأموي
كتوما لايستفاق
يألفُ عتمتَهُ إذ هو نور في ذاته
يجعل أغنيةً في المذياع الالكتروني
لكي تغنيه عن الدندنة
بلا سبب
في المكتب!
يجعل في (الثلاجة) خبزاً
جبناً
وخياراً - ماءً
وهو يجوعُ ولا ندري!
يسهر حتى الفجر ولا ندري!
ويفيق الفجر..
يباشر اعمالاً من هذا الفجر
إلى الفجر الآتي
دون كلالٍ
مثل فتى أموي
لاحق له في (ليلى)
أو (لبنى)
فيظل كتوما، لكنْ لايستفاقُ
يألف عتمته
في عتمة تغنيه في المذياع الالكتروني
لكي تغنيه عن الدندنة بلا سببٍ
في المكتب
ليظل إلى ابدٍ زيد الخليل
وزيد الخير!

بصرة حلب 2003/10/6
*(الثقافة الجديدة)، العدد 311 /2004

فوتوغراف:

حمارٌ وحيدٌ
رأيتُهُ صافناً ساهماً
هارناً

..ويلوبُ!
على جَزْرَةِ طريق واسع في (البصرة)
حمارٌ دون أحد
يتحرَّكُ قليلاً
ويدورُ في موضعِ الصغير
في ذلك الطريقِ الواسع
ومثله
رأيتُ حماراً آخرَ
في طريقٍ آخرَ واسعٍ في (البصرة)
ومثلهما منفردَيْنِ
رأيتُ حمارَيْنِ معاً في نفس الحال
وكأنهما حمارٌ واحدٌ
في طريق واسع في (ميسان)
وثلاثةَ حميرٍ كأنهما حمارٌ واحدٌ
في مدينة (الكوت)
ومثلهم ثلاثةَ حمير في (بغداد)
تلتقي أبوازهم بلا أنفاس
صافنين صفنةً واحدة
ساهمين معاً
ويلوبون دون بشر
ولا أحدٍ يلتفتُ إليهم!

بـغداد 2005/3/11

جبهةُ النهر
(في رثاء أخي كاظم)

لا تَقُلْ: أسلمَ الروحَ،
بل أَسْلَمَ الجَسَدا
لا تَقُلْ،
لا تَقُلْ لي
فلن أسمحَنَّ
بأن يُحْسَبَ هذا غروبا
إنما هو شَرْقٌ
على جبهةِ النهرْ
إنه وطأةُ القَدمِ الكاظميَّةْ
فوقَ المِسنّاةِ
قُدّامَ ساعةِ سورين
هذا فقطْ!

بصرةُ حلب
2005/4/7

الولد الجوعان

بعد ربع قرنٍ من المنفى
عدتُ إلى الوطن
أضمُّ وجع المنفى
إلى وجع الوطن
فلقد رأيتُ في كلٍّ منهما ما رأيتُ!
لكنَّ الذي سَرَّني -وأبكاني- في الوطن
الآن هو قول ذلك الفتى في البصرة:
أهلاً عمو.. شَرَّفْتَ العراق!
وقول تلك الفتاة في بغداد،
تسألُ أمها بالتلفون عني:
كيف حال ((الولد الجوعان))؟!

بصرةُ حلب
2005/4/17

سيـــرة!

الحديقةُ ضاقتْ مساحتُها
بعدَ ستٍّ وعشرينَ عاماً من النفيِ
عنها وعني
الحديقةُ ضاقتْ بأشجارِها النخيلِ
أشجارِها التوتِ
أشجارِها السِدْرِ
أشجارِها التينِ
أو نخلِها الرَّقْلِ ضاقتْ بأعشابها

وبتربتها كلَّ هذي السنين
الحديقةُ شابتْ
وصارتْ كما حَدْبَةِ القبر
شابتْ، وشابهتِ القبرَ
شابتْ!

بصرةُ حلب
2006/3/10

العراق الجديد!

رأيتُ (شطَّ العربِ) نظيفاً،
عالي الماء، ولكنهُ بلا أشرعةٍ ولا هواء
وشرقُهُ بلا غابةِ النخيلِ العتيدة!
ورأيتُ (دجلةَ) ضحلَ الماءِ،
موحلاً، عامراً بالقازورات
وضفَّتاهُ خائفتان!
أما الفراتُ
فلم أعرفْ شأنَهُ
لأنّ وأنا في الطائرة
إذ رأيتُهُ يتلوّى على الرمال،
هارباً نحو بلادِ الشام!

بصرةُ حلب
20/آذار /2007

ليل العراق !

أنا عندي (سوالف) مايكفي الليلْ!
ولو أني أخذتُ الخيلَ
والقُدرةْ
لَسطَّرتُ الذي في البالِ
و (البصرةْ)
وغيَّرتُ الخرائطَ
والمنافي
واستعرتُ خرائطاً ومنافياً أخرى
لدجلةَ والفراتْ
وملتقى القُرنةْ
وما يأتي بُعَدَ القُرنةِ: المارِيلُ
والعشارُ
والخورةْ
وأمضي نحو جسرِ (بناتِ عزّار)
ومقبرةِ الخليلِ الخِلِّ (إبراهيمَ)
أنشُدُ صوتَ (هَنُّونَ)
المؤذنِ للصلاةِ لدى الغروبِ
وصوتَ (زَمُّونَ)
المنادي باسم (باقلاءَ)
من بعد الأذانِ الفنِّ
ثُمَّ يجيءُ ليلٌ أولٌ تحتَ العمودِ الكهرباءِ
يضيءُ ليلَ قمارةِ الأعمى- البصيرِ
وحضرةَ الأعمى المغني
ثُمَّ يأتي عازفُ المزمارِ أعمى مثلُهُ
ويصيحُ ديكٌ،
والسوالفُ تستمرُّ بدونِ ليلٍ أو صباحٍ
والصباحُ رَباحُ يارِبّي!

بصرةُ حلب
2007/9/7

مهدي شَهَوات!*

أشتري بيتاً خشبياً على جدولٍ صغير!
أشتري حصاناً بلا سرجٍ ولا لجام!!
أشتري دراجةً هوائيةً!!!
أشتري حذاءً!!!!
أشتري وطناً من ماءٍ وهواء !!!!

بصرةُ حلب
2007/11/14

* على منوال (موسى شَهَوات) في العصر الأموي.

اللَّـوى وأولئك الأيامِ!

(كلمة..وقصائد) ❖

مهـــدي محمـــد علي

ذ ُم ّالمنازلَ بعد منزلةِ اللَّوى
والعيشَ بعدَ أولئكَ الأيامِ

قالها شاعر ينحو على المنازلِ الأولى، ويحنُّ إليها حنينا، واستوقفَ البيت..المنازلِ الأولى التي وقف عليها "الملكُ اللّيلُ "وبكى،واستوقفَ من معه واستبكاهُ بالمثنى،واحداً كان،أم اثنين،أمجمعاً، أم الأحد:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسقط اللّوى بين الدَّخُول فحومَلِ

فهل البصرةُ (أمُّ المِرْبَد) أقلُّ شأناً من ذلك؟!هل هي أقلُّ من (اللّـوى)؟! أم أنها الأكبرُ شأناً،لأنها خرابٌ على مر العصور، فيما هي الأكثر ازدهاراً،لأنها من ذلك"العيش"عند"أولئكَ الأيام"...أيام(تومان)

..أيام (أحمد الوطن)..أيام (صبري أفندي)..أيام (بدر السّياب) العليلِ المغنّي!..أيام (مهيدي المخَّبل) ....

أيام "الخبز التفتوني"..أيام (سندويج أبو طالب)،و (سمبوسة أبو عباس) أساس عمارة النقيب..أيام (زرزور أبو الحَبّ) ..أيام (أم البروم) و (سينما الحمراء العتيقة) و (حديقة غازي)..أيام الأعياد في (نادي الاتحاد الرياضي)..أيام رغيفِ خبزِ التنورِ من (أم البروم)، رغيفٍ ساخنٍ مكسّب،نتناوله ونحن نخترق السوق في مساء يوم من أيام الصيف- الربيع، نقضمهُ بتلذذ عَبْر شارع المطاعم، ثم ندلف يميناً، نخترق(سوق الهنود) نحو(جسر سُورين) و (ساعة سُورين)..ثم إذا يساراً مضينا فإلى نهر النهرين(شط العرب) أو يميناً مع (نهر العشار) فإننا نمضي نحو البصرة العتيقة المعتَّقة..نحو مقهى (سيد هاشم)،تبدو مثل برلمان يواجه بناية (المحكمة الكبرى)..نحو مقهى (هاتف) يقابلها(جبار أبو السمبوسة) ..نحو مكتبة (فيصل حمود)..كل ذلك نمضيه حتى نكون ماضين نحو موضعٍ يطمرُ النهرُ هامته فيه، مروراً بالشناشيلات والجسور العامة والخاصة..ثم حي الأرمن المتاخم للمستشفى وسجن البصرة،التقاطاً للطريق الصحراوي نحو(الزبير- المِرْبَد) وما بعد ذلك الصحراء نحو الكويت....

فكانت الكويتُ مقاما مؤقتا لنا، ثم كانت عدن اليمن الجنوبي..ثم كانت (موسكو) مروراً، ثم (هافانا) مروراً، ثم (موسكو) إقامةَ تَشَرُّدٍ،وعموم أوربا تنقلاً مؤقتا..ثم بلاد الشام، المحطة الأكيدة حتى الآن،ولكنها كانت محطةً مهمةً عندي، رغم الوجع المتأتي مني ، لأنه متأت من وجع البصرة..

ثم كان عام 1982، وكان((حصار بيروت))، وكنتُ أقضي سحابةَ اليوم في الشغل الصحفي من أجل بيروت، وأقضي معظمَ الليلِ منصتاً للراديو الترانزستور، أتتبعُ أخبار (بيروتنا)..في أثناء ذلك تأملتُ روحي، فرأيتُ أنني فارقتُ البصرة- العراق- وطني مدةً زادتْ على الثلاث سنوات، عندها

هَجسْتُ بأن عودتي إليها باتت شبه مستحيلة، وحتى لو قُيّضَ لي أن أعود إليها فإن ذلكَ لن يكون قبل عشر سنوات،إن لم يكن عشرين سنة(!!!)عندها لن تكون هي بصرتي– طفولتي –وطني، فقررت أن أصنع بَصْرَتي كما أعرفها وكما عشتها..أعني كما هي طفولة مدينتي التي هي طفولتي..

وما دامت (طفولتي– مدينتي) باتت بعيدةً عني في الزمان والمكان، فالأحرى بي أن أنشئها على الورق.. وحين تكتَملُ أصيرُ إلى زيارتها على الورق كلما حننتُ.. والحقُ أنني أحِنُّ إليها،وتزدهر في روحي كلما أبتعدتُ عنها في الزمان والمكان..وكان يامكان،فكان كتاب (البصرةُ..جنةُ البستان)!

وعلى الرغم من أن الكتاب كلَّفني ثماني سنوات من سنيّ المنفى،فإنني لم أكن قادراً على وَضْعِ النقطةِ الأخيرةِ في النص،لأن ذاكرتي معبَّأةٌ بالكثير الكثير الذي ينتظر التسجيل،فقررتُ وضعَ النقطةِ الأخيرة،لأنني بدونها لن أستطيع إنجاز الكتاب (أعني إصداره).. وبالفعل فقد صرتُ– بعد تلك النقطة– أكتب الكثير الكثير، المكرَّس للبصرة عنواناً ومضموناً..صرتُ أكتب القصائد والقطع النثرية التي يمكن أن تندرجَ تحت ذلك العنوان.

إن هذا يعني– عندي– أن الطفولة– البصرة– الوطن..كلها ظلَّتْ –وما تزال– تتناسلُ في روحي من مكوناتها الأولى، من الذاكرة التي ما زالت تندرجُ على الورق شعراً ونثراً،ولا أظنها ستتوقَّفُ إلاّ عند تَوَقُّفِ هذا القلم، ويدِ صاحبِ هذا القلم!

بصرة حلب

آذار 2008

(*) كلمة وقصائد كنتُ أنوي قرائتها في المربد الذي لم أوفق لحضوره، وقد نشرت في (الثقافة الجديدة)، العدد 328 / 2008

سقوط بغداد
أم سقوط الطاغية ؟! ❖

لا أدري كيف يستمرئ " امرؤ" عبارة "سقوط بغداد" تعبيراً عن سقوط نظام صدام حسين!

كيف يستمرئ " امرؤٌ " عبارة " سقوط بغداد " بينما اسم (بغداد) هو اسم منزّه وبريء .. بل هي (مدينة السلام) و رمز حضارة!

وكيف يستمرئ امرؤ بأن هذا السقوط هو الحادي والعشرون في تاريخها.. معترفاً، ولإحدى وعشرين مرة، بسقوط " النزاهة" و " البراءة".. معترفاً بسقوط المعنى، معنى (مدينة السلام)

معنى كونها رمز حضارة؟!

بغداد معنى، والمعنى لا يسقط.. وكل سقوط مرّ بها لا يعني سقوطها ولا سقوط أبنائها، أو سقوط إنجازها الإنساني والحضاري.. بل هو سقوط طغاتها الحكام، وغزاتها الطغاة.. الساقطين في أوج انتصارهم!

قد يقول قائل: انه تعبير سائد ومعروف ومألوف، مثل سقوط موسكو أمام نابليون، وسقوط باريس أمام هتلر، وسقوط برلين أمام ستالين ..و ..و ..و.. الخ.. ولكني أقول له: لقد جانبْت صواب الروح، فحتى هذه التعابير التي سادتْ فعُرفت وألفت أجدُها موجعة ومنحرفة، وتحمل التشفي أكثر مما تحمل الأخبار أو المواساة.

هل سقطت بغداد بعد هولاكو.. أم سقط هولاكو بعد سقوط الخليفة الذي كان يُطعمُ حميرهُ "البريئة" الفستق المقشر، بينما سواد شعبه لا يحظى بكسرة خبز شعير!

هل سقطت بغداد، حينما سقط نوري السعيد والحكم الملكي؟!

هل سقطت بغداد، بعد مقتل عبد الكريم قاسم في 8 شباط 1963؟

فهل يمكن أن تسقط بغداد، وقد سقط طاغيتها.. وكان سقوطُهُ هو أملها وأمل أهل العراق من (زاخو) حتى (صفوان) ومن (خانقين) حتى (H3)؟!

فكيف – إذن – يستمرئ "امرؤ" في صحافتنا الحالية عبارة " سقوط بغداد" تعبيراً عن سقوط نظام الطاغية؟!.

مهدي محمد علي

* (الثقافة الجديدة)، العدد310/سنة 2003

خواطرُ نثرية ❖

مهـــدي محمـــد علـي

هل رأيت الهُدْهُد؟!

سَـچينْ براسَك ... طُبرْ !* *

حـينَ كنـا صغـاراً نـطلقُ هـذه العبـارة، مخاطبِينَ الهُدْهُد الذي لم يرهُ أحد منا، وإذا كان منا واحد قد رآهُ، فمرة واحدة نادرة لا يدري متى تتكرر!

سَـچينْ براسَك ... طُبرْ !

رأيتُ الهدهد مرتين وبعضَ المرة.. المرتان أستطيع ذكرهما، أما بعض المرة تلكَ فهي وهمٌ لروحي.. الرؤية الأولى التي قُيّضَتْ لي كانت رؤية نموذجية.. كنتُ في الخامسة أو السادسة من عمري، أَجولُ في بستاننا المتاخم لمقبرة (الخضْر) في بصرة النخيل... رأيتهُ، عبر ظهيرة صيف قائظة، ساكنة، (خانسة) تقف على نخلة قصيرة من بستاننا تطل على المقبرة..فَتَوقّفتُ مسحوراً بهذا الطائر الغريب، بتاجه المهيب، وهيأته الجدية الرزينة.. وما هي إلا لحظات كالحلم حتى غادر مكانه، وبقيتُ وحيداً مع ظهيرة ذلك الصيف البعيد ونخل البستان الساكن ((الخانس)) !

الرؤية الثانية حَصلَتْ بعد أكثر من ربع قرن، حين رأيتُهُ على سياج البيت الذي أنا فيه في حيّ(خَوْر مكْسَر) في مدينة (عدن) البحرية.. يعني أنني رأيتهُ في (اليمن) بلده التقليدي.. وما هي إلا لحظات حتى غادر الهدهد مكانه قبل أن استطيع مناداة أحد من سكان البيت ليراه معي..لقد سحرتني رؤيتُهُ بعد كل تلك السنين، فسمَّرتني في مكاني، ومضى الهدهدُ، فلقد كنتُ في الدهشة ذاتها عندما رأيته أول مرة حين كنتُ طفلاً في السادسة من العمر، على تخوم البستان، تخوم مقبرة(الخضر) في بَصْرَة النخيل!

سَـچينْ براسَك ... طُبرْ !

نطلقُها،وقد تعلمناها من الكبار الأقرب إلينا بالعمر، أما الطاعنون في السن فإنهم لا يتعاطفون معنا في هذا الاحتفال الوهمي، فهم قد دخلوا، منذ حين بعيد، في أن هذا الطائر هو من خَدَم النبي سليمان بن داود، فلا كلام عن (الهدهد)إلا لسليمان:

((وتفقَّدَ الطيرَ فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين)).

لأُعذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً أو لأذبَحَنَّهُ أو ليأتَينّي بسلطان مُبين.

فمكثَ غير بعيد فقال أحطتُ بما لم تحطْ به وجئتكَ من سبأ بنبأ يقين))

وهذا يعني أن غياب الهدهد عن حضرة سليمان غير وارد إلا بحجّةٍ دامغة! ..... أن بقية الحديث معروفة، والمهم هنا، هو الهدهد الذي هو عين سليمان على كل الأكوان.. هذا الطائر النادر الشكل، النادر الوجود، أو الموجود دائماً – المفقود دائماً! أو الموجود من خلال عدم وجوده بيننا!

***

قال المرحوم(أحمد شوقي)في حكايات شوقيات:

وقف الهدهدُ في باب سليمانَ بذلّ
قال:يا مولاي كنْ لي عيشتي صارت مُملّ
مُتُ من حَبّةِ بُرٍّ أحدثتْ في الصدر غُلّ
لا مياهُ النيل تَرويها ولا أمواهُ دِجلَه

وإذا رامتْ قليلاً قتلتني شرَّ قِتْلَهْ

***

فأشار السيدُ العالي إلى من كانَ حولَهْ
قد جنى الهدهد زنباً وأتى في اللؤم فعلَه
تلك نارُ الإثم في الصدر وزيِ الشكوى تَعِلَّهْ
ما أرى الحبَّةَ إلاّ سُرقتْ من بيتِ نملَهْ
إن للظالم صدراً يشتكي من غير عِلَّهْ

***

سَـچينْ براسَك ... طُبرْ !

تعلمناها و ردَّدناها،وتعززتْ عند بعضنا برؤيته مرة لم تتكرر، فرأسه الصغير يعلوه تاج أشبه بشفرة الطُبَر – فأس الحطاب التي تشبه ما يعلو الخوذة عند فرسان الإغريق.. وربما كانت السكين هي منقاره المعقوف المدبَّب!

سَـچينْ براسَك ... طُبرْ !

وتستمر حكاية (الهدهد) في حياتنا القديمة القائمة.. فعدا حكايته المعروفة مع النبي سليمان، له حكاية معنا، فهنالك من يقول: إنك تستطيع أن تحقق أصعب الأمنيات إذا ما أفلحتَ في قصةٍ مع الهدهد، فنسأل: كيف؟!

فيقول العارف الذي لا يعرف أكثر مما يرويه لنا .. يقول: نستطيع ذلك إذا أفلحتَ في صيد هُدْهُد – ومن ذا الذي يحظى برؤية هدهد كي يصيده – ثم تجلس بين نخلتين على ضفة نهر يجري قرب مقبرة..فتذبح الهدهد خلف ظهرك، وتسلقه خلف ظهرك، ثم حين ينضج خلف ظهرك، تفلّسهُ خلف ظهرك، ثم تلقي بعظامه في النهر الذي هو قدامك، فإنكَ سترى عظماً يجري عكس جريانِ ماء النهر..

هنا ينبغي لكَ أن تُمسكَ بذلك العظم الذي يجري عكس التيار، لأنه هو الذي إذا أمسكتَ به يحقق لك كل ما تريد..فمن ذا الذي يمكن له أن يحقق مثل هذا الحلمّ ؟

سَـچينْ براسَك ... طُبرْ !

أيها الهدهد!

بصرةُ حلب
2008/12/5

* (الثقافة الجديدة)، العدد 331/ 2009

* * سَـچينْ: سكين..طبر: فأس الحطاب.

الناس أجناس
جدّي عبد اللطيف..خالتي (مَدِينَة)!

عبد اللطيف الحُمْران هو جَدّي لأمي، لا أعرف عنه سوى أسمه واللقب، إذ أنني لم أدركه، فلم أسمع عنه شيئاً من أحد ولا أعرفُ له أثراً سوى أمي وخالي وخالتي، وكأسٍ زجاجية عتيقة أهدتها لي أمي حين بلغتُ الحُلم قائلة لي:

أراكَ يا ولدي تحبُّ الأشياء العتيقة، وهذه الكأسُ هي الوحيدةُ المتبقيةُ من أثنتي عشرة كأساً هي هديةُ جدّكَ(أبي) لي يوم زفافي لأبيك.... ثم تَـأسَّفَتْ قائلةً: ولكنني، وأنا أنظفها، فَلَتَتْ من يدي، فانثَلَمّتْ حافتها. فَطَيَّبتُ خاطرها قائلا: بالعكس يا أمي، فأنا أشكرك لأن هذا يزيد هذي الكأس عتقاً على عتقها، وأنا سعيد بهذا..ثم وَضَعْتُ تلك

الكأس في أعلى علّيين من مقتنياتي التي لا يراها إلا أصفيائي، ممن أفتح لهم خزانتي الخاصة في غرفتي التي هي دائماً في الطابق الثاني من أيّ بيتٍ أقمنا فيه في بصرة النخيل!

جدي عبد اللطيف – كما أودُّ أن أروي حكايته الآن، وبعدما تجاوزتُ الستين من العمر – يبدو لي واضحاً في وجهته المحَّمدية، فلقد سمَّى ابنه البكر(عبد الرسول)،فيما هو من عبيد اللّه (عبد اللطيف)..ثم سمَّى ابنتَه التي هي أمي (مكيَّة)، وواضح أنه سمّاها هذا الاسم تشرُّفاً بالسورِ القرآنية المكية، ثم سمَّى ابنَتهُ التالية(مَدَنيَّة)،لأن السور المدنية جاءت بعد السور المكيَّة، ممازجة لها، فكانت تمازجاً حقاً، مختلفاً مؤتلفا، بين طبائع أمي الراكزة كالسور المكيّة ً، وطبائع خالتي المتدفقة كالسور المدنية.. فكأن جدي عبد الطيف الحُمْران شاء أن يُعَمّرَ بيتاً ركنُهُ للرسول و زاويتاهُ لسُوَرِ قرآنه الكريم، ولكن خالتي عُرِفَتْ باسم(مَدينَة)، فهل كان جدي عبد اللطيف سماها(مَدِينَة) أم (مَدَنيَّة).. وفي كلتا الحالتين فإن عبد اللطيف جدي أراد – قطعاً– التقُّرب إلى النبي الكريم في مكة وفي المدينة، ولقد كانت لخالتي(مَدينة) حصَّةً في مدينة البصرة، في الأربعينات والخمسينات والستينات والسبعينات وحتى التسعينات من القرن العشرين.. تسعى في مناكبها.. بسّامة رغم المأساة الدائمة، إذ أنها كانت الأقدر – من بين كلّ النساء – على جلي الغمامة مهما أعتمت الدنيا، وهي موجودة في كل مكان مهما يكن الزمان!

لقد عاشتْ (خالتي) عمرها لأخيها (خالي)، وللناس جميعاً، وبالمُطْلَق تسعى طولَ نهارها من صلاة الفجرِ حتى ساعة النومِ، فالفجرِ ثانيةً، لخالَي وللناس، كلّ..ظَلَّتْ (خالتي)ترعى(خالي) منذ كان سلطاناً في المال والأعمال، حتى صار عزيز قوم لم يذّل، لأن خالتي(مَدِينة) كانت حذوه، ولا تنطق إلا بما يطيّبُ خاطره، وخاطر الناس، كل الناس... ومات الخال، وظَّلت الخالةُ (مدينةُ) في المدينةِ في مناكب حياتنا:

من مجالس العزاء في بيت(حاج أسود) والحسينيات، حتى الأعراس، ومن الأعراس حتى فواتح البيوت التي تودّعُ أبنائها، ومنها إلى مواليد الرسول الأعظم..ولقد سمعتُ – وأنا في المنفى – أن إحدى رجليها قد كُسِرَتْ.. فصارتْ تستعينُ بعكاز يعينها على الحركة ذاتها التي ألفتها، وعاشتْ عليها، خدمةً لأختها الكبرى(أمي)، وخدمةً للناس الذين تحبهم بفطرةٍ لم أعرفْ لها مثيلاً إلاّ في خالتي التي ماتتْ وهي تبتسمُ، كما حدَّثوني!

بصرة حلب
2009/3/6

مقـــــالات

حقوق العراق في المياه المشتركة

حكمت محمد فرحان / مستشار موارد مائية

أولا:

1. ينبع نهرا دجلة والفرات من تركيا ويجريان في أراضيها منذ آلاف السنين كدولة (منبع)، إذ تستخدم جزءاً من مياههما بسبب قلة مساحة الأراضي الزراعية على جانبيها لأنهما يجريان ضمن سلاسل جبلية. ثم يجريان في الأراضي السورية، إذ تستخدم هي الأخرى جزءاً ضئيلاً من مياههما بواسطة النواعير والمضخات ويدخل نهر الفرات الأراضي العراقية في حصيبة ويجري ليروي بالنواعير مساحات صغيرة من الأراضي العالية (من حصيبة حتى هيت) ثم يروي سيحاً الأراضي الصالحة للزراعة من أبي غريب حتى الأهوار في منطقة الناصرية.

كما كانت مواسم الفيضان العالية مدمرة للأراضي والقرى والمدن العراقية طيلة آلاف السنين في حين لا تتأثر الأراضي التركية والسورية بذلك. ونفس هذه الحالات تسري على نهر دجلة.

2. بعد التطوير الهندسي العالمي في إنشاء السدود في خمسينيات القرن العشرين وما بعدها دخل العراق في مباحثات مع تركيا لغرض تأمين حقوقه في مياه نهر الفرات، إذ كان معدل الوارد المائي السنوي له في حصيبة يساوي (30.7) مليار م3 للفترة من (1937-1973) وبنسبة أملاح تساوي (300) جزء بالمليون، ودخل في مباحثات تفصيلية معها في الستينات وأوائل السبعينات لغرض التواصل الى قسمة عادلة لمياه نهر الفرات واستناداً الى قواعد وأعراف القانون الدولي ولحقوقه التأريخية كدولة مجرى ومصب في مياه نهر الفرات مع الأخذ بنظر الاعتبار حقوق تركيا ضمن مساحات أراضيها في حوض النهر التي لا تتجاوز احتياجاتها (10%) كمعدل من الوارد المائي للنهر ومثلها لسوريا والباقي للعراق وهو حوالي(80%).

3. تزامن انجاز سد كيبان في تركيا بسعة خزان (30.5) مليار متر مكعب وسد الطبقة في سوريا بسعة خزن (14) مليار متر مكعب عام1975، والمباشرة بالخزن مما أدى الى قطع المياه تقريباً عن العراق في نهر الفرات. ومر العراق بسنوات شحة كبيرة في المياه

في حينه أثرت على الزراعة والاحتياجات الأخرى.

4. ومع كل محاولات العراق مع تركيا للتواصل الى صيغة عادلة لقسمة المياه بينهما كدولة منبع وبين العراق كدولة مجرى ومصب كانت تستهلك حوالي (80%) من مياه نهر الفرات وسوريا التي يمر بها نهر الفرات لم ينجح العراق في ذلك.

وطرح الجانب التركي في السبعينات تجهيز المياه لقاء النفط ورفض العراق رفضاً قاطعاً ذلك. واستمرت تركيا بسياسة التسوق ولم تستجب لحقوق العراق.

ثانياً:

قام العراق بإنشاء سد حديثة لغرض تأمين خزن (8) مليار متر مكعب وتوليد الكهرباء وبوشر بالخزن فيه عام 1986.

ثالثاً:

قامت تركيا بإنشاء سد أتاتورك الكبير بسعة خزن (48) مليارمتر مكعب على نهر الفرات مع قيامها بحفر أنفاق عبر سلسلة جبال الأناضول لغرض إمرار مياه نهر الفرات مشروع الأناضول الكبير خارج حوض نهر الفرات وهذا غير مسموح به بموجب العرف والاتفاقيات الدولية. وبهذا ستستهلك تركيا الجزء الأكبر من مياه الفرات والمتبقي لسورياً والعراق وبنوعية مياه غير صحية، حيث ستكون بنسبة أملاح بين 1250و 1350 جزء بالمليون بينما المسموح به بموجب منظمة العالمية 500 جزء بالمليون. هذا إضافة الى احتوائها على مخلفات المجاري القذرة ومخلفات الصناعة.

رابعاً:

كما باشرت تركيا بإنشاء منظومة سدود على نهر دجلة وستباشر بإنشاء سد (اليسو) بالتعاون مع عدد من دول الاتحاد الأوربي وتحويل المياه الى مشروع الأناضول الكبير، وبهذا سينخفض معدل إيرادات المياه الى العراق من عمود نهر دجلة بمقدار (11) مليار متر مكعب.

خامساً: المياه المشتركة مع إيران

1. إن مشكلة الأنهر الحدودية والأنهر المشتركة مع إيران ابتدأت عندما قامت إيران بإنشاء سد على نهر الوند عام 1960 أيام حكم الشاه وقطع المياه عن مدينة **خانقين** تجاوزا على حقوق العراق وخلافاً للأعراف الدولية وحسن الجوار. ثم قامت بإنشاء سدودها على وديان مندلي والنفط وقطعت مياهها عن العراق.

2. بعد اتفاقية الجزائر عام 1975 تم تشكيل لجنة عراقية – إيرانية مشتركة (للأنهر الحدودية والأنهر المشتركة) عقدت العديد من الاجتماعات خلال ثلاث سنوات ولم يستجب الجانب الإيراني الى حقوق العراق في هذه المياه وتوقفت المباحثات وأعمال اللجنة المشتركة بعد قيام الحرب العراقية– الإيرانية عام 1980.

3. قامت إيران بتنفيذ برنامج للسدود متجاوزة على حق العراق في كل من بدرة والطيب والدويريج ونهر الكرخة ونهر الكارون مع مشاريعها الزراعية.

4. ومع ذلك استمرت إيران بإطلاق تصاريف عالية من المياه من نهر الكرخة الى هور الحويزة ثم شط العرب بلغ معدلها السنوي حوالي (6) مليار متر مكعب منذ السبعينات حتى عام 2007، إذ قامت بتحويل المياه الى داخل إيران وإنشاء سدة ترابية على الحدود الدولية بين العراق وإيران داخل هور الحويزة وبذلك قطعت المياه عنه وعن تغذية شط العرب بالمياه الحلوة.

كما استمرت بإطلاق مياه نهر الكارون طيلة المدة الماضية منذ السبعينات حتى العام الماضي بمعدل تصريف يصل الى (500) متر مكعب بالثانية الواحدة وبكمية سنوية تصل الى (14) مليار متر مكعب الى شط العرب لتحليته من مياه المد البحري، وثم قامت عام 2009 بتحويل مياه نهر الكارون الى داخل إيران وقطعته كلياً من تجهيز شط العرب. وبهذا انقطعت المياه الحلوة المغذية لشط العرب، فضلاً عن انقطاعها تقريباً من دجلة والفرات بسبب تعسف تركيا اتجاه حقوق العراق وارتفعت الملوحة في شط العرب الى معدلات عالية تهدد الحياة الزراعية والحيوانية والبشرية داخل منطقة البصرة. هذا مع العلم أن تحلية مياه شط العرب كانت من مياه نهري الكرخة والكارون أكثر منها من مياه دجلة والفرات طيلة أكثر من ثلاثين عاماً الماضية، هذا فضلا عن أن إيران باشرت بتحويل شط العرب الى منطقة صناعية وتجارية دولية مما يهدد مستقبل هذا المجرى المائي وسلامة الزراعة والثروة الحيوانية فيه.

سادسا: الموارد المائية للعراق والاحتياجات

كنتيجة لما جاء أعلاه فأن الموارد المائية للعراق والاحتياجات ستكون كما يلي:

1. معدل الإيراد السنوي لنهر الفرات قبل إكمال تركيا سدودها = (30.7) مليار متر مكعب للفترة من (1937- 1973).

- معدل الإيراد السنوي لنهر دجلة وروافده قبل إكمال تركيا سدودها =49.48 مليار متر مكعب

- معدل الإيراد السنوي لنهر دجلة الرئيس عند الحدود قبل إكمال تركيا سدودها = 19.43مليار متر مكعب.

2. تشير الحسابات بان الإيراد السنوي لنهر الفرات المتوقع بعد إكمال تركيا وسوريا لمشاريعهما وبغياب الاتفاقية سيصل الى (7.68) مليار متر مكعب وبنسبة أملاح = 1250– 1350 جزء بالمليون بينما المطلوب بموجب المعايير الدولية = 400– 500 جزء بالمليون.

كما تشير الحسابات بان الإيراد السنوي لنهر دجلة الرئيس عند الحدود بعد إكمال تركيا وسوريا سدودهما ومشاريعهما الإروائية وبغياب الاتفاقيات سيصل الى (9.16) مليار متر مكعب.

3. كذلك تأثر الإيراد السنوي لروافد دجلة داخل العراق أيضا بسبب الاستخدامات خارج البلد الى ما يلي:

- الزاب الكبير =14مليار متر مكعب
- الزاب الصغير= 7 مليار متر مكعب
- ديالى =4 مليار متر مكعب

وستكون الاحتياجات المائية كما يلي:

- الاحتياجات المائية للدونم في حالة الاستصلاح وتبطين الجداول والقنوات =3230 متر مكعب /دونم/سنة.
- مجموع المساحات المتاحة للإرواء في العراق = 22.86 مليون دونم.
- المساحة الإجمالية المستهدف إرواؤها في المستقبل القريب = 13 مليون دونم

وبسبب نقص الموارد المائية:(***كما في الجدول نهاية الموضوع***)

علما أن إيران قطعت حصة العراق من الأنهار والوديان المشتركة كليا (الكارون، الكرخة، الطيب، دويريج، كلال بدره، مندلي، الوند، سيروان الرافد الرئيس لنهر ديالى).

وبهذا سيكون الموقف عام 2015 كما يلي:

مجمـــوع واردات العـراق من الميـاه = 43.93 مليار متر مكعب

الاحتياجات المائية للعراق لكافة القطاعات = 75.5 مليار متر مكعب

العجز بالمياه سنويا سيكون = 31.57 مليار متر مكعب وأما في حالة التوسع في المساحات فإن النقص سيكون اكبر.

النتيجة: أن العجز في موارد المياه أعلاه سيعني:

– إلغاء إنعاش الأهوار مع إخراج 3.5 مليون دونم من الإرواء أو:

– تقليص المساحات الزراعية بمقدار (9) مليون دونم من الزراعة والإبقاء على رقعة زراعية مروية (4) مليون دونم وهذا يشكل كارثة للعراق وذلك عند غياب الاتفاقيات المائية.

علما أن الموارد المائية ستكون بنسبة أملاح أعلى من معايير منظمة الصحة الدولية.

سابعا: العوامل الداعمة لمطالبات العراق بحقوقه من المياه المشتركة

1. البعد التاريخي: حيث يجري نهرا دجلة والفرات داخل الأراضي العراقية لآلاف السنين لمسافة (1100) كيلومتر لكل منهما، ويروي الأراضي الزراعية ويتحمل كوارث الفيضانات والأوبئة الناجمة عنها ودمار القرى والمدن وقامت حضارات عريقة عليهما في العراق وتم إنشاء المدن والمعالم الأخرى بموجب ذلك. وبهذا فالعراق دولة مجرى ومصب وله حقوقه بموجب العرف والاتفاقيات الدولية للحالات المشابهة.

2. عند قيام تركيا بإنشاء سدودها على نهر الفرات قامت بتصميم المهرب الاضطراري لتفريغ السد من المياه بتصريف (17500) متر مكعب بالثانية وقامت سوريا بتصميم المهرب الاضطراري لسد الطبقة بتصريف (19000) متر مكعب بالثانية. وإذا علمنا أن استيعاب ناظم الورار وبحيرة الحبانية وناظم المجرة الى منخفض أبي دبس مصممه على أساس إمرار تصريف (2800) متر مكعب بالثانية تم رفعه تجاوزا في فيضان عام 1996 الى (3025) متر مكعب بالثانية وهو يشكل خطرا على سلامة هذه المنشآت. علما أن تصريف عمود نهر الفرات بعد الرمادي (2500) متر مكعب بالثانية.

فلنأخذ إمكانية اضطرار تركيا الى تفريغ سريع لسد أتاتورك بهدف إنقاذهما من أي خلل قد يحصل فيهما أي أنها ستطلق تصريفا مقداره (17500) متر مكعب بالثانية وستقوم سوريا بإمراره من خلال المهرب الاضطراري لسد الطبقة الى العراق الذي سيكمل الخزن في الفراغ المتبقي أمام سد حديثة لن يستوعب أكثر من (8) مليار متر مكعب أي أن المتبقي سيكون أكثر من (20) مليار متر مكعب وبتصريف طاغي يمكن تحويل جزء بسيط منه كما جاء أعلاه الى منخفض أبو دبس وستحيل الموجه الطاغية من المياه مدن العراق في حوض نهر الفرات من الرمادي حتى البصرة وبضمنها بغداد الى خراب كامل وستحل الكارثة بالعراق. هذا بالإضافة الى إمكانية حدوث انهيار في احد سدود تركيا وطوفان العراق أن هذا العامل يشكل عنصرا داعما مهما لمطالبات العراق.

3. أما بالنسبة للمياه المشتركة مع إيران فيتطلب اتخاذ موقف واضح لغرض قيامها بإعادة تغذية شط العرب وهور الحويزة بمياه نهري الكارون والكرخة كما كان لآلاف السنين ولغاية قبل عامين من الآن. وكذلك إطلاق حصص العراق في نهر سيروان والوند والأنهر والوديان الأخرى.

ثامنا: الموقف المطلوب من الحكومة العراقية

1. إثارة موضوع المياه المشتركة مع تركيا لدى هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها والمنظمات الدولية الأخرى كالاتحاد الأوربي ومحاولة وضعها احد شروط تعاونها معها. وان تطلب الأمر الذهاب الى المحكمة الدولية.
2. ربط توقيع أية اتفاقية تجارية أو استثمارية مع تركيا وايران بتوقيع اتفاقية واضحة الحقوق والالتزامات وبأرقام صريحة للمياه المشتركة.
3. القيام بحملة جماهيرية وإعلامية واسعة في العراق وفي العالم لدعم حقوق العراق في المياه مع الدولتين.

ملاحظة: التقرير يمثل وجهة نظر الباحث.

نحتاج الى ١٤ مليون/ ٣٢٣٠ متر مكعب	٤٦ مليار متر مكعب
الاحتياجات المدنية	٣.٧٨ مليار متر مكعب
الاحتياجات الصناعية	٢.٧٧ مليار متر مكعب
احتياج توليد الكهرباء	١.٤٠ مليار متر مكعب
التبخر من السدود والخزانات	٨.٤٠ مليار متر مكعب
المياه المتجهة لشط دجلة والفرات وادامة الأهوار في حالة الإبقاء على ٨٣٥٠ كم٢ منها	١٩.٢٠ مليار متر مكعب
المجموع	٧٥.٥ مليار متر مكعب

المهام الجديدة الملقاة على عاتق وزارة الصناعة والمعادن في المرحلة الراهنة

د. سمير حسن ليلو/ مهندس كيميائي استشاري

لا شك أن لكل مرحلة تاريخية تفرض برنامجاً وتضع خططاً ستراتيجية تنسجم مع متطلبات تلك المرحلة لأغراض التنمية المستدامة. ولما كانت وزارة الصناعة والمعادن قد ولدت أصلاً من رحم وزارة الاقتصاد في السابق، وكانت المهمة الرئيسة أن تعنى ببناء صناعة وطنية من خلال أقامة مصانع حكومية لسد حاجة السوق المحلية من السلع الاستهلاكية الأساسية وتحقيق قيمة مضافة وتشغيل أيدي عاملة وتطوير وتقدم... الخ، وقد كتبنا مقالاً حول مستلزمات تغيير أداء وزارة الصناعة في نشرة على الموقع الالكتروني (Sotaliraq) **في** 12-9-2011 **وأود أن أضيف هنا أكمالاً لذلك ما يلي:**

أن التغييرات التي حصلت في العراق بعد عام (2003) تفرض على وزارة الصناعة مهام جديدة في غاية الأهمية لأن الصناعة كما هو معروف أحدى أهم النشاطات الاقتصادية ويجب أن تشكل نسبة عالية من الناتج المحلي الإجمالي، لا أن تهبط إلى 2% وواحد من بين أهم تلك الأعمال هي تنشيط القطاع الصناعي الخاص إضافة إلى الأعمال الأخرى في أدارة المشاريع الصناعية القائمة فعلاً وغيرها من الأعمال، أن عملية النهوض بالقطاع الصناعي الخاص المحبط حالياً لأسباب معروفة منها الأمنية وعدم توفر الخدمات والبنى التحتية كالماء والكهرباء والمجاري والارتفاع في أسعار وسائط النقل والسوق المفتوحة على الاستيرادات العشوائية، إلا أن هناك العديد من المهام يمكن القيام بها للتصدي لكل الصعوبات وتجاوزها تدريجياً. لذلك فأن عمل الوزارة في الترويج للصناعات الخاصة قد تكون أكثر أهمية من وجهة نظري من مهام هيئة الاستثمار لأن هذه الهيئة تحاول الترويج للمستثمرين الأجانب بينما تقتصر مهمة وزارة الصناعة على الصناعيين من أبناء البلد وهم الأولى والمعول عليهم، ومن ناحية أخرى فأن المستثمر الأجنبي قد يقدم على الاستثمار بثقة عالية عندما يرى

المستثمر الوطني العراقي ماضياً قدماً في البناء والأعمار، لقد أصبح الترويج لتنشيط القطاع الصناعي الخاص واحداً من أهم الأهداف الستراتيجية للوزارة في الوقت الحاضر وتتلخص الخطوات الرئيسة الواجب أتباعها في هذا المجال بالنقاط التالية:

1. أجراء مسح شامل لجميع المشاريع الصناعية بعمل "دليل صناعي" جديد يشير إلى كل ما تم إنشاؤه من صناعة محلية في العراق من قبل القطاع العام والمختلط والخاص وحتى الصناعات الحرفية لكي يكون دليلاً لرسم الإستراتيجية الجديدة في بناء صناعة مستدامة وقادرة على الوقوف أمام المنافسة العالمية، ويتم ذلك بتشكيل فرق عمل من موظفي الوزارة لملء الاستثمارات وجمع المعلومات الوافية عن كل ما موجود فعلاً سواء أكان متوقفاً عن العمل أم متلكأ لأسباب فنية أو تجارية أو أدارية وغيرها، ويتضمن ذلك النشاط أقامة ندوات وورش عمل ودورات تدريبية لتهيئة كادر جديد من الشباب على هذا النشاط.

2. لا بد من الترويج لصناعات جديدة ذات مردود اقتصادي ويفتقر إليها العراق من خلال أعداد دراسات الجدوى الفنية والاقتصادية وجعلها في متناول الجميع وبأسعار رمزية في مجالات الصناعات النفطية ومكننة الزراعة وكل ما يتعلق بتطوير القطاع الزراعي والثروة الحيوانية وصناعة مواد البناء وغيرها وسنأتي إليها في فقرة لاحقة.

3. ضرورة العمل على الدعم المادي والمعنوي لكل من يرغب في أقامة صناعة جديدة من أبناء البلد وذلك من خلال الإعفاءات الضريبية في السنوات الخمس الأولى من التأسيس والإعفاءات الكمركية للمواد والمعدات والمكائن المستوردة من الخارج والقروض المصرفية الميسرة خاصة لمن يتمكن من بناء مكائن ومعدات محلية، ولمن يستطيع تحويل بعض الصناعات العسكرية القائمة في العهد السابق إلى أنتاج معدات تسهم في تنمية النشاطات الاقتصادية السلمية، وبدلاً من أن تعمل مديرية التنمية الصناعية في إخافة الصناعيين بأعطاء المعلومات عن نشاطهم الصناعي للهيئة العامة للضرائب في استيفائها من صغار الصناعيين عليها أن تدافع عن الصناعيين الجدد إلى أن يقفوا على أقدامهم ويحققوا نجاحاً واضحاً عند ذاك سيصبح تسديد الضرائب فرضاً وواجباً وطنياً لابد منه وسنكون أول المنادين به.

4. ضرورة العمل على دعم التصدير فلابد للوزارة أن تعمل على تشجيع التصدير كما هو معمول به في الصين وغيرها من البلدان النامية حديثاً كأن تساهم في النقل والتصريف والدعاية وتسهيل مهام السفر إلى الخارج وغيرها من الأمور التي تعمل بها الكثير من الدول النامية، لأن عملية التصدير أصبحت ركيزة أساسية في التنمية المستدامة وبناء اقتصاد متين بدلاً من البقاء على الاقتصاد الريعي المعتمد على بيع النفط والاستيرادات المفرطة لكل شيء. لقد جرى الاعتماد على الإيرادات النفطية بدرجة غير معقولة فأصبحت التكاليف التشغيلية تشكل (80%) من الميزانية السنوية للدولة تذهب لتغطية رواتب الموظفين والعمال، وأكثر من ذلك فقد أصبحت ميزانيات القطاع الزراعي والصناعي والنفطي والكهرباء المعول عليهما في زيادة ميزانية الدولة، إلا أن تلك القطاعات راحت تصرف (80%) من ميزانياتها المخصصة لأغراض الرواتب، وبدلاً من أن

تقدم المصانع قيمة مضافة إلى الاقتصاد راحت هي الأخرى معتمدة على الريع النفطي لتسديد رواتب موظفيها، فهناك موظفون لا يداومون في دوائرهم ومعاملهم أو حتى يسكنون خارج العراق في الدول المجاورة، وتأتيهم رواتبهم في أول كل شهر بالعملة الصعبة وبمبالغ باهظة ترهق ميزانية الدولة، أن ذلك هو الفساد بعينه، أن الاستمرار في سياسة التوظيف المفتوح من دون قيود يجلب الويلات على الجميع لأن العراق سيعتمد أكثر فأكثر على ارتفاع الإنتاج النفطي وزيادة الأسعار، وهذا يقود إلى الإدمان المستمر على الأسعار النفطية العالية والإسراف في صرف ما هو متوافر حالياً على أمور غير منتجة.

إن عملية الاستمرار في الاقتصاد الريعي سيقود حتماً إلى اقتصاد متأخر ومؤسسات سياسية ضعيفة أن لم تكن بدائية، وبالتالي ستميل الحكومة نحو الاستبداد وتتراجع الديمقراطية المنشودة، ناهيك عن المخاطر غير المتوقعة من تذبذب الأسعار النفطية كما حصل عام (1986) حيث أنخفض سعر برميل النفط إلى (10) دولار، بالإضافة الى مضي العالم المتقدم بالبحث عن بدائل الطاقة وإيجاد طاقات جديدة ومتجددة وتصميم سيارات تستخدم أنواع وقود أخرى كالبطاريات الكهربائية واستخدام الاثيلين المستخرج من المنتجات الزراعية مما سيؤدي إلى تقليص حجم الطلب، لذلك يتوجب علينا التفكير جدياً في تنشيط قطاع الصناعة وإعادة هيكلة الصناعات القائمة بحيث تصبح كفوءة وقادرة بالوقوف أمام التحديات القائمة وتسهم بقدر أكبر في الناتج المحلي الإجمالي، وعلى وزارة الصناعة والمعادن أن تضع نصب عينيها تنشيط القطاع الخاص في مجالات جديدة منها على سبيل المثال:

أولا: قطاعات النفط الخدمية:

على الرغم من أن القطاع من اختصاص وزارة النفط ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لا يتجرأ أحد من الولوج في الخدمات النفطية منذ بداية عملية تصدير المنتج النفطي في بداية القرن الماضي؟ يبدو لي وكأن هذا القطاع محرّم ولا يمكن المساس به إلا من قبل الحكومة والشركات النفطية الأجنبية، نحن نعلم أن تلك الشركات عملاقة ولا مجال لمنافستها في مجالات محددة، ولكن هناك العديد من الأعمال الخدمية النفطية يمكن للقطاع الخاص الولوج فيها، فمن المعروف أن العراق بلد نفطي من الطراز الأول، وقد تم تدفق النفط بكميات كبيرة منذ عام (1927) في حقل بابا كركر في كركوك ومنذ ذلك الحين وإلى الآن لم يتدخل القطاع الخاص في أعمال خدمية على مستوى واسع في هذا المجال الحيوي والمهم في حياة الناس، أن كل ما تم تحقيقه من قبل القطاع الخاص هو أدارة محطات توزيع المنتجات النفطية وعمليات نقل وخدمات أخرى بسيطة كتجهيز المواد الغذائية للعاملين وغيرها، بينما هناك العديد من المجالات الخدمية التي قد تستوعب حجم مشاركة كبيرة من العاطلين والفنيين الماهرين والشباب المبدع كما هو عليه الحال في بعض الدول النامية حديثاً، مثل أنغولا حيث تأسست شركة أنغولا النفطية وساهمت في عقود التراخيص لدينا وحصلت على أحداهما بينما كانت قد دخلت المضمار النفطي حديثاً وكذلك الحال في دول خليجية أخرى مثل الأمارات والكويت و المملكة العربية السعودية التي أخذت بعض شركاتها النفطية الخاصة في الولوج باستثمارات حتى خارج حدود دولهم. أن

عملية استخراج النفط بحد ذاتها تعتبر خدمية في العراق ومناطق الخليج لأنه يتواجد بمسافات قريبة من سطح الأرض.

لقد كان قطاع النفط في العراق معزولاً تماماً عن النشاط الاجتماعي والاقتصادي خلال المراحل السابقة، وحاولت شركات النفط أن تعتمد على عقود للخدمة خارجية وبعيدة عن أي نشاط اقتصادي متوفر داخل العراق. وكانت جميع الشركات الخدمية المرتبطة بعقود مع شركات النفط الأجنبية، تقدم خدماتها من الخارج وإذا أستدعي الامر التدخل المباشر فأنه سيكون محدوداً ومعزولاً عن البيئة العراقية بالكامل، عدا شركة نفط العراق التي سمحت بالتعاقد مع شركات محلية لتقديم بعض الخدمات البسيطة كالنقل أو تجهيز المواد الغذائية وما إلى ذلك، ولم يكتب لشركة نفط العراق أن تنمو وتتطور مثل أخواتها في دول الخليج مثل أي. دي. بي سي في دولة الإمارات والكي، أو، سي في الكويت وغيرها في هذه الدول التي استطاعت أن تسهم بتأسيس قطاع خدمي تخصصي قوامه مئات الشركات التي تقدم خدماتها للصناعة النفطية في جميع مراحلها أستكشافاً وتطويراً وإنتاجا وتصنيعاً وتسويقاً للنفط والغاز ومنتجاتها والبتروكيمياويات، وهذه المنظومة الواسعة من الشركات متنوعة الاختصاصات استطاعت بناء صناعة نفطية راقية في بلدان الخليج، وأصبحت تقدم خدماتها ليس لبلدانها فحسب بل للعالم من خلال تطوير الحقول أو صناعة المصافي أو البتروكيمياويات أو حتى صناعات تحويلية خارج الصناعة النفطية مثل الحديد والصلب.

بعد تأميم النفط عام (1973) وحتى قبل ذلك تم تأسيس شركة النفط الوطنية عام (1960) والتي كانت شركة حكومية لا تختلف عن مثيلاتها من الشركات الحكومية في القطاع الصناعي، ولذلك كان نشاطها محصوراً في نطاق ضيق، ولم تتطور إلى بناء خدمات نفطية تخصصية بالمستوى المطلوب كالخدمات المصاحبة لحفر الآبار كإنتاج أطيان الحفر أو الصيانة أو الفحوصات التخصصية لضمان النوعية وغيرها، من هذا المنطلق فقد أصبح لزاماً على الشركات المنتجة للنفط إشراك القطاع الخاص في الصناعة النفطية في هذه المرحلة التي نمر بها الآن والتي تساعد على توسعها ونموها بشكل متسارع، لكي تستطيع تلبية احتياجات الصناعات النفطية والبتروكيمياوية وصناعة التكرير بالإضافة إلى احتياجات القطاعات الاقتصادية الأخرى كالصناعة والزراعة وغيرها، أن الشركات الخدمية التخصصية المقصودة هنا يمكن أن تتشكل من القطاع الخاص بمعاونة خبراء عراقيين وأجانب لتقديم خدمات تجهيز وصيانة وخدمات آبار متنوعة مثل عمليات ضخ المياه المالحة لتنشيط الآبار، وكذلك خدمات استشارية في المجالات الهندسية أو الإدارية أو الاقتصادية وشركات بناء مرافق سكنية أو تصنيع كل ما يمكن تصنيعه محلياً من أنابيب ومعدات تخدم القطاع النفطي كالتخزين ومعدات السلامة الصناعية وغيرها.

لقد قامت شركة النفط الوطنية بمنجزات كبيرة لكنها بقيت تقدم خدماتها لنفسها أو طورت أقسام خدمات كجزء من هيكلها، ولم يكن للقطاع الخاص أية علاقة بالعمليات التي تجري ضمن هذا المجال إلا بذلك القدر اليسير الذي تسمح به الشركة، ولم يتطور

قطاع وطني خاص يعمل في مجال النفط، ولم تكثرت كل الحكومات السابقة إلى تنمية قطاعات تصنيع مرتبطة بالصناعة النفطية ما عدا التكرير المقصور على أنتاج حاجة المستهلك المحلي فقط.

ودليل على ذلك حصلت شحة كبيرة في المنتجات النفطية محلياً لمجرد زيادة الطلب عليها مؤخراً.

وهكذا تسترت الحكومات السابقة لهذه الصناعة الحيوية وراء حجب كثيفة لكي تستأثر بعائداتها وتبقي الأموال تصب في الخزائن التي لم تمول سوى وسائل الموت والدمار للشعب وفي شن الحروب العبثية على دول الجوار وبذات الوقت تملئ خزائن المتحكمين بالسلطة المركزية الذين يصبح لهم شعور متزايد من أن هذه الثروة تعود لهم وحدهم، وبالمقابل تشكل مفهوماً وهمياً لدى الناس من عدم التفكير بالولوج في أي عمل يخص القطاع النفطي في السابق.

أن عمليات الترويج لقيام صناعات خدمية نفطية ضمن نشاط القطاع الخاص لا يقتصر على نشاط وزارة النفط لوحدها، وإنما يجري بالتعاون مع وزارة الصناعة لبعض المردودات الاقتصادية التالية:

(أ) أن الخدمات النفطية الضرورية ستعود لمنفعة أصحاب الأرض الحقيقيين ويعتبر ربحاً أضافياً لأوطانهم وبالتالي المزيد من الشعور بالانتماء لهذه التربة، والمزيد من المشاريع الاستثمارية المستقبلية بعد أن تتشكل طبقة متوسطة محترمة.

(ب) زيادة الثقافة والمعرفة النفطية لأبناء هذا البلد وخصوصاً الخدمية منها وغياب كل ما تتمخض عنه هذه العلاقات الإنتاجية من إشكالات وسيزداد الحرص على الثروة النفطية وعدم التفريط بها لأنها من مساهماتهم ومن عرق جبينهم. وبالإضافة إلى اكتساب مهارات تنفع في مجالات صناعية وزراعية بعيدة عن القطاع النفطي في المستقبل.

إننا لا نتوقع أن ينافس القطاع الخاص في هذا المجال أعمال كبريات الشركات العالمية من حيث الخبرة والمعرفة مباشرة ومن البداية ولكن هناك العديد من الخدمات النفطية في مقدور الصناعيين المحليين أن يجيدوا عملها، وحتى بالاستعانة بخبرات أجنبية في بادئ الأمر ولكن التكاليف ستكون أقل وستقام أبنية وخزانات ومعدات من مواد أولية محلية وبالتالي ستلتحق أعداد كبيرة للمساهمة في هذا القطاع الذي لا يمكن أن يبقى محجوباً عن أنظار أهل البلد الأصليين.

ثانيا: تهيئة القطاع الخاص للاستثمار في مجال الصناعات التي تخدم القطاع الزراعي:

أن عملية النهوض بالقطاع الزراعي لا يمكن لها أنه تقوم وتتقدم إلى الأمام دون إسناد من النشاطات الاقتصادية الأخرى، وأهم تلك النشاطات هي المكننة الزراعية وتوفير كل المعدات والآلات والوسائل المساعدة في عملية الزرع والحصاد والتخزين والتسويق. أن القطاعات الاقتصادية متشابكة وتخدم بعضها الآخر ففي مجال الزراعة هناك العديد من المشاريع الصناعية التي تلعب دوراً كبيراً في أحداث قفزة كبيرة في الإنتاج الزراعي الذي أصبحنا بأمس الحاجة إليه في الوقت الحاضر ومنها ما يلي:

1- أنتاج منظومات الري بالرش والتنقيط بدل الاعتماد على الشركات الأجنبية، ويأتي ذلك من خلال تشجيع القطاع الصناعي الخاص بتوفير كل المستلزمات والمعلومات

الفنية المطلوبة لإقامة وتنصيب تلك المنظومات على كافة أنحاء البلاد وكل ما تحتاجه من مولدات كهربائية ومضخات وأن تكون كلها مدعومة من قبل الحكومة.

2- تصنيع المضخات وملحقاتها ومعدات الحراثة والتسوية وتعديل الأرض والحاصودات والباذرات ومعدات جني المحاصيل بأنواعها وأجهزة رش المبيدات وغيرها من المعدات.

3- الأغطية البلاستيكية والزجاجية الخاصة بالغرف المحمية من أشعة الشمس والرياح وغيرها.

4- تشجيع أقامة شركات تصنيع البذور المحسنة والأسمدة العضوية والكيمياوية.

5- تشجيع أقامة المشاريع الخاصة بتصنيع ألواح المخازن المعروفة بـ(Sand-wich panels)والتي تنفع في عمليات التخزين المبرد وغيرها من الأبنية المطلوبة لخدمة القطاع الزراعي.

6- تشجيع مشاريع التعبئة والتغليف والمواد المساعدة على نقل المنتجات الزراعية كالستايربور والكارتون والأغطية البلاستيكية التي تسهل من عمليات التسويق السريعة للخضروات والفواكه.

7- عمليات تصنيع المنتجات الحيوانية كالألبان ومنتجاتها واللحوم والأسماك والدجاج والأعلاف الحيوانية المركزة والأدوية البيطرية وغيرها.

8- مشاريع معتمدة على الإنتاج الزراعي كالمطاحن وتحميص الذرة والزيوت النباتية ومعجون الطماطم والأدوية من الأعشاب والغزل والنسيج الصوفي والقطني والجوت وغيرها.

ثالثا: الاستثمار في مجال توليد الطاقة الكهربائية:

هناك العديد من المشاريع يمكن تهيئة القطاع الصناعي الخاص للولوج فيها، وليس بالضرورة أن نبدأ بمنافسة الشركات العملاقة في أنتاجها لمحطات توليد الطاقة الكهربائية التقليدية، لكن يمكن البدء بمشاريع أنتاج خلايا الطاقة الشمسية. أن توليد الطاقة بواسطة المرايا العاكسة التي تستطيع تجميع حرارة تكفي لصهر ملح الطعام وتخزين الطاقة الحرارية لأغراض تحويلها إلى طاقة كهربائية بواسطة التوربينات والمولدات وغيرها من الوسائل الصديقة للبيئة، ولها حاجة ماسة بدل الاتكال على ما تنجزه الحكومة من مشاريع توليد الكهرباء الذي أصبح واحداً من أعقد المشكلات التي تمر بها البلاد حالياً.

رابعا: الاستثمار الصناعي في مجال السياحة:

يمكن اعتبار أن العراق واحداً من أضعف الدول في منتجاته الحرفية التي تسوق عن طريق السياحة. لقد انتعشت السياحة الدينية بعد عام (2003) بشكل واسع، ففي كل عام يدخل العراق ما لا يقل عن (2.5) مليون زائر يقصدون زيارة العتبات المقدسة، ومن المتوقع تزايد هذا العدد لأغراض أخرى كزيادة المناطق الأثرية والاصطياف في المنطقة الشمالية (إقليم كردستان) بعد التحسن الأمني الملحوظ والمتوقع في المستقبل. إن قطاع الصناعات الحرفية (الفو لكلورية) التي يرغب باقتنائها السائح تشكل جزءاً كبيراً من المدخولات والناتج القومي الإجمالي للعديد من دول العالم، بل أن بعض البلدان تعتمد بشكل رئيس على تلك الإيرادات بما يعادل اعتمادنا على الإيرادات النفطية في الوقت الحاضر، لذلك يجب التفكير الجدي في تنشيط القطاع الخاص

للاستثمار في هذا المجال بعد أجراء دراسة حول ما يرغب به السياح من اقتناء نماذج أثرية نحاسية وبرونزيه وخزفية وحياكة أقمشة بتصاميم خاصة بالإضافة إلى الحاجات الاعتيادية التي يقتنيها الزائر كهدايا للأطفال ولعب أطفال ومزهريات وغيرها وهذا يتطلب أيضاً الترويج لإنشاء أسواق متخصصة لهذا الغرض ووسائل عرض جذابة من أجل تنشيط هذا القطاع الذي يقدم قيمة مضافة للناتج المحلي الإجمالي بالإضافة إلى الجانب الدعائي للبلد في الخارج.

تلك كانت بعض المواضيع التي تدعو للمزيد من الدراسات التفصيلية حولها لرسم ستراتيجية جديدة لعمل وزارة الصناعة والمعادن المستقبلي تماشياً مع متطلبات المرحلة الراهنة والخروج من الوضع السابق الذي آلت إليه الأمور بسبب السياسات السابقة، وسنوافيكم بدراسات تفصيلية أخرى في المستقبل.

الخلاصة والاستنتاج:

لقد آن الأوان لرسم ستراتيجية جديدة لوزارة الصناعة والمعادن تعتمد في الأساس على دعم وإسناد القطاع الصناعي الخاص وإحداث نقلة نوعية للنهوض بواقع الصناعة العراقية الحالية، والبحث في مجالات واختصاصات صناعية جديدة قادرة لأحداث قيمة مضافة عالية وتنمية مستدامة، ولا بد من كسر حاجز الدخول في صناعة النفط والغاز لما لهذا القطاع من أهمية حيوية في بلادنا وما يمكن أن يستوعبه من أعمال لم يسهم القطاع الخاص بها بصورة جدية لحد الآن.

المراجع:

1- **د. سمير حسن ليلو "مستلزمات تغيير الأداء في وزارة الصناعة والمعادن (مراجعة في قوانين وزارة الصناعة) على الموقع الالكتروني** (Sotaliraq)**في** 12-9-2011.

2- **حمزة الجواهري "من أجل بناء قطاع خاص في الصناعات النفطية" مجلة الحوار عدد** (27) **تموز** (2011).

3- **د. محمد علي زيني "النفط ومحنة الاقتصاد العراقي، خارطة طريق لإعادة الأعمار وتحقيق نمو اقتصادي مستدام" محاضرة في لندن نظمتها رابطة الأكاديميين العراقيين في المملكة المتحدة في**2011/3/1

4- **د. وليد خدوري "مقالات في النفط" مجلة الحوار عدد** (27)- **تموز** (2011).

أنموذج للدور القيادي في الوظيفة العامة:
السيرة الوظيفية للأستاذ عبد الباقي رضا

أ. د سليم الوردي

ولد في بغداد عام 1942 وأنهى دراسته الجامعية العليا في جمهورية بلغاريا عام 1974في اختصاص الاقتصاد السياسي، أمضى حياته الوظيفية في قطاع التأمين العراقي، وهو ما حدد اهتماماته الأكاديمية في مجال اقتصاديات التأمين وأدارة الخطر، حيث ألف وترجم العديد من الكتب، وزهاء 7مقالات وبحث. بعد تقاعده انخرط في التدريس في كلية التراث الجامعة. حصل على لقب الاستاذية عام 2008 ، ابدى اهتماماً مبكراً بالدراسات الاجتماعية وصدرله كتاب (علم الاجتماع بين الموضوعية والوضعية 1978) و مقتربات الى المشروع السياسي العراقي1920 -2003 سنة 2005) و(ضوء على ولادة المجتمع العراقي المعاصر سنة2009) الى جانب ما يربو على100 بحث ومقال في الشأن السياسي والثقافي.

لم يسبق لي وان كتبت في سير الرجال. ولعلني لا أتوفر على أدوات ومداخل هذا الضرب من الكتابة. وإذ أتصدى للكتابة عن السيرة الوظيفية للأستاذ عبد الباقي هادي رضا، فلأنه يعزف عن الكتابة عن نفسه. وربما يعود ذلك الى تواضعه واعتبار أن سيرته قد جرت ضمن السياقات المفترضة للوظيفة العامة، بينما نجد نحن فيها تجربة ثرّة ومتميزة، يمكن أن تفيد منها العناصر الشابة التي تتطلع الى أن تشغل مواقع قيادية في الوظيفة العامة أو منظمات الأعمال.

يمثل الموقع القيادي في الوظيفة العامة في العراق عبئا كبيرا على من يتسنمه، نظرا للتغيرات السياسية والاجتماعية الدراماتيكية التي شهدها العراق في النصف الثاني من القرن العشرين، والتي تتطلب من القيادي في الوظيفة العامة قدرة غير اعتيادية على الموازنة والحصافة في اتخاذ القرار وبعد النظر. ولعل التكنوقراط الصرف غير القادر على استقراء الموازنات السياسية والاجتماعية يضيع في معمعة الإحداث التي شهدتها تلك المرحلة. إن نجاح القيادي في الوظيفة العامة في كنف تلك الضغوط يشفّ عن ملكة غير اعتيادية. ومثل هذه الملكة لا تتكون وتتبلور بين يوم وليلة، ولا تحكمها التطلعات الإرادية للقيادي وحسب، بل تعود بالدرجة الأولى إلى الظروف والعوامل التي

أثرت في نشأته وملكاته الفطرية. من هذه الزاوية سأحاول أن أتناول نشأة وتطور السيرة الوظيفية للأستاذ عبد الباقي رضا.

ولد الأستاذ عبد الباقي رضا في مدينة كربلاء المقدسة في 18 تموز 1930 وحين درج في الدراسة ابدى تفوقا في جميع مراحلها: الابتدائية والمتوسطة والثانوية (الفرع العلمي). وفضلا عن تفوقه العلمي تميّز بمواهب مختلفة بين إقرانه من التلاميذ. كان خطاط المدرسة ورسامها، واشرف على إصدار نشرة جداريه وتولى تحريرها، وفي عين الوقت عدّ شاعر الثانوية. ويذكر انه ألقى في حفل عام أول قصيدة من احد عشر بيتا من نظمه وهو في الصف الثاني المتوسط. قبل سنوات اطلعت على كتاب يتناول شعراء مدينة كربلاء، أشار الكتاب الى أن الأستاذ عبد الباقي يعدّ من شعراء المدينة. وكان يشارك في المطاردات الشعرية التي تقيمها المواسم الثقافية ويحصد الجوائز، الى جانب كونه خطيبا في الاحتفالات والمناسبات. وحين تأسست مكتبة عامة في مدينة كربلاء تطوع مع نفر من الطلبة الى مساعدة مسؤولها، والدعاية للمكتبة. وذكر لي انه قبل تأسيس المكتبة العامة كان يلجا إلى استعارة الكتب من مكتبات السوق لقاء اجر (أربعة فلوس) عن كل ليلة للكتاب الواحد، الأمر الذي كان يحفزه الى انجاز قراءة الكتاب في ليلة أو نحوها، تفاديا للكلفة العالية!

أنهى امتحان البكلوريا للدراسة الثانوية بتفوق، ما أهله للترشح لبعثة علمية لدراسة هندسة الري. وأفادني أن ذلك الاختصاص لم يكن يلبي رغبته التي كانت تميل الى اختصاص الهندسة المعمارية بحكم موهبته في فن الرسم. كما أن الظروف المعيشية وقت ذاك كانت تتطلب منه العمل، لكي يتاح له الجمع بين العمل والدراسة الجامعية مساء. فعمل في وظيفة كاتب في ذاتية معارف كربلاء. ومن ثم تشبث لكي ينقل الى مثل الوظيفة في مخزن وزارة المعارف في بغداد سنة 1950، ما أتاح له الالتحاق بالدراسة المسائية لكلية التجارة والاقتصاد. وتخرج منها بتفوق سنة 1955 إذ كان الثاني على متخرجي دورته الذي تجاوز عددهم المئتي طالب. عند تخرجه انتقل الى وظيفة تدريسية مساء في المعاهد المهنية للإدارة المحلية. في عين الوقت عمل صباحا مدقق حسابات في أول مكتب لأول محاسب قانوني في العراق (مكتب نزهت محمد طيب). واستمر ذلك لحين التحاقه بالبعثة الدراسية الى الولايات المتحدة الأمريكية في اختصاص محاسبة التامين سنة 1957.

الخلفية التأمينية

كان توجه مديرية البعثات أن يكون اختصاصه في محاسبة التأمين بيد انه واجه في الجامعة مشكلة غياب مثل هذا الاختصاص، وان دراسة محاسبة التامين تتعلق بدراسة تأمين الحياة، وهي دراسة اكتوارية متخصصة في رياضيات التأمين على الحياة. فما كان منه إلا أن يدرس مواد تأمين الحياة والحوادث والحريق تلبية لمتطلبات عنوان بعثته. وبعد إنهائه دراسة الماجستير سنة 1959 في اختصاص المحاسبة عين تدريسيا في كلية التجارة والاقتصاد (الدوام المسائي). وعمل صباحا في شركة التأمين العراقية، وهو ما يمثل بداية دروجه مباشرة في النشاط التأميني.

توجهت شركة التأمين العراقية إلى

الاكتتاب في وثائق التأمين على الحياة من دون أن يكون لها سابق خبرة فنية واكتتابية في هذا النوع من التامين. وتقرر أن يتولى الأستاذ عبد الباقي إدارة هذا القسم. ويقول بهذا الصدد أن خلفياتي عن التأمين على الحياة نظرية، اعتمدت على كتاب أمريكي قيم، ولكن ذلك لوحده لا يؤهل للتعاطي مع هذه المحفظة. اتفقت شركة التأمين العراقية مع شركة إعادة التأمين السويسرية على البدء بممارسة التأمين على الحياة، لتكون أول شركة عراقية تكتتب فيه. انتدبت شركة إعادة التأمين السويسرية السيد لاري كريانوف (وهو ذو أصول روسية ونشأة إيرانية وثقافة أوربية) فعمل في الشركة أشهراً لتهيئة متطلبات ممارسة التأمين على الحياة. في ذلك الوقت كان السيد عبد الباقي مسؤول إعادة التأمين في الشركة العراقية، فكلف بملازمة الخبير كريانوف.

بذل كريانوف جهودا للعثور على شخص مناسب له خلفية رياضية لتعيينه مديرا للقسم الجديد بعد تأهيله. ويتذكر السيد عبد الباقي انه صاحب الخبير كريانوف في زيارة لكلية العلوم لمقابلة احد أساتذة الرياضيات والاستعانة به. ولكن تلك المساعي لم تفلح. فقرر أخيرا إسناد الوظيفة الى السيد عبد الباقي، ورتب له منهاجا للتدريب في شركة إعادة التأمين السويسرية (قسم الحياة حصرا) ودام ذلك المنهاج مدة أربعة اشهر من صيف سنة 1961.

بعد عودته من زيورخ تولى إدارة قسم التأمين على الحياة وساعده موظفان هما: السيد سالم يوحنا والسيد زهير بطرس. يقول السيد عبد الباقي: لكي اقنع الغير بالتأمين على الحياة، كان لابد أن اشرع بنفسي. وصدرت لي الوثيقة رقم 600001 للتامين على حياتي (من نوع التأمين المختلط) لمدة عشرين سنة. واستحقت الوثيقة التسديد سنة 1981. وتسلمت مبلغها في عهد إدارة المرحوم السيد مدحت الجراح مع هدية اعتز بها وهي كتاب (الأغاني لابي الفرج الأصفهاني) في 24 مجلدا. ويمكن اعتبار تلك الوثيقة هي أول وثيقة حياة من نوع (Endowment) تصدر عن شركة تأمين عراقية.

وأنا أتطرق الى هذه الرواية، أتذكر أننا في ثمانينات القرن الماضي تقصينا عن عدد العاملين في شركة التأمين الوطنية الذين يملكون إحدى وثائق التأمين، فتبين لنا أن عددهم ضئيل، والأكثرية لم تقتن ولا وثيقة واحدة. علقت في حينه على هذه النتيجة ببيت شعر لشوقي على لسان قيس بن الملوح في مسرحية "مجنون ليلى ":

وشاة بلا قلب يداوونني بها
وكيف يداوي القلب من لا له قلب

وتيقنت في حينه أن خلق وعي تأميني متقدم في المجتمع العراقي مشواره طويل لان الحكمة تقول: ابدأ بنفسك!

الصفة القيادية

القيادة سمة من سمات عدد قليل من الناس، ولا يتأتى لها أن تتبلور إلا في بيئة تغذيها وتحفزها الى الظهور. ويبدو أن السيد عبد الباقي وجد في شركة التأمين العراقية الوسط الإداري المؤاتي لظهور ملكته القيادية.

كما ويبدو أن المجموعة التي كانت تنتمي إليها الشركة كانت تتوسم فيه قائدا للشركة وتهيؤه لهذا الموقع. ومن المرجح أن الأوساط التأمينية في العراق كانت تقدر شخصيته

القيادية، بما في ذلك الأوساط الرسمية. وقد ترجم ذلك الى تعيينه مديرا عاما لشركة بغداد للتأمين على اثر صدور قرارات التأميم في 14 تموز1964 وقد سمع القرار من المذياع كما أفادني.

استمر عمله في هذا الموقع لحين عملية دمج شركات التأمين في العراق على أساس التخصص، فكان أن تخصصت ثلاث شركات هي: شركة التأمين الوطنية (إعمال التأمين العام) والشركة العراقية للتأمين على الحياة، وشركة إعادة التأمين العراقية، بوصفها منشآت ترتبط بالمؤسسة العامة للتأمين. ونقل عندها الى مدير عام في المؤسسة العامة للتأمين. في 1966/2/1 سمي مديرا عاما لشركة التأمين الوطنية. وفي هذه الشركة الضخمة من حيث عدد العاملين والمسؤوليات تفتقت المواهب الإدارية والقيادية للأستاذ عبد الباقي رضا، واستمرت خدمته فيها اثنتى عشرة سنة.

دوره التأسيسي في شركة التأمين الوطنية

تأسست شركة التأمين الوطنية كشركة حكومية سنة 1950 للتأمين على أموال دوائر ومنشآت الدولة، تعاقب على إدارتها في البداية مديران عامان يحملان جنسية أجنبية. ومن ثم مدراء عامون عراقيون. ويتجلى الطابع التأسيسي لشركة التأمين الوطنية بعد عملية الدمج في المسؤوليات الكبيرة التي أنيطت بها بوصفها محتكرا لسوق التأمين العام في العراق بمختلف أنواعه ووثائقه. وتمثلت الإشكالية الأولى التي واجهتها الشركة في إدارة محفظة تأمينية كبيرة، انحدرت إليها من محافظ الشركات المدمجة التي تتباين في أساليبها الاكتتابية والترويجية. هذا فضلا عن اختلاف مستويات الكوادر التي كانت تعمل في الشركات الأهلية، ومرتباتهم التي صارت تحدد بموجب معايير الوظيفة الحكومية. وكان دمجهم في كيان وظيفي يعمل بإيقاع موحد مهمة شائكة للغاية. وإذا كانت عملية الدمج قد صدرت بقرار، فأن الاندماج الفعلي للكوادر العاملة قد استغرق وقتا أطول.

وجد الأستاذ عبد الباقي حرجا في موقعه الجديد، لأنه كان اصغر سنا من معظم قيادات الشركة. وكان الفنيون منهم أوسع خبرة منه في مجالات اختصاصاتهم، وأطول خدمة. وخشي أن يؤدي ذلك الى عدم تقبلهم القادم الجديد وعدم التعاون معه. بيد أن هواجسه تلك لم تكن في محلها- كما يبدو- فلم يواجه بمواقف سلبية بل بتعاون قيادات الشركة معه. المشكلة التي واجهها كانت تكمن في سياقات الاتصالات الإدارية. فقد ألف المدراء في شركاتهم الصغيرة سابقا الاتصال المباشر مع المدير العام. ولكن هذا أصبح يمثل عبئا إداريا كبيرا في شركة تضمّ مئات الموظفين.

وعلى هذا الأساس بات من الملحّ إعادة النظر في الهيكلية التنظيمية للشركة وسياقات الاتصال الإدارية. وعلى هذا النحو نضجت فكرة فصل الإدارة العامة عن النشاط الفني الاكتتابي حسب محافظ التأمين المختلفة. وتمخض عن ذلك استحداث فروع تمارس صلاحيات أوسع، ما يحقق انسيابية اكبر في انجاز الإعمال اليومية. وكانت البداية مع الفرع الرئيس الذي أوكلت إدارته إلى احد رؤساء الأقسام. ثم تطور الأمر إلى هيكلية تنظيمية قائمة على إدارة عامة وفروع متخصصة وفروع ومكاتب

جغرافية.

تأثر الأستاذ عبد الباقي من السنوات الأربع والنصف التي أمضاها في شركة التأمين العراقية، وكان أول من عمل فيها، واستوعب طبيعة وديناميكية عمل القطاع الخاص. فقد كان القائمون على مجموعة الشركة المالكون لأكثر أسهم رأسمالها من ذوي الخبرة والنشاط في مجال مشاريع القطاع الخاص، وذوي أفق وطموح الى التوسع في مختلف أوجه الاستثمار. ويشيد الأستاذ عبد الباقي بهمة رئيس مجلس إدارة الشركة. فهو الذي سعى الى شراء محفظة شركة يونيون الفرنسية في تأمين الحياة، وعمل على تعريق البنك العثماني الى بنك الاعتماد، وبنك انترا الى البنك العراقي المتحد. ثم توجه الى الاستثمار خارج العراق. كان الأستاذ عبد الباقي محل ثقة رئيس مجلس إدارة الشركة وقياداتها، إذ كانوا يتطلعون الى توليه إدارة الشركة. لذلك لم يتردد في الاستقالة من وظيفته التدريسية في جامعة بغداد والتفرغ لأعمال الشركة، مع ما للوظيفة الجامعية من وجاهة اجتماعية، وضمان راتب تقاعدي عند الشيخوخة .

سافر سنة 1963 وبصحبة رئيس المجموعة الى ليبيا بهدف تأسيس شركة تأمين فيها. وتم الاتصال ببعض رجال الإعمال الناشطين في ليبيا وقد كانت وقتذاك على أعتاب نهضة اقتصادية وعمرانية على اثر اكتشاف النفط فيها. ولقد لقيت فكرة تأسيس شركة تأمين وطنية فيها ترحابا من قبل عدد من رجال الإعمال الليبيين. ولم يكن في ليبيا في حينه شركة تأمين وطنية، بل فروع ووكالات لشركات تأمين عربية وأجنبية. انتخب الدكتور نور الدين العنيزي أول رئيس لمجلس إدارة شركة ليبيا للتأمين. وقد زار الأستاذ عبد الباقي ليبيا مرة أخرى سنة 1964 لمتابعة إجراءات التأسيس.

وكانت نسبة مساهمة شركة التأمين العراقية 40% من رأسمال الشركة، ووقع عن الجانب العراقي. ويتذكر الأستاذ عبد الباقي انه دعي الى ليبيا سنة 1989 للاحتفال باليوبيل الفضي لتأسيس أول شركة تأمين وطنية في ليبيا.

على اثر قوانين التأميم في 14 تموز 1964 الذي شمل شركة التأمين العراقية فوجئت المؤسسة العامة للتأمين، بعدم قبول الدكتور العنيزي القطاع الحكومي شريكا في شركة ليبيا للتأمين، واستجابت المؤسسة لرغبته دون سعي منها لمحاولة إقناعه باستمرار التعاون. فباعت شركة التأمين العراقية مساهماتها الى الليبيين. وهكذا أجهضت تلك المحاولة.

وتحت تأثير تجربته مع شركة ليبيا للتأمين، وبتوجيه من وزارة الاقتصاد تابع الأستاذ عبد الباقي فكرة استثمار قطاع التأمين العراقي خارج العراق. وكانت البداية مع أسواق دول الخليج العربي. فسافر ومعه المرحوم السيد عزيز مراد الى كل من الكويت والدوحة والبحرين وأبو ظبي ودبي لاستطلاع الإمكانات المتاحة. واستقر بهما الرأي بعد حملة الاستكشاف الى ترشيح البحرين لتأسيس شركة تأمين وطنية فيها، إذ لم يكن فيها سوى فروع ووكالات لشركات أجنبية مرتبطة برجال إعمال ذوي نفوذ. زار البحرين عدة مرات، ومرة منها بصحبة رئيس المؤسسة العامة للتأمين (1).

إن وكالات وفروع شركات التأمين الأجنبية (بامتداداتها الاقتصادية

والسياسية) لم ترحب بتأسيس شركة تأمين وطنية في البحرين. بيد أن حكومة البحرين، متمثلة بأميرها الراحل الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة دعم بحماسة الفكرة. وسعى التيار السلبي في أوساط رجال الإعمال البحرينية الى تقليص المساهمة العراقية في رأسمال الشركة الى 20% بدلا من 40%. وتم الاتفاق في النهاية على نسبة 30% وبدأت إجراءات التأسيس.

لم يكن في البحرين وقتذاك قانون للشركات، وكان التأسيس يتم بصدور (براءة) من الأمير، والتي تضمنت ما يتضمنه قانون الشركات، إضافة الى الإحكام الخاصة بطبيعة أعمال الشركة. تولى الأستاذ عبد الباقي إعداد صيغة البراءة بنفسه، حين علم أن المحامي يستوفي مبلغا باهضا لقاء هذه الخدمة. وأصبح اسم الشركة: شركة البحرين للتأمين برأسمال قدره 100000 دينار، حصة قطاع التأمين العراقي منها 30000 دينار. وقد وزعت المساهمة على شركات التأمين العراقية بواقع 40%لشركة التأمين الوطنية و 30% لكل من الشركة العراقية للتأمين على الحياة، وشركة إعادة التأمين العراقية. أما مجلس إدارة الشركة فقد تكون من أربعة أشخاص من البحرين واثنين من العراق. وانتخب الحاج خليل كانو رئيساً لأول مجلس إدارة للشركة. وعين من العراق أول مدير عام لها، وهو السيد منيب خسرو، أعقبه السيد هشام بابان وآخرهم كان السيد منعم الخفاجي الذي توقفت إدارته سنة 1991 بعد غزو العراق للكويت.

استمرت عضوية الأستاذ عبد الباقي في مجلس إدارة شركة التأمين للبحرين لحين مغادرته شركة التأمين الوطنية. ودعي للاحتفال بمرور عشرين سنة على تأسيس الشركة سنه 1989. وزار حينها حاكم البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، الذي يصفه بأنه كان رجلاً ودوداً. والجدير بالذكر انه قد تأسست بعد ذلك عدة شركات وطنية مثل الشركة الكويتية البحرينية للتأمين. ربما يسترعي الانتباه أن الجانب العراقي لم يحشر العراق في اسم الشركة حرصا منه على إسباغ الصفة الوطنية البحرينية الخالصة على أول مشروع في هذا القطاع.

رعاية الموظفين

إذا كانت إحاطة رب العمل بشؤون العاملين تحت إدارته في القطاع الخاص ممكنا، نظراً لمحدودية عددهم فان هذه المهمة تتعقد عندما يكون عدد الموظفين بالمئات، وربما ناهز عددهم 1100 موظف في عشية مغادرة الأستاذ عبد الباقي لشركة التأمين الوطنية سنه 1978. يبدأ اهتمامه بالموظف مع تقديم أوراقه ثم خضوعه لاختبار القبول. كان اهتمامه لا يقتصر على مضمون الإجابة وحسب، بل وبخطه وإنشائه وإملائه، ليقف على قدرته على تحرير الكتب والمذكرات والتقارير. أدرك الآن أهمية الخط والإنشاء لدى تصحيحي دفاتر الطلبة في الامتحانات الجامعية فكثير من الإجابات تكون مرتبكة بسبب رداءة الخط وضعف التعبير. كنت فيما مضى أصحح الأخطاء اللغوية، وتوقفت مؤخرا بسبب كثرتها، ما يصرف تركيزي عن مضمون الإجابات. وعلى وجه العموم يتعذر إيصال الفكرة، من دون حسن التعبير عنها.

كان الأستاذ عبد الباقي يبدي اهتماماً كبيراً في زجّ الموظفين وخاصة الجدد في

منهاج تدريبي. كان شرطاً أن ينخرط الموظف الجديد بدورة ابتدائية تأهيلية في أنواع التأمين. وبعد سنة أو سنتين يضمّ الى دورة متقدمة في شؤون التأمين المختلفة: الفنية والتسويقية والاقتصادية. أتذكر أنني رشحت بعد سنتين من خدمتي في الشركة الى دورة متقدمة كانت تقيمها المؤسسة العامة للتأمين وقتذاك. وحين اطلعت على مواد برنامج الدورة قرأت اسمي فيها محاضراً في مادة "اقتصاديات التأمين" ورأيت مفارقة أن أكون محاضراً وطالباً في آن. اطلعت الأستاذ عبد الباقي على تلك المفارقة، فلم ير فيها مفارقة وقال لي ما معناه: تتعلم ما لا تعرفه وتعلّم ما تعرفه في اختصاصك. وكانت ممارسة ممتعة، حظيت بارتياح المتدربين، حين كنت انسلخ عن رحلة الطالب واعتلي منصة التدريسي. والآن وأنا احمل لقب الأستاذ الجامعي ما زلت أتذكر تلك التجربة ما جعلني أؤمن أن الأستاذ هو طالب للمعرفة، ويحتاج بين الحين والآخر الى دورة أو برنامج ثقافي ينعش فيه معارفه.

في صيف 1971 حصلت على مقعد دراسي في كلية الاقتصاد في صوفيا لدراسة الدكتوراه. وتقدمت بطلب إجازة دراسية الى إدارة شركة التأمين الوطنية. فلقيت ترحابا من لدن الأستاذ عبد الباقي، وشجعني على الالتحاق بالدراسة. حين واجهت المعاملة عراقيل في وزارة المالية بحجة أن موازنة الشركة لم تتضمن نفقات إجازة دراسية قال لي الأستاذ عبد الباقي: لا علاقة لك بالأمر والسبب مناكفة بين الوزارة والشركة، وقعت أنت ضحية لها. وقال بتصميم: لا تفوت فرصة إكمال الدراسة حتى لو كلفك الاستقالة من الوظيفة، واضمن لك إعادة التعيين حين عودتك. ولحسن الحظ المسألة سويت في وزارة المالية بعد عدة اشهر من المعاناة.

حين عدت بعد حصولي على شهادة الدكتوراه، شعرت بنفس متحسس إزائي من الخط الفني والإداري المتقدم في الشركة، خاصة حين حصلت على سيارة "المرسيدس" التي وزعت على أصحاب الكفاءات في حينه. وذلك لان عنواني الوظيفي كان بدرجة ملاحظ، عدل بعدها الى رئيس ملاحظين. بيد أن ذلك الموقف المتحسس الذي كنت استشعره لم يثنني عن مواصلة العمل والتطلع الى تطوير أعمال الشركة وأساليب عملها خاصة لشعوري بدعم المدير العام لي وتقييمه لما احمله من تطلعات. بعد عودتي بأشهر اقترحت على إدارة الشركة تنظيم دورة في الإحصاء التأميني للجهاز الإحصائي في الشركة، وتوليت إلقاء المحاضرات فيها. وحضر الأستاذ عبد الباقي محاضرة الافتتاح، وألقى فيها كلمة أشاد فيها بي وحرصي على توظيف معارفي لخدمه الشركة. بعد تلك الدورة شعرت أن الموقف المتحسس إزائي بدأ بالتزحزح.

سنة 1976 تقدمت بدراسة تناولت ضرورة انتهاج الشركة أسلوب التخطيط في إدارة أعمالها. تحمس الأستاذ عبد الباقي للفكرة وناقشها معي مراعيا أن التخطيط سيملي أساليب جديدة في الإدارة، وقد يصطدم بضعف الوعي التخطيطي لدى إدارات الأجهزة مما يتطلب التدرج في الخطوات، تفاديا لردود فعل الإدارات التي لم تألف التخطيط منهجاً في عملها. كتبت ورقة عمل، وزعت على إدارات الأجهزة، ثم تمت دعوتهم الى ندوة لمناقشة الورقة، واستمرت الندوة

ومناقشاتها نهاراً كاملاً. وعلى أثرها أُعدت صيغة التعليمات التي تنظم آليات إعداد خطة الإنتاج ومتابعة تنفيذها. وشعرت أن إدارات الأجهزة قد تبنت التعليمات لأنها شاركت في مناقشتها، ولم تمل عليهم بأسلوب إداري فوقي، وأصبح ذلك نهجاً اتبعه قسم التخطيط الذي توليت إدارته، وخاصة ما يتعلق بإعداد البرامج التسويقية لجهاز الإنتاج الميداني. وكانت تلك البرامج السنوية تمثل اختراقاً للأسلوب العشوائي الذي كان يسير عليه المنتجون، خاصة أن العمولات التي كانوا يحصلون عليها ترتبط بنتائج تنفيذ تلك البرامج. وحين التقي هذه الأيام ببعض المنتجين القدامى يستذكر باعتزاز تلك الحقبة التي كان المنتجون فيها يعملون كخلية نحل.

إن اهتمام الأستاذ عبد الباقي لم يقتصر على البرامج التدريبية والتأويلية للمستويات الوظيفية كافة، بل تجاوزه الى التطوير النوعي الجماعي للمهارات الفنية والقانونية. واذكر بهذا الصدد الندوات الأسبوعية التي كانت تعقدها الكوادر الفنية والقانونية في الشركة، تناقش خلالها اشتراطات الوثائق ونصوصها ومطالبات التعويض المعقدة. وذكر لي السيد رفعت الفارسي الذي كان احد الناشطين في تلك الندوات، إن محاضرها إذا ما رتبت تصلح لان تكون مرجعاً فنياً وقانونياً ثراً للعاملين في شركات التأمين .

كان الأستاذ عبد الباقي يهتم بتحسين سمعة الشركة لدى الجمهور، وذلك عبر قنوات مختلفة تأتي في مقدمتها مشاركة الشركة في فعاليات أسبوع التأمين الذي كانت تنظمه المؤسسة العامة للتأمين: ندوات ولقاءات إذاعيه وتلفزيونية ومواد إعلامية في الصحف والمجلات. وكانت اللقاءات تمتد الى طلبة المتوسطات والاعداديات والجامعات، لأنهم يمثلون النشأ الجديد، وتوزع خلالها المواد الدعائية والترويجية.

السياسة التعويضية المنفتحة

كان الأستاذ عبد الباقي حريصاً على الاهتمام بجمهور المؤمن لهم الذين يتعاملون مع الشركة بوصفهم نواة لجمهور واسع واعد من العملاء.

ومن نافلة القول أن العلاقة بين العميل وشركة التأمين تحكمها الثقة المتبادلة بينهما. فان تزعزعت، يتحول العميل من داعية للشركة الى داعية ضدها يشكك بصدقيتها في الوفاء بالتزاماتها تجاه عملائها. وتتحقق مرحلة الاحتكاك المباشر بين العميل والشركة، عندما يطالب بالتعويض عن خسارة تحملها بموجب عقد التأمين. فإذا كان الموظف متشدداً يعمد الى التشبث بمختلف الذرائع لحجب التعويض، لاسيما أن وثيقة التأمين تضمّ الكثير من الاشتراطات والتحذيرات التعاقدية التي غالباً ما تطبع بحروف ناعمة، ويندر أن يطلع المؤمن له عليها، فما بالك في أن يفقه مضامينها!

وإذ أدرك الأستاذ عبد الباقي هذه الإشكالية راح يؤكد على أجهزة التعويض على تسهيل حصول العملاء على تعويضاتهم. وأتذكر توصيته المتواترة الى موظفي أقسام التعويض بالشركة: "فتشوا في الحروف الناعمة لوثيقة التأمين عن مسوّغ لتسديد التعويض وليس لحجبه عن المؤمن له."

بعض مطالبات التعويض كان يتعذر الوصول فيها الى تسوية ترضي طالب التعويض، مما يحدو به الى اللجوء الى القضاء للبتّ في الموضوع. كان الأستاذ عبد

الباقي يفضل عدم لجوء طالب التعويض الى القضاء، ويعّد ذلك مثلبة في العلاقة بين المؤمن له وشركة التأمين القائمة على مبدأ حسن النيّة القصوى. وكان ينصح أقسام التعويض بتفادي حالات لجوء المؤمن له الى القضاء، إلا بعد أن تتيقن من عدم استحقاقه التعويض.

والجدير بالذكر أن قرار تسديد التعويض من عدمه ذو طبيعة اجتهادية تتباين بين هذا الموظف أو ذاك، وبهذا الصدد كان يوجه بأن ترفع إليه المطالعات المؤيدة لتسديد المطالبات التي رجح قرار رفضها، على أمل أن يجد في بعضها مسوغا لتسديد التعويض. يجدر بأجهزة التعويض الحريصة على إدامة ثقة جمهور المؤمن لهم بشركة التأمين أن تتسم بالمرونة في قراراتها، ما يرجح تسوية مطالبة التعويض لصالح المؤمن لهم من حيث المبدأ، إلا إذا انتهك بصورة فاضحة اشتراطات وتحذيرات عقد التأمين.

إننا نتحدث عن شركة التأمين الوطنية حينما كانت تمارس دوراً احتكارياً في سوق التأمين العام في العراق. أما اليوم حين يعمل الى جانبها عشرات شركات التأمين الأهلية فان المرونة في تسوية مطالبات التعويض تمثل الميزة التنافسية الأساس لشركة التأمين، التي تحدد موقف جمهور المؤمن لهم منها. وفي هذا السياق وجه الأستاذ عبد الباقي سنة 1974 بإجراء استبيان واسع النطاق للوقوف على انطباعات الجمهور من خدمات الشركة.

وتضمنت عينة البحث 5000 استمارة استبيان وزعت على مختلف الشرائح المهنية والطبقية للمجتمع العراقي. وخلصت الى دراسة مستفيضة، كانت نتائجها وتوصياتها محل اهتمام مجلس إدارة شركة التأمين الوطنية، وترجمت الى توجيهات لأجهزة الشركة الفنية والتسويقية.

المتابعة

امتلك الأستاذ عبد الباقي قابلية غير اعتيادية في متابعة أعمال ومراسلات الأجهزة الكثيرة والمتنوعة. وغالباً ما كانت ساعات الدوام الاعتيادية لا تكفيه فيأخذ معه الى البيت حقيبة مليئة بالمعاملات. كان يعنى بالمراسلات التي تصدر عن الشركة، وينبه محرريها – بهوامشه – الى الأخطاء اللغوية والإنشائية. وأتذكر انه ذات مرة عمم على الموظفين قواعد كتابة الأرقام بالعربية. وحينما كنا نرفع له مطالعات، نتشوق الى تصحيحاته وهوامشه التقويمية.

كنا نسجلها ونحرص على مراعاتها في مطالعاتنا اللاحقة. كان لا يوقع كتاباً بعد طباعته إلا بعد أن يقرأه بإمعان وحين يكتشف بعض الأخطاء الطباعية، سواء أكان النص عربياً أو انجليزياً، يعيد الكتاب لتصحيحه في شعبة الطابعه .

بعد خدمته في شركة التأمين الوطنية

بعد12 عاما أمضاها في إدارة شركة التأمين الوطنية، نقل الأستاذ عبد الباقي سنه 1978 الى ديوان المؤسسة العامة للتأمين بوظيفة مستشار. وبعد إلغاء المؤسسة العامة للتأمين سنة 1978 نقل بوظيفة مستشار في وزارة المالية، وأوكلت له مهمة الإشراف على القطاعين التأميني والمصرفي.

في عام 1994، أحيل على التقاعد ببلوغ السن، بعد ما يتجاوز الأربعة عقود أمضاها في خدمة الوظيفة العامة. وفي عشية تقاعده

وجه له وزير المالية وكالة ورئيس الوزراء في حينه كتاب شكر وتقدير قيّم فيه عاليا، مجمل المسيرة الوظيفية المعطاء الحافلة بالإخلاص والتفاني في أداء الوظيفة العامة. كما وجه له رئيس مجلس إدارة شركة التأمين الوطنية كتاب شكر وتقدير على خدماته المتميزة للشركة ولقطاع التأمين العراقي.

وقد تحمس الكثير من الشركات الى استقطابه والإفادة من خبراته. وعلى رأسها شركة التأمين الوطنية فسمي عضواً مزمناً في مجلس إدارتها، وما يزال نائبا لرئيس مجلس إدارتها (تشرين الأول2011). وعين في الوقت الحالي عمل مستشاراً في القطاع المصرفي الأهلي، وما يزال، وعضوا في مجالس إدارة عدد من الشركات المساهمة.

وإذا نوثق لشذرات من السيرة الوظيفية للأستاذ عبد الباقي رضا، سواء في القطاع الحكومي أو القطاع الأهلي، فنحن نضرب مثلاً على الدور القيادي الذي نهض به والخبرة النوعية اللامعة التي تجاوز عمرها أكثر من نصف قرن. ونتمنى له طول العمر والصحة والعافية والذهنية المتيقظة التي ما يزال عليها وهو يتجاوز العقد الثامن من العمر.

(1) للمزيد من المعلومات راجع: مصباح كمال "مساهمة قطاع التأمين العراقي في تأسيس شركات تأمين عربية: لمحة أولية" **مجلة التأمين العراقي، 2008/8/18**
http://misbahkamal.blogspot.com/2008/08/30-1964-40-60-1969-30-70-1990.html

القوى الاجتماعية الفاعلة في الانتفاضات الشعبية في البلدان العربية

د. هاشم نعمة

د. هاشم نعمة أستاذ جامعي وباحث، حصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب جامعة البصرة عام 1974. نال شهادة الدكتوراه التخصص الدقيق الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية عام 1989. عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب وله ترجمات من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات الأكاديمية التي تصدر في المغرب.

طرح اندلاع الانتفاضات الشعبية في العديد من البلدان العربية الكثير من الأسئلة ذات الأبعاد النظرية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية عن أسباب اندلاعها وقواها الفاعلة وتزامنها في هذا الوقت بالتحديد.

وبما أن الانتفاضات حتى التي نجحت في إسقاط قيادات الأنظمة الاستبدادية لا تزال في طور الحدث غير المكتمل المتمثل في بناء أسس دولة مدنية ديمقراطية. إذن تبقى الإجابة عن هذه الأسئلة عملية مستمرة ومفتوحة ولا تكتمل لحظتها إلا بتعمق مسيرة التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تصب في ذات الهدف. وبما أن الانتفاضات يقتضي دراستها بأبعادها المتعددة المركبة والمتبادلة التأثير التي خلقت حالة التراكم الذي أدى إلى اندلاعها وتسهيلا للبحث يمكن تناول بعض محاورها الهامة مثل المحور الذي تم اختياره عنوانا.

مفاهيم نظرية

من بين النقاشات الفكرية والسياسية الدائرة الآن حول الانتفاضات تلك التي تردى بأن المفاهيم النظرية الحديثة والمعاصرة لا تسعفنا كثيرا في تفسير وتحليل أسبابها وتوقع حدوثها والقوى الفاعلة فيها وملامح المرحلة الانتقالية التي تعقب نجاحها. وهذه في تقديرنا لا تأخذ في الاعتبار كثيرا السمات العامة للبنية الاجتماعية–الاقتصادية الطبقية في البلدان العربية حيث هناك تماهٍ في الحدود بين الفئات والطبقات الاجتماعية. وهذا عائد إلى أن هذه المجتمعات لم تشهد تحولات اجتماعية واقتصادية عميقة تساهم في تشكيل ملامح هذه الفئات والطبقات. وهذا ينعكس بالتأكيد على الأدوار السياسية التي تضطلع بها سواء في زمن الأنظمة الاستبدادية أو بعد سقوطها.

اعتبر ماركس استخدام الأساليب السلمية أو العنفية أثناء الثورة مسألة تتعلق بالإستراتيجية والتكتيك التي تسعى لتحقيق أهداف الثورة. إذ تحدد الشروط الاجتماعية والتأريخية في مكان وزمان معينين الأساليب التي يتعين استخدامها، وإن لم يسقط إمكانية استخدام العنف (1). وفي حمأة الصراع الأيديولوجي، ظهرت الكثير من الأطروحات الماركسية التي تجعل من الحركات الاجتماعية المحرك الفعلي للتأريخ مزيلة عنها تهمة "الجريمة" ومدرجة إياها في الشروط الموضوعية لبناء المجتمع الاشتراكي. فهذه روزا لوكسمبورغ تقول إن "الحركات الشعبية ناجمة عن قوة طبيعية تجد منبعها في الصراع الطبقي للمجتمع العصري"، فالأمر لا يتعلق بجماهير مجرمة، بل بنتاج موضوعي لفصول من الاستغلال والتوزيع غير العادل للثروات (2). إن التراكم المعرفي الذي نتج في مجال الحركات الاجتماعية الاحتجاجية لم يسلم كثيرا من الأيديولوجيا؛ فالحركات الاجتماعية ظلت لزمن بعيد مصطبغة برهانات الصراع الدائر سابقا بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، مما أنتج قراءات ماركسية أكثر انتصارا للحركات الاجتماعية، باعتبارها صراعا طبقيا وجسرا نحو التغيير، وأخرى رأسمالية لا ترى فيها إلا "عدوا احتياطيا" يتوجب التخلص منه في أقرب فرصة تتيحها شروط التاريخ. بل إن تحليل الحركات الاجتماعية في الأدبيات الفرانكفونية ظل إلى حدود سبعينات القرن الماضي مرتبطا بالمقاربة الماركسية (3) التي تسربت إلى العلوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالأخص ولا تزال تستخدم كمنهج للتحليل حتى بعد انهيار المنظومة الاشتراكية.

ونجد (زيجمونت) في مراجعته لنظريات الثورة، بعد هبوب رياح التغيير على أنظمة الحكم في أوروبا الشرقية، يفرق بين الثورة السياسية التي تتعلق بتغيير طريقة إدارة الحكم وتأثيره في النظام الاجتماعي، وبين الثورة النظامية التي تتعلق بتغيير البنية الاقتصادية والاجتماعية التي يقوم عليها النظام. وقد جعل هذين النوعين نمطين مثاليين تقع الحالات الواقعية للثورات على الخط الواصل بينهما (4).

منذ عام 1995، بدأ بوردو ينظر للحركة الاجتماعية الجديدة، ويناضل في أطرها المختلفة. مقدما بذلك النموذج الناصع للمثقف العضوي بالمفهوم الغرامشي، رافضا الليبرالية الجديدة كليا، ودليله في هذه

المعركة ما انتهى إليه من مقاربات سوسيولوجية وما يؤمن به من التزام سياسي. ففي ذات السنة، عمل على تأسيس الحركة الاجتماعية الأوروبية بعيدا عن الأحزاب التقليدية، بما فيها الأحزاب القادمة من اليسار.

فما ألفه من الكتب العميقة، جعله ينتصر للحركات الاجتماعية الجديدة، محتجا على العولمة والرأسمالية المتوحشة (5).

هذا يؤكد أن الاهتمام النظري بالانتفاضات والحركات الاحتجاجية لم يكن غائباً تماما كما يدعي البعض وبأن حدوثها لا يشكل "صدمة نظرية" بسبب عدم توقعها في هذا الوقت بالتحديد. حيث يرى صادق جلال العظم بأنه "ليس من مهمات الفكر السياسي أن يتنبأ أو يصدر أحكاما قاطعة. فهو يمكنه أن يكون دقيقاً ومنظماً وعلمياً بقدر نسبي. ويمكنه أن يرصد عوامل الظواهر والحوادث وخلفياتها، ويقدم بعض التوقعات. أما التنبؤ فنادراً ما يكون صحيحا، إلا بالمصادفة"(6). ولكن هل نحن بحاجة لتطوير مفاهيمنا النظرية استنادا لما يستخلص من دروس الانتفاضات؟ نعم لأن المفاهيم النظرية تتطور وتغير أو تعدل من مضمونها ومن أشكال تطبيقها تاريخيا مع تطور الواقع الثقافي والاجتماعي والاقتصادي الذي أنتجها كما تتطور مع تبدل المكونات التي تدخل فيها والحاجات الجديدة التي ترد عليها حسب برهان غليون. بالنظر إلى التطورات التي تشهدها المنطقة العربية، نجد أنها تستدعي مجموعة من المفاهيم النظرية، مثل مفهوم الثورة والعدوى والحروب الثورية، والتي ساد اعتقاد بين المتخصصين بأن نجمها قد أفل. حيث كان هناك تيار من الأكاديميين قبل اندلاع الانتفاضات يفضل تصنيف النظم السياسية العربية على أنها من النظم المستقرة. ولكن حالة الثورة تفيد بأن حالة الاستقرار تلك، والتي استمرت في بعض الحالات ما يزيد على 40 سنة، لم تعبر عن استقرار حقيقي، بقدر ما عبرت عن حالة من الركود، وأن تغيير الحكومة أو النظام ليس بالضرورة مؤشرا على عدم الاستقرار، بل قد يعبر عن حالة من الاستقرار السياسي الحقيقي في النظام، كما هو حال النظم الديمقراطية، فعدم التغيير في العديد من الدول العربية عبر عن غياب استقرار سياسي حقيقي فيها (7) وليس العكس.

ساهمت بعض المفاهيم دون توقع انفجار الانتفاضات. بعد أن تمادى التحليل في تركيب ترسانة من المفاهيم التي لا يقارب مجتمعا عربيا دون الاستعانة بها. وهكذا تم مثلا ترويج مفهوم "التجانس المجتمعي| الثقافي" بصفته شرطا مسبقا كي يحدث التغيير. كما تم البناء على "المقولة" التي ترى أن القرب الجيو- إستراتيجي من مركز الصراع العربي-الإسرائيلي يحفظ للأنظمة سلامتها ويقيها من السقوط تحت ضغط شعوبها. استندت نظرية التجانس "الثقافي" إلى معطى مفترض يتمثل في أن التجانس المجتمعي هو شرط لا بد منه كي تتوافر إمكانات التغيير السياسي في المجتمعات العربية. وبالاستناد إلى هذا المنطق، لم يكن تغيير السلطة مدرجا من تحت ما دامت الغالبية الساحقة من المجتمعات العربية "مركبة" من مكونات "موروثة"، مثل القبيلة والإثنية والطائفة. وهذه التكوينات، بحسب المنطق نفسه، كابحة للتغيير لأن ديناميتها

الأساسية انقسامية عمودية من جهة أولى، وتتمثل من جهة ثانية، في إعادة إنتاج بسيطة لشروط استمرارها على حالها.

هذا المفهوم يتم إسقاطه على الدينامية الاجتماعية وعلى مكوناتها دونما اعتبار للتحول الحاصل في البنية الاجتماعية- الاقتصادية والسياسية والثقافية والذهنية في المجتمعات العربية.

والمفهوم في هذا المعنى لا تاريخي لأنه يتعامل مع المكون "الثقافي" بصفته ثابتا ومحددا لهذه المجتمعات؛ كيف يمكن لهذه المكونات أن تبقى ثابتة على الرغم من انتشار آليات السوق والتعليم الحديث ووسائل التواصل والهجرة من الريف إلى المدن والاندماج في بنية السلطة؟ ولماذا يبقى المكون "الثقافي" منطلقا للتحليل فيما آليات التمييز والعزل والتهميش الاجتماعي والسياسي هي التي تكون موضع الشكوى؟ (8). إذن هذا المفهوم ينظر للبنية الاجتماعية ككتلة جامدة بعيدة عن التطور والتحول وبهذا المعنى يخرجها من سياق التحليل المادي العلمي بمجالاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

القوى الاجتماعية الفاعلة في الانتفاضات الشعبية

عند بحث الانتفاضات لا ينبغي تناسي عامل تراكم النضالات من أجل الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والتي بدأت منذ سنوات في تونس ومصر وبلدان عربية أخرى من خلال سلسلة من التحركات الاحتجاجية والإضرابات والاعتصامات التي قادتها الأحزاب السياسية والنقابات العمالية والمهنية وإن كانت بادوار مختلفة والتي ساهمت في صنع الحدث فحدث كهذا لا يمكن أن يكون مقطوع الجذور عن مقدمات هذا التراكم.

لتحليل القوى الاجتماعية التي ساهمت بفعالية في الانتفاضات لابد من النظر إلى مجمل اللوحة الاجتماعية دون اختزال الدور بمكون دون آخر. فهناك فئتان ساهمتا بفعالية أولا الشباب المتعلم، غير المنظم حزبيا، ولكن الذي تفاعل سريعا مع نشاطات الأحزاب والنقابات التي لعبت دورا كغطاء لهذه الحركة، وأعطاها الزخم اللازم للاستمرار والتعبئة والتأطير. وثانيا شرائح العمال، المنتمية للنقابات أو غير المنتمية، والتي أغفلها الكثير من المحللين في محاولة واعية أو غير واعية لطمس بعدها الطبقي.

إذن، ما حدث في تونس ومصر حركتان اجتماعيتان اندمج بروعة فيهما البعد الطبقي الكلاسيكي مع البعد المدني الجديد (9). وكانت الشعارات التي رفعت في البداية ذات طابع اجتماعي ولكن مع استخدام العنف ضد المتظاهرين سرعان ما تطورت إلى شعارات سياسية حيث تم التركيز على العلاقة بين الديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

دخلت النقابات بقوة على خط الأحداث، عندما أعلنت نقابة المحامين عن إضراب يوم الخميس 9 كانون الثاني/ يناير 2011 ليوم واحد. ونجح هذا الإضراب في إقحام الحركة النقابية في الأحداث، وصدر البيان الأول للاتحاد العام التونسي للشغل يوم 2011/01/11، والذي يقر فيه بمشروعية المطالب المرفوعة، ويطالب السلطات الرسمية بالاستجابة لهذه المطالب (10). صحيح أن الشباب انتفض بشكل غير منظم، ولكن ما لبثت النقابات العمالية أن قامت بتنظيم

الانتفاضة ونقلها من مدينة إلى أخرى. لقد كان الاتحاد العام التونسي للشغل بارعا في التعامل مع النظام: ففي شمال تونس، وخاصة في العاصمة، كان قياديوه يتفاوضون مع النظام، بينما في الجنوب كانوا يعارضونه.أما الإتحاد العام لطلبة تونس، وهو خليط من مجموعات يسارية وإسلامية معارضة، فقد لعب دورا أساسيا في تعبئة طلاب الجامعة ضد النظام. وكان دور نقابة المحامين، مهما ورائدا في توسيع التظاهرات من تظاهرات شابة إلى تظاهرات تشمل كافة الأعمار وبالأخص في العاصمة (11).

وإضافة إلى عنصر الشباب الذي لعب دورا بارزا في الانتفاضة في تونس لعبت الأحزاب السياسية دورا مهما والتي انضمت مبكرا إلى المتظاهرين والمحتجين، في مناطق البلاد، ثم في العاصمة مثل الحزب الديمقراطي التقدمي وحزب التجديد. كما لعب التيار الإسلامي دورا مميزا في مناطق القصرين وجندوبة والكاف وسيدي بوزيد، وبعض المجموعات اليسارية، مثل حزب العمال الشيوعي، والتكتل الوطني الديمقراطي. وأسهمت قيادات الأحزاب القانونية وغير القانونية في دعم التحركات إعلاميا وسياسيا، فيما لعبت المواقع الاجتماعية مثل الفيسبوك دورا حاسما في توفير المادة الإعلامية للفضائيات ووسائل الإعلام.

لقد لعبت الجمعيات الحقوقية والأهلية غير الحكومية دورا مساعدا للنقابات والأحزاب المعارضة وتجلى ذلك بقيام منظمات حقوق الإنسان في تونس وفي الخارج بمواكبة الانتفاضة ونشر معلومات موثقة عن حجم الخسائر البشرية، وبتحفيز القوى العالمية الأهلية والسياسية الرسمية على اتخاذ مواقف حازمة من النظام. ومن هنا فإن من أهم مواصفات المجتمع المدني الحي تعاضد النقابات والأحزاب مع الجمعيات الأهلية (12).

وفي مصر عندما بدأ دور حركات التغيير، التي يطلق عليها الحركات الاحتجاجية، يزداد منذ عام 2005، استهان كثير من السياسيين والمراقبين بها. كان ذلك عندما دعا بعضهم إلى إضراب عام في 6 نيسان (أبريل) 2006، وأسسوا حركة أخذت من ذلك اليوم اسما لها. وقد أسهمت في توفير الأجواء التي خلقت نموذجا جديدا للتغيير في مصر، بعد أقل من خمسة أعوام.

وقد شهدت تلك الفترة تنامي حركات احتجاجية شتى يعتمد معظمها على الشباب، بالرغم من أن بدايتها كانت تقليدية على أيدي سياسيين كانت لهم تجاربهم في أحزاب وحركات سياسية ومنظمات مدنية في الحركة المصرية من أجل التغيير "كفاية" التي أعلنت في نهاية عام 2004، وكانت بداية لنمط جديد في العمل العام في مصر، يختلف عن الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني في شكله وطابعه واتجاهه.

بدأت الانتفاضة في مصر بتحرك مجموعة شبابية (6 أبريل) التي نشأت بتفاعلها مع حركة الإضراب العمالية في المحلة الكبرى. وتحولت عن طريق الشبكات الاجتماعية (الفيسبوك وتويتر) إلى مجموعات متعاضدة، استطاعت باستخدام العالم الافتراضي تعبئة آلاف المتظاهرين من يوم 25 كانون الثاني إيناير، ومن ثم قامت الأحزاب والنقابات المصرية برفع مستوى

التعبئة إلى حد التحدث عن مسيرات مليونية في كل من القاهرة والإسكندرية والسويس، وغيرها. وهنا حالة يتعاظم فيها السياسي والحقوقي المدني على حساب الأيديولوجي. لقد ظن الكثير من الأنظمة وبعض المفكرين العرب والغربيين أن الشارع لا يعبئه إلا الإسلام السياسي. لكن أظهرت الحالتان التونسية والمصرية أن الإسلاميين قوى مهمة، ولكن ليست الوحيدة، وأن قوتها تجاوزت تبسيطية شعار "الإسلام هو الحل" لتطرح قضايا الحرية والديمقراطية كمثيلاتها من الأحزاب المعارضة (13).

ولم يتخلف عن تأييد الانتفاضة سوى قيادة المؤسسات الدينية الرسمية، وإن كانت دعوتهم لم تلق تأييدا من جانب المنتمين إليها. حيث انخرط في التظاهرات قيادات أزهرية وكنسية، رغم مواقف قيادتها من الانتفاضة، وتراوح موقف الجماعات السلفية بين تأييد النظام والتزام الصمت.

وعلى مستوى النقابات والاتحادات المهنية والعمالية وغيرها من التنظيمات، فرغم التأييد الواسع النطاق لأعضاء النقابات المهنية للانتفاضة منذ بدايتها، فقد عارض الانتفاضة رؤساء مجالس بعض النقابات، وأبرزها نقابات المحامين والصحفيين والفنانين. وتوضح المفارقة بين موقف القيادات النقابية وقاعدتها، حيث جاء بعضها بدعم من النظام، وكذلك بالرغم من اندماج قطاعات عريضة من العمال في الانتفاضة، فقد ظل الاتحاد العام للعمال- بطابعه الحكومي- كما هو متوقع مؤيدا للنظام، لكن قدم العمال إسهاما بارزا تمثل في العصيان المدني الذي عجل بسقوط النظام، وغابت عن تأييد الانتفاضة، الاتحادات الصناعية والغرف التجارية، وانخرط معظم رجال الأعمال في تأييد النظام، وشارك بعضهم في الجرائم التي ارتكبها الحزب الوطني ضد المنتفضين (14). وهذا يعكس البعد الطبقي لهذه المواقف من الانتفاضة.

لقد ساهمت تلك السمات في نجاح الانتفاضتين حيث هبت العاصفة من داخل العالم الافتراضي على النظام السياسي المتجمد الذي لم يتوقعها. غير أنها سرعان ما تحولت إلى عبء عليها تبدى في بطء حركتها أو عدم جذريتها، ذلك أن الأفكار، مهما كانت جاذبيتها، لا تستطيع سوى أن تلهم وتحفز ولكنها لا تستطيع أن تحكم وأن بناء نظام جديد يظل بحاجة إلى قيادة مباشرة في عالم واقعي وليس افتراضيا، وهي القيادة غير القائمة. ومن ثم كانت مفارقات ما حدث يوم 25 يناير بالذات دفعت البعض للقول بأن ما حدث نصف ثورة لأنها لم تتسلم الحكم والقيادة (15).

أما الانتفاضات والحركات الاحتجاجية التي شهدتها البلدان العربية الأخرى فرغم دوافعها العامة التي تشترك بها مع كل البلدان العربية من حيث تسلط الأنظمة الاستبدادية وغياب الحريات والتداول السلمي للسلطة ونهب الموارد العامة والفساد الإداري والمالي والسياسي والإقصاء والتهميش لكنها امتلكت سمات خاصة. ففي اليمن وبسبب بنية المجتمع حيث يكون للقبيلة حضورا قويا على المستوى الاجتماعي والسياسي وامتداده إلى بنية الجيش إضافة إلى العوامل الدولية والإقليمية المتمثلة بالمبادرة الخليجية التي تهدف لتجنب سقوط النظام على الطريقة

التونسية والمصرية خوفا من انتشار ذلك النموذج في دول الجوار أي الخليجية بالتحديد سلكت الانتفاضة مسلكا آخر. وفي البحرين فإن الاحتجاجات بالرغم من جذرها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي فقد لبست طابعا طائفيا وهذا ما صب في مصلحة النظام الحاكم حيث استثمر ذلك للتلويح بخطر تمزق المجتمع نتيجة الصراع الطائفي رغم مشاركة الكثير من المكونات الأخرى في التظاهرات منها اليسار ومكونات من السنة وهتاف المتظاهرين "لا سنية ولا شيعية فقط بحرينية".

في الأردن ضمت المسيرات في قلب العاصمة أغلب القوى السياسية المنادية بالإصلاح والفاعلة بالشارع، سواء من الأحزاب مثل حزب الوحدة الشعبية، والحزب الشيوعي، والبعث الاشتراكي، أو من حركة المعارضة الكبرى في البلاد جماعة الإخوان المسلمين، أو القوى المعارضة الجديدة، مثل حركة المعلمين والمتقاعدين العسكريين، والقومي التقدمي، وحركة "جايين" (الحملة الأردنية للتغيير) (16). وقد ارتفع سقف المطالب من إسقاط الحكومة وحل البرلمان إلى رفع شعارات تطالب بملكية دستورية وأحداث تغييرات جوهرية في بنية النظام السياسي وليس شكلية تتمثل بتغيير الحكومات كما حصل في فترات سابقة.

وفي المغرب فقد عرفت حركة 20 فبراير، التي تكونت من ناشطين على الفيسبوك ومدونين، نفسها بأنها حركة سلمية مستقلة عن الأحزاب والتنظيمات السياسية والدينية والنقابية في الداخل والخارج، واعتبرت نفسها معبرا تلقائيا عن تطلعات فئات واسعة من المجتمع. وإذا كان الإعلان عن تأسيس الحركة قد قوبل بدعم بعض النخب والأحزاب السياسية والهيئات النقابية والمدنية، مثلما هو الشأن بالنسبة لأحزاب اليسار الديمقراطي وتنظيماتها وجمعياتها الموازية، وفصائل من شبيبة أحزاب الإتحاد الاشتراكي والعدالة والتنمية ونقابة الكونفدرالية الديمقراطية للشغل، وجماعة العدل والإحسان ذات التوجه الإسلامي، فقد ساد طابع من الحذر والشك والتحفظ مواقف غالبية الأحزاب السياسية، سواء المشاركة في الحكومة أو المعارضة، حيث اعتبرتها شكلا من التقليد لما يحدث في مناطق أخرى.

إن النقاشات التي أعقبت احتجاجات 20 فبراير في المغرب، وما سبقها من تحولات في مناطق عربية أخرى، تنطوي على أهمية كبرى، بالنظر إلى كونها أعادت موضوع الإصلاح والتغيير بقوة إلى الواجهة، وسمحت ببروز أصوات وتصورات نخب كثيرا ما ظلت مغيبة عن النقاش العام، نتيجة التهميش والإقصاء الذي عانته. كما سمحت أيضا بتجاوز طرح النقاشات داخل مجالس النخب السياسية والحزبية أو المثقفة إلى حديث يومي لمختلف فئات ومكونات المجتمع المغربي (17).

يبدو أن التغيير في المغرب يتجه نحو نموذج الإصلاح السياسي التدريجي ويتوقف نجاح هذا النموذج إلى حد بعيد على قبول وتطبيق الإصلاحات الدستورية والسياسية التي استهلت بالاستفتاء الشعبي على الدستور الجديد الذي أقر بغالبية ساحقة في1 تموز/ يوليو 2011 الذي قاطعته حركة 20 فبراير وبذلك لم يكن بالإمكان معرفة وزنها الجماهيري. وطبقا

للدستور الجديد يتم اختيار رئيس الوزراء من الحزب الفائز في الانتخابات ويتمتع بصلاحيات أوسع من السابق بعد أن رحلت بعض من صلاحيات الملك له رغم أن الأخير ظل يتمتع بصلاحيات مهمة. كذلك توسعت صلاحيات البرلمان في التشريع والمراقبة. وفي تقديرنا يعود هذا الاتجاه إلى أن المغرب كان يتمتع بهامش مهم من الحريات منها حرية التعبير وحرية الصحافة. وبعد الإصلاحات السياسة في بداية التسعينات سيطر تحالف القوى اليسارية الذي تشكل من حزب الاستقلال والاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية وحزب التقدم والاشتراكية (الحزب الشيوعي المغربي) على البرلمان وشكلوا الحكومة وإلى الآن.

دور الجيش

من بين العديد من العوامل التي تؤثر في نجاح الانتفاضات في البلدان العربية، يبرز دور الجيش، ليس لأنه القوى المنظمة الأقدر على حسم مسيرة الانتفاضة أو الثورة، وضبط إيقاع الأحداث والتطورات المتلاحقة كحماية الثوار من بطش القوى المناهضة للانتفاضة فحسب، ولكن لكونه كذلك الأكثر جاهزية لحماية الانتفاضة ذاتها من أية ثورات مضادة، والتصدي لمحاولات سرقتها من قبل العناصر أو الدوائر الموالية للنظام.

في انتفاضة تونس، لعب الجيش دورا مفصليا في إنجاحها، حيث التزم الحياد إبان تحول الحالة الثورية إلى فعل ثوري، ولم يتدخل إلا لحفظ الأمن والحيلولة دون انهيار الدولة. وأستند هذا الموقف من جانب الجيش على ركائز شتى، أهمها: استياء الجيش من سياسة الإضعاف والتهميش المتعمدين له من قبل بن علي لمصلحة الأجهزة الأمنية الأخرى، التي كان يحتمي بها. وفي اللحظات الأخيرة من عمر النظام، تحول موقف الجيش إلى الانحياز للانتفاضة، خاصة مع موقف قائد الجيش البري الجنرال رشيد بن عمار، الذي حاصرت دباباته قصر قرطاج، مما أجبر الرئيس المخلوع للفرار (18). إذن لعب الجيش دورا حاسما في منع سقوط مزيدا من الشهداء والجرحى. رغم أن الجيش التونسي لم يمارس أدوارا سياسية مباشرة منذ استقلال البلاد في عام 1956 خلافا لما عليه الحال في العديد من البلدان العربية.

في مصر، سلكت الأمور مسلكا مشابها إلى حد كبير، وإن اختلفت كثيرا طبيعة الجيش المصري وتكوينه وعلاقته بالسياسة، خصوصا في ظل اتصال عسكر مصر بالسلطة السياسية منذ ثورة 1952. وكان واضحا للعيان منذ اندلاع الانتفاضة، وعقب استدعاء الجيش لملء الفراغ الذي خلفه انسحاب الشرطة، أن الجيش وضع مسافة بينه وبين القيادة السياسية، وحرص على أن يتدخل في لحظة احتدام الأزمة لإقناع الرئيس مبارك بالتنحي لوقف تدهور الأوضاع. وبشكل عام، كان موقفه متوازنا طيلة الوقت، وإن مال في بعض الأحيان إلى الشارع ومطالبه.(19)

ولكن هل يمكن فهم موقف الجيش في مصر وتونس من الانتفاضة دون أخذ البعد الدولي بعين الاعتبار دون التقليل من وطنية هذه الجيوش. فمعروف أن للجيش المصري علاقات قوية مع مراكز القرار السياسي والعسكري في الولايات المتحدة خصوصا بحكم المساعدات العسكرية السنوية التي

يتلقاها من هذه الدولة. والدورات العسكرية التي يذهب لها ضباط الجيش وبالأخص كباره إلى هذا البلد. وهذه الحالة يمكن أن تنطبق على الجيش التونسي بالأخص في علاقاته مع فرنسا. لذلك من الأرجح أن موقف الجيش الحيادي أرادته الدول الغربية أيضا كي تكون يده نظيفة من قمع الانتفاضة ومن ثم يمكن أن يعول عليه كقوة منظمة للسيطرة على الأوضاع خوفا من انهيارها بالأخص في مصر وما تتمتع به من موقع إستراتيجي في مجاورتها لإسرائيل والخوف على أمنها. في حين أن هذا الحياد لم يحدث في انتفاضات اليمن وليبيا بل حدث انقسام في صفوف الجيش حيث مالت بعض الوحدات العسكرية للانتفاضة وأخرى للنظام وفي حالة سوريا لا زالت مؤشرات الانشقاق في صفوف الجيش محدودة. وإضافة إلى العوامل القبلية في حالة اليمن وليبيا والطائفية في حالة سوريا التي حكمت موقف الجيش من الانتفاضة فيمكن أن يكون غياب أو ضعف علاقة الجيش بالمؤسسات الغربية عاملا ساهم في هذا الموقف الذي آخر انتصار الانتفاضات في هذه البلدان.

استنتاجات

– يحتدم الكثير من النقاش الآن حول ما ستفرزه الانتفاضات من نتائج على صعيد التحول السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ورغم انه من المبكر جدا الخروج باستنتاجات محددة حيث أن الانتفاضات لا تزال في طور الحدث غير المكتمل. لكن من المؤكد إن البلدان العربية قد بدأت مرحلة جديدة من الحراك السياسي والاجتماعي والتغيير وسوف لا تعود إلى أوضاعها السابقة وأن قطار التغيير قد انطلق بالرغم من اختلاف سرعته من بلد إلى آخر.

– الانتفاضات في البلدان العربية عملية موضوعية تاريخية نتجت عن التراكم الكمي الذي لا بد أن ينتج عنه تحول نوعي . وهذا يؤكد بأن لا توجد شعوب تعيش خارج التاريخ وثبت بطلان مقولة "الاستثناء العربي" القائلة أن المجتمعات العربية عصية على التغيير للانتقال إلى مجتمعات مدنية ديمقراطية نتيجة عوامل موروثة دينية وتاريخية واجتماعية وثقافية. هذه المقولة التي تبنتها بعض الأوساط الفكرية الغربية وتأثرت بها بعض الأوساط العربية.

– يكون المستوى السياسي في البنية الاجتماعية أول المستويات تأثرا بفعل الثورة وقابلية للتغيير. حتى وأن تطلب التغيير فيه مدى زمنيا أبعد مما يتوقعه عادة من يصنعون الثورة. ومن المفهوم أن الجانب الاقتصادي يشهد التغيير نفسه بعد السياسي وإن بإيقاع أبطأ من الأول، لأن الديناميات الاقتصادية موضوعية جدا وحيز التدخل في قوانينها ممكن لكنه أقل بكثير مما هو في السياسة حيث مساحة الإرادة أوسع. لكن نظيرتها في المجال الاجتماعي والثقافي تأخذ زمنا أطول قد يستغرق جيلا أو جيلين قبل أن تبدأ الإفصاح عن نتائجها. (20)

– هناك حقيقة يجب التوقف عندها لتبيان أن الأسباب الحقيقية الكامنة للانتفاضات لم تكن تتمثل بوسائل الإعلام الاجتماعية حيث شهد التاريخ الإنساني الكثير من الانتفاضات والثورات رغم غياب هذه الوسائل في وقتها. نعم استخدمت هذه الوسائل للوصول إلى أوسع الجماهير

وتوسيع النقاش وسطها وتحشيدها للانتفاضة والتغلب على رقيب السلطة. ويؤكد قولي هذا أن هناك العديد من الأمثلة لناشطين استخدموا وسائل الإعلام الاجتماعية بمهارة لكن نشاطاتهم فشلت، كما جرى في بيلاروسيا في آذار(مارس) 2006. وفي انتفاضة الحركة الخضراء في إيران، خلال حزيران (يونيو) 2009. وانتفاضة أصحاب القمصان الحمر في تايلاند عام 2010.(21)

– كانت سعة المشاركة الشعبية في الانتفاضات حيث ضمت كل طبقات وشرائح المجتمع والتنظيمات السياسية والنقابية والمهنية عنصر قوة عجل بسقوط رأس النظام في تونس ومصر. لكن هذه السعة تحمل في أحشائها مخاطر الانقسام فيما يخص مسار التوجه لإعادة بناء الدولة على أسس ديمقراطية حيث الكثير من المنتفضين كان هدفه الأساس سقوط النظام دون التفكير في النظام البديل ويزيد المسألة التباسا غياب قيادة موحدة للانتفاضة تمتلك برنامجا محددا للمرحلة الانتقالية على الأقل.

– عدم رفع شعارات معادية إلى الدول الغربية وإسرائيل ينم عن فهم الجماهير بأن هذه الشعارات تستخدمها الأنظمة الاستبدادية للاستهلاك الإعلامي ولتبرير قمع أي توجه نحو التغيير دون إغفالها أن سياسة هذه الدول تحاول التكيف مع مرحلة الانتفاضات لضمان مصالحها في المرحلة اللاحقة. ومن ثم كانت شعارات المنتفضين تعطي الأولوية للوضع الداخلي الذي يشكل إعادة بنائه عاملا أساسيا لإقامة علاقات دولية تتسم بالندية والمصالح المتبادلة.

– لا يزال خطر الثورة المضادة قائما في ظل بطء التحولات وإعاقتها ولجوء المحتجين للتظاهر بين الحين والآخر للضغط من أجل الإسراع في انجاز التحولات. وتراهن فلول النظام السابق والتي لا تزال تحل مواقع قوية في مؤسسات الدولة والمجتمع على عنصر الوقت لتراجع المد الثوري ومزاج الجماهير نحو التغيير.

– ما حدث يشير إلى الإسلام السياسي، ابتعد بدرجة كبيرة عن شعاراته بشكل مباشر وإلى مسايرته للشعارات التي رفعتها القوى الوطنية والديمقراطية أملا في استثمار فرص العمل السياسي التي تتيحها له اوضاع ما بعد سقوط الانظمة أو اصلاحها.. أما بالنسبة للفكر الإسلامي المتطرف مثل تنظيم القاعدة فقد وضع في مأزق حقيقي. فرغم أعماله العنيفة المعتمدة على الإرهاب والقتل لم يستطع التأثير في سياسة أي بلد بينما تظاهرات سلمية أسقطت أنظمة قمعية بوليسية.

– سيتأثر الوضع في العراق أكثر بما تحققه الانتفاضات في البلدان العربية من نجاحات وبالأخص عندما تتحول إلى ثورات حيث تتعمق التحولات في البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ولذلك فإن مقولة "الربيع العربي" حدث بالعراق أولا ولا يمكن أن يتكرر هي مقولة مردودة على أصحابها من وجهة النظر الموضوعية والتاريخية لأن الأسباب الموضوعية للإصلاح والتغيير في العراق ناضجة وربما أكثر من بعض البلدان العربية.

– ربما لن يتكرر نموذج التغيير على

الطريقة التونسية والمصرية في البلدان العربية الأخرى على الأقل في المدى المنظور نتيجة عوامل سياسية واجتماعية اقتصادية وإقليمية ودولية تجعل لهذه البلدان خصوصيتها في التغيير.

– رغم الطابع الايجابي للعامل الإقليمي والدولي ودوره في نجاح التغيير الذي يساهم في عزلة النظام السابق لكن عندما يكون دوره عسكريا كما حدث في ليبيا فهذا يحمل مخاطر التأثير المباشر في التوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمرحلة ما بعد سقوط النظام وبناء دولة مدنية ديمقراطية مستقلة.

– هناك دول تتجه للإصلاح السياسي التدريجي مثل المغرب وإلى حد ما الأردن حيث تغيير النظام لم يطرح إلى الآن من قبل المحتجين ويمكن أن تكون الدول الغربية قد فكرت بهذا النموذج لدول الخليج العربي خوفا من التغيرات العاصفة التي يمكن أن تهدد إمدادات النفط لها من هذه المنطقة الحيوية.

2011/9/26

هوامش

1. **للمزيد راجع محمد صفار، إدارة مرحلة ما بعد الثورة.. حالة مصر، السياسة الدولية، العدد** 184، 2011، ص 19.
2. **للمزيد راجع عبد الرحيم العطري، سوسيولوجيا الحركات الاجتماعية، إضافات، العدد** 13، 2011 ص 20.
3. **نفس المصدر، ص** 18–19.
4. **محمد صفار، مصدر سابق، ص** 19.
5. **عبد الرحيم العطري، ص** 28.
6. **للمزيد راجع** www.ssrcaw.org/ar/show.art.asp?aid
7. **للمزيد راجع إيمان أحمد رجب، اتجاهات نظرية، ملحق السياسة الدولية، العدد** 184، 2011، **ص** 4–5.
8. **للمزيد راجع جاك أ. قبانجي، لماذا "فاجأتنا" انتفاضتا تونس ومصر؟ مقاربة سوسيولوجية، إضافات، العدد** 14، 2011، **ص** 18–19.
9. **ساري الحنفي، ثورتا الياسمين والميدان: قراءة سوسيولوجية، إضافات، العدد** 13، 2011، **ص** 6.
10. **للمزيد راجع العربي صديقي، تونس: ثورة المواطنة.. "ثورة بلا رأس"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،** www.dohainstitute.org
11. **ساري الحنفي، ص**6 –7.
12. **نفس المصدر، ص** 7.
13. **نفس المصدر، ص** 7.
14. **محمد عوض وآخرون، الانتقال إلى الديمقراطية في الوطن العربي، المستقبل العربي، العدد** 388، 2011، **ص** 65.
15. **صلاح سالم، مسارات وآفاق موجة التحرر العربي!، شؤون عربية، العدد** 146، 2011، **ص** 36
16. **محمد أبو مازن، الصفقة المزدوجة: التغيير في الأردن، السياسة الدولية، العدد** 184، 2011، **ص** 81.
17. **للمزيد راجع إدريس لكريني، محاسبة الديمقراطية: التداعيات المحتملة لاحتجاجات حركة** 20 **فبراير في المغرب، السياسة الدولية، العدد** 184، 2011، **ص** 91–92.
18. **للمزيد راجع بشير عبد الفتاح، الأدوار المتغيرة للجيوش في مرحلة الثورات العربية، ملحق السياسة الدولية، العدد** 184، 2011، **ص** 7–8.
19. **نفس المصدر، ص** 7–8.
20. **للمزيد راجع عبد الإله بلقزيز، السياسي والاجتماعي والثقافي في الثورة، شؤون عربية، العدد** 146، 2011، **ص** 23– 24.
21. **للمزيد راجع مقالنا المترجم "القوة السياسية لوسائل الإعلام الاجتماعية" المنشور في مواقع الانترنت.**

دراسة تاريخية

موقف الحزب الشيوعي العراقي من الجبهة الوطنية والقومية التقدمية 1968 -1973

2-1

ماجد زيدان الربيعي

المقدمة

أدركت القوى الوطنية العراقية أهمية العمل الجبهوي بينها لإعادة بناء الدولة والانتقال بها الى المشروع الديمقراطي والاستقرار السياسي والتقدم الاقتصادي والاجتماعي، ولكن على الرغم من ادعاء حزب البعث العربي الاشتراكي بسعيه لإقامة جبهة وطنية تضم الأحزاب والقوى السياسية العراقية إلا أن انقلابهم في17 تموز 1968 أشار الى خلاف ادعائهم، لذلك توجس الحزب الشيوعي العراقي من دعوة البعث لتشكيل جبهة وطنية نظرا للتجربة المرة معه في عام 1963.

ومع ذلك أبقى الحزب الشيوعي الباب مفتوحاً لتحقيق الجبهة الوطنية، والسنوات الخمس التي سبقت إعلان الجبهة غنية بالحوارات والمناقشات والمشاريع الجبهوية، مثلما هي شهدت تناحرات وتناقضات حادة وملاحقات من الأجهزة الأمنية بهدف إضعاف هذه القوى السياسية وفرض وجهات نظر محددة عليها.

ونتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحاجة لترسيخ الحكم عوامل دفعت الشيوعيين والبعثيين في النهاية للاتفاق على إقامة الجبهة.

قسم البحث الى أربعة مباحث، الأول عالج موقف الحزب الشيوعي العراقي من انقلاب البعث وحلفائه وأهداف الحزب ومطالباته ورؤيته للنظام الجديد، وفي المبحث الثاني مشروع الحزب الشيوعي وحواره وكيف سار هذا الحوار، وعرجت على موقف التيار القومي الذي تجسد في مشروع الحركة الاشتراكية والعلاقة بين الحزبين أثناء الحوار ونقاط الخلاف بينهما

والمناقشات التي دارت حولها، وفي المبحث الثالث الضغوط التي واجهت الحزب الشيوعي الداخلية والخارجية لعقد الجبهة، وفي المبحث الرابع موقفه من شروط حزب البعث بعد طرحه لمشروعه.

استندت في ذلك على مجموعة من وثائق الحزب الشيوعي التي صدرت آنذاك وصحافته وهي كلها سرية، إضافة الى مذكرات بعض قادته التي كتبت في أوقات مختلفة قسماً منها غير متوفر في المكتبات، حيث مضت عليه فترة طويلة.

المبحث الأول

موقف الحزب الشيوعي العراقي من الانقلاب

تميز حكم رئيس الجمهورية عبد الرحمن محمد عارف بالضعف والهزال، وفقدت الثقة به بعد فترة قصيرة من توليه الرئاسة، على خلاف أخيه، كان يفتقر الى الدهاء والمقدرة على اتخاذ القرار والمعرفة بالشؤون العامة والمناورة بمهارة بين المجموعات المتنافسة والمتصارعة من الضباط، ولقبته بعض الأوساط بـ "بدل ضائع " استخفافا به لوهن شخصيته. وتحولت الحكومة ألعوبة بيد العسكريين في ظل غياب المؤسسات الدستورية وعدم وجود القاعدة الجماهيرية والمؤسسية لإسناد الحكم، إضافة الى أن المدنيين عارضوا حكمه لاسيما أن النظام فشل في إقناع الأحزاب والجماعات والقوى السياسية المختلفة للمشاركة في حكومة ائتلافية من خلال جبهة وطنية (1).

وشعر الضباط المتنافسون أن بإمكانهم التلاعب به (2)، فكان الانقلاب العسكري الذي قاده حزب البعث ضد الرئيس عارف في السابع عشر من تموز 1968 انعكاسا لهشاشة وسوء الأوضاع السياسية والاقتصاد ية وعدم الاستقرار وهدر الموارد البشرية .. الخ من العوامل التي أدت الى تدافع القوى والمنظمات السياسية على العمل للاستيلاء على السلطة. ومع ذلك، ما كان لانقلاب حزب البعث أن يتم من دون التحالف مع شخصيات سياسية وعسكرية وصفت ودمغت بارتباطاتها المشبوهة (3).. ويرى بهاء الدين نوري في مذكراته أن الانقلاب طبخ عندما زار المبعوث الامريكُي) روانتري (العراق عام 1968 أكثر من مرة والتقى مع احمد حسن البكر دون أن تكون له صفة رسميةٌ أو مبرر منطقي لهذه اللقاءات.

نظم البعثيون مظاهرة عشية الانقلاب خطب فيها احمد حسن البكر الأمين العام لحزب البعث في العراق ، كان الهدف منها إفهام المخابرات الأميركية بان له نفوذا وشعبية ، وانه مؤهل لان يتولى الحكم. وايا كانت النوايا والارتباطات ، فان الحقيقة التي استخلصتها القوى السياسية وأدركتها من واقع التحالفات وتجاربها التاريخية أن ا ية حركة سياسية في العراق لايمكن لها أن تنجح إذا بقيت منعزلة عن غيرها. وان كل تجمع بين القوى السياسية قام على أساس رفض التبعية للأجنبي. . عاد بالنفع على كل هذه القوى ، ولقي تجاوبا تلقائيا بين أبناء الشعب العراقي (4)..

رغم إدراك الحزب الشيوعي وقناعته بأن الانقلابات العسكرية تتم بمعزل عن إرادة الشعب ولا تؤمن مصالحه ولا تلبي إلا مصالح العسكريين وتبقى السلطة بيدهم،

ولا يبنون مؤسسات الدولة الدستورية الديمقراطية، وهي ليست خارج الدسائس الاستعمارية. ولكن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي تعاملت بحكمة "وتجنبت مهاجمة الانقلاب" أو " الإعلان عن تأييده " (5).. ودعت الى عقد اجتماع حزب طارئ لدراسة الوضع السياسي الجديد في ظل حكومة حزب البعث التي أعلن بيانها في 30 تموز1968 مكافحة الاستعمار والتمسك بالتضامن العربي، وان الانقلاب جاء رداً على نكسة الخامس من حزيران 1967، وأكد عزم الحكومة على حل القضية الكردية سلميا والاستجابة لمطالب الأكراد القومية وطي صفحات الماضي السلبية (6)..

ودعا البيان كافة القوى التقدمية الى أن تسهم مساهمة جدية في حماية الثورة والحفاظ على نهجها التقدمي من خلال المشاركة الفعلية في تحمل أعباء المسؤولية وتؤكد الثورة على تحقيق أوسع مشاركة جماهيرية في دفع الثورة الى الأمام (7)..

كان البعث يخشى الإعلان عن انه يقود الانقلاب وذلك لإرتكاباته الدموية في الانقلاب الأول في الثامن من شباط عام 1963 وما تركه من مآس و لانعدام الحريات العامة حسب صلاح عمر العلي(8).، فحاول تحسين صورته في البيان الأول المشار إليه، وتطور خطابه السياسي وغلف بمناهضة الامبريالية، والصهيونية ودعوة القوى السياسية للمشاركة في الحكم.

على أية حال التأمت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في اجتماع لها في التاسع والعشرين من تموز 1968 لتحديد موقف الحزب الشيوعي من حكومة الانقلاب واتخاذ الموقف المناسب. وبالاستناد الى البيان الصادر عن الاجتماع قيّم حزب البعث بأنه" حزبٌ قومي برجوازي حكم معادي للاستعمار والإقطاع"، ولكنه وصفه من جانب آخر مثّل " حكماً دكتاتوريا مناوئاً للديمقراطية السياسية أي حق الشعب في انتخاب حكامه وممثليه على جميع الدرجات بحرية تامة " (9)..

وطالبت اللجنة المركزية في بيان لها صدر عن الاجتماع ذاته حددت فيه الأهداف التي بلورها الشعب في نضاله حسب عبارات البيان هي:

1- المطالبة بحل مشكلة الديمقراطية والنظام الديمقراطي وإزالة آثار الإرهاب عن الجماهير والأحزاب الوطنية ومصادرة الحريات وإنهاء الفترة الاستثنائية ونقل البلاد الى الحياة الدستورية الديمقراطية ، وإيداع السلطة الى برلمان شعبي منتخب.

2- حل المسألة الكردية حلاً ديمقراطيا والإقرار بحقوق الشعب الكردي في الحكم الذاتي.

3- رعاية مصالح الجماهير المعيشية والاقتصادية.

4- انتزاع حقوق العراق التي اغتصبتها احتكارات النفط الاجنبية.

5- كشف أوكار وشبكات التجسس والقضاء عليها وفضح المتسترين على نشاطها وتطهير جهاز الدولة من العناصر المشبوهة والفاسدة .

6- وبحسب البيان دعا الى تعزيز النضال ضد الامبريالية وضد الصهيونية والتعاون مع البلدان الاشتراكية (10).

تلك هي المهام التي طرحها الحزب الشيوعي

أمـام حكـومـة البعث وأمـام النضـال الجماهيري وجميع القوى الوطنية التي دعاها الى عقد جبهة موحدة لتحقيق هذه المهام.

المبحث الثاني
مشروع الحزب الشيوعي للجبهة والحوار مع البعث

أدرك حـزب البعث منـذ الأيـام الأولـى لاستيلائه على السلطة ضعف الدعم الشعبي الذي يحظى بـه، وتجسد بـالاستقبال البارد للبيان رقم واحد لحكومة الانقلاب (11).، وموقف القوى والأحزاب التقدمية والقومية السلبي منه، فقد رفض الشيوعيون التعامل معه، حينما عرض عليهم التعاون والمشاركة في الانقلاب (12)..

كما انه فاتح القوى القوميةُ المنافسة ولكنه لم يكن جديا لتبعثرها (13). كان بحاجة الى الوقت لتثبيت سلطته. ونصحت هذه القوى بعضها البعض بعدم التعاون مع النظام الجد يد، انطلاقاً من عدم ثقتهم بالبعث وقادته، غير أنهم نصحوا بعدم الصدام معهم بسبب طُبيعتهم الشرسة وعدائهم للشيوعيين.

وضع الحزب الشيوعي منطلقاته النظرية عن الجبهة الوطنية عمليا وطرح مشروع الجبهة الوطنية في أيلول 1968 على الأحزاب والمنظمات السياسية والعديد من الشخصيات الوطنية، وأكد على شعار الحكم الوطني الديمقراطيي الائتلافي بوصفه الطريق المضمون لتحقيق أهداف الحركة الوطنية العراقية. وأشارت وثيقة تقييم تجربة الحزب الشيوعي للسنوات (14) 1979 – 1968. الى انه جرى تقديم مذكرة الى رئيس الجمهورية احمد حسن البكر تضمنت مطالب الحزب لقيام الجبهة وقع عليها فضلاً عن الحزب الشيوعي العراقي، الوطني الديمقراطيي، والحركة الاشتراكية العربية، والديمقراطيون المستقلون.(15).

وقد أعلنت الحركة الاشتراكيةُ العربيةُ مشروعها تحت عنوان مسودة برنامج الجبهة الوطنية الذي اقترحته ايضاً على الأحزاب والشخصيات الوطنية (16). لا يختلف عن مشروع الحزب الشيوعي إلا ببعض الصياغات اللغو ية ليس إلا، هناك تطابق بين المشروعين.

وعلى مايبدو قرر حزب البعث اختيار الشيوعيين دون غيرهم للتحالف معه، مستغلاً الانشقاق الذي حدث في صفوفهم، ولم يتودد الى شيوعي القيادة المركزية(17). الذين انتقدوا حكومة البعث على استيزار عدد قليل من اليسار في آب 1968، ففي بيان لهم أعلنوا فيه يومها أن "مجرد اشتراك قوة تقدمية، أو حتى عدد من هذه القوى في حكومة يسيطُر عليها مجلس قيادة الثورة .. لن يغير شيئا من طبيعة النظام" (18).

استمرت اللقاءات بين الحزبين الشيوعي والبعث متقطعة، صاحبها قمع متواصل ومطاردة لبعض الكوادر، ولكن البعث بين الحين والآخر كان يعطي فسحة من الأمل لعقد الجبهة وبيان حسن النية. فقد أصدر مجلس قيادة الثورة قراراً في الخامس من أيلول عام 1968 بالإفراج عن المعتقلين كافة (19). وأعاد جميع ا لمفصولين لأسباب سياسية في الشهر ذاته ولكن لم يقُدم أية

تنازلات أخرى بصدد الحريات العامة (20).
وقد رحبت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في افتتاحية لـ "طريق الشعب" الجريدة الحزب المركزية السرية بخطوة البعث، وأيضا دعت "الى إعلان العفو العام الشامل والفوري"، وذكرت الافتتاحية بوضوح "أن تعويل حزب البعث على تحالفه مع غلاة العسكريين المهيمين على القوات الضاربة في الجيش ، وعلى توزيع المراكز الحساسة في الأجهزة الإدارية والأمنية على أعضائه وأعوانه، لن يغير من طبيعة الحكم الدكتاتورية مهما ردد من كلمات الثورة والاشتراكية والديمقراطية الشعبية (21)..

وتركت اللجنة المركزية الباب مفتوحاً لحزب البعث، رغم أن تيارا وصراعا في داخلها بشأن الموقف من البعث كان يرفض التعاون لعدم صواب الاطمئنان الى وعوده و يتشدد في مواجهة السياسة المرنة التي قوامها دعم خطوات الحكم التقدمية، ودفعه لاتخاذ إصلاحات جذرية وسياسية تقدمية معادية للاستعمار والرجعية العربية ، على حد تعبير زكي خيري(22).. وبرّر المؤيدون لهذه السياسة بتأكيدهم على أهمية إعادة بناء المنظمات الشيوعية وترميمها،بعد الضربات التي تلقتها من الأجهزة الأمنية.

وحاول الشيوعيون الضغط على الحكومة واثبات ثقلهم السياسي بتحريك النقابات العمالية وتحدي السلطة، فقد قاموا في شركة الزيوت النباتية في بغداد بتنفيذ إضراب شامل في الخامس من تشرين الأول 1968 (23)..

واستنادا الى بيان الحزب الشيوعي– القيادة المركزية في الحادي عشر من تشرين الثاني1968 أدان واتهم فيه أعضاء في حزب البعث بفتح النار على المضربين وجرح ومقتل بعضهم، كما أن ثلاثة شيوعيين آخرين قتلوا خلال مهاجمة احتفال في ساحة السباع ببغداد بمناسبة الذكرى الحادية والخمسين للثورة البلشفية الروسية (24)..

ومن جانبها أدانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي تدخل حزب البعث في انتخابات عمال الزيوت وممارسات الأجهزة الأمنية وقالت "فقد مسخت الانتخابات النقابية مسخاً لم يسبق له مثيل في جميع الفترات الدكتاتورية السابقة ".

ازاء هذا الاحتكاك احتاج البعث الكثير من التبرير ليتُنصل ويتبرأ من قتل الشيوعيين وكتبت جريدة الثورة الناطقة بلسان حزب البعث "أن الأحداث مؤامرة موجهة ضد حزب البعث قبل الآخرين، تهدف الى نسف كل ما تم انجازه على طريقٌ الإعداد لجبهة وطنية " (25)..

حاول البعث تبديد مخاوف الشيوعيين وقلقهم من الحملات الأمنية المستمرة عليهم، فقد أكد احمد حسن البكر رئيس الجمهورية في العشرين من تموز1970 في مؤتمر صحفي نظرة حزبه للجبهة "أنها هدف استراتيجي ثبته المؤتمر القومي التاسع لحزب البعث العربي الاشتراكي قبل قيام الثورة عام 1968(26). ولكن الخلاف كان عميقاً وفي الأساس عقائديا وفكريا في "شان قضايا كثيرة منها الديمقراطية وقضية الوحدة العربية ضمن وجهة نظر الشيوعيين أن الوحدة لا يمُكن أن تتم بعمليةٌ واحدة مثلما أكد عليهًا حزب البعث (27). لذلك فإن

الجبهة المقترحة تدعو الى إقامة تحالف وطيد بين القوى الوطنية في كل بلد عربي، والى تعزيز تضامن هذه القوى وسائر" الأنظمة في العالم العربي وخلاف آخر بصدد القضية الفلسطينية و"الكيان الصهيوني ".

عد الحزب الشيوعي العراقي القضية الفلسطينية مهمة تنهض بها الشعوب العربية، وان المعركة مع إسرائيل هي في الجوهر معركة بين الامبريالية وبين حركة التحرر القومي، لذلك فإن الهدف من الجبهة الوطنية هو عدم تجزئة المعركة أو حصرها في نطاق محدود (28)..

ولقي مشروع الحزب الشيوعي للجبهة صدى واسعاً بين الجماهير، وعدته بعض القوى السياسية صالحاً لكي يكُون أساسا للحوار (29). وتوافق المشروع مع طروحات الحركة الاشتراكية العربية عن الجبهة الذي اشرنا الى نشره في "الثقافة الجديدة ". واستناداً الى ما أفاد به عضو قيادة الحركة الاشتراكية العربية عبد الإله النصراوي الى الباحث عن مدى قناعة الحركة بقيادة جبهة وطنية بالاشتراك مع حزب البعث بوصفه حزباً حاكما(30)، فقد ذكر النصراوي انه بعد شهر من انقلاب السابع عشر1968 اعتقل واحتجز في سجن رقم واحد لمدة عام من دون التحقيق معه، وبعد إطلاق سراحه عرض عليه سمير عزيز النجم عضو القيادة القطرية لحزب البعث ترتيب مقابلة له مع صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، وحسب قول النصراوي، عندما التقى صدام قام الأخير بالاعتذار له عن سجنه، ثم جرى حديث مطول بينهما على مسألة التعاون بين الحركة والبعث وتكو ين جبهة وطنية .

وأبدى النصراوي استعداد الحركة للانضمام الى الجبهة على وفق أسس مسبقة أهمها: على البعث استبعاد فكرة الاستئثار بالحكم واستعداده لمشاركة الآخرين معه في السلطة، واتخاذ إجراءات للحل السلمي للمسألة الكردية وإعطاء الأكراد حقوقهم في الحكم الذاتي من خلال الحوار، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين من جميع الاتجاهات السياسية، ولم يوضح النصراوي مدى استجابة صدام لهذه الأسس(31).

وأعطى اعتراف الحكومة العراقية الكامل بجمهورية المانية الشرقية في 30 نيسان 1969 وتوقيع اتفاقية كبريت مع بولندا في الأول من ايار ومعاهدة التعاون بين العراق والاتحاد السوفياتي في 20 حزيران 1969 وفتح سفارة للعراق في هافانا عاصمة كوبا، دفعاً للحوار بين الحزبين، وعزز حزب البعث مواقفه وصبغ حكومته بالصبغة الاشتراكية، كما اعترف بالحكومة الثورية في فيتنام الجنوبية ومساندة شعبها.(32)

ومن جانب آخر، قرن الانفتاح الاقتصادي والدبلوماسي بانفتاح ثقافي بالاعتراف بشهادة الكانديدات التي حصل عليها اغلب الشيوعيين الدارسين في الخارج من جامعات الاتحاد السوفياتي، وتحد يد رواتب الحاصلين عليها، وأيضاً سمح بإصدار مجلة الثقافة الجديدة، ومن ثم صحيفة طريق الشعب علناً (33).

لم تلبِ هذه الإجراءات وغيرها طموحات الشيوعيين كاملة ولكنهم ابدوا ارتياحهم

بالمنجزات البعثية على مدى عامين 1968–1970 ولكنهم من جانب آخر استمروا في انتقاداتهم لسياسة البعث الداخلية، إذ اتخذ المؤتمر الثاني في آب– أيلول 1970 سياسة إزاء حكومة البعث على أساس المعارضة "لنهج الحكومة المعادي للديمقراطية وللشيوعية ولاضطهادها لأحزاب المعارضة أيا كانت، ولانتهاكها حقوق الإنسان وكرامته، ولمظاهر الشوفينية والتعصب القومي والطائفي "(34).

وفي الوقت نفسه، أكد المؤتمر على "أننا سنؤيد وندعم أي إجراء تقدمي أو أي موقف ضد الاستعمار والإقطاع والرجعية ثقافة السلطة"(35) حسب ما جاء في وثيقة التقييم لسياسة الحزب.

ارتفعت حدة انتقادات الشيوعيين بعد إعلان بيان الحادي عشر من آذار 1970، عندما شعر أن حزب البعث عمد في هذا البيان إلى تقسيم الأدوار بين الحزبين الرئيسيين للعرب والأكراد، وتجاهل دور الشيوعيين ونضالهم من اجل إقرار الحكم الذاتي لكردستان والديمقراطية للعرب، وإنما أرادا عزله عنها.(36) وأيضاً ساهم في زيادة النقد تفريق الأجهزة الأمنية التابعة لحزب البعث بالقوة لتظاهرة أقيمت في ساحة الميدان ببغداد بمناسبة عيد نوروز في 21 /آذار 1970، وفي ليلتها عثر بالقرب من مدينة بلد على جثة محمد احمد الخضري الكادر المتقدم في الحزب مقتولاً والذي اختطف من احد شوارع بغداد، حينما كان متوجهاً لحفل أقامه حزب البعث في حدائق صدر القناة، ورافق ذلك هجمة واسعة النطاق لاعتقال عدة مئات من الشيوعيين في أنحاء العراق(37).

كما شنت صحيفة (الثورة) الناطقة بلسان حزب البعث على مدى يومين متتالين في (12و13) آذار1970 حملة على الحزب الشيوعي، وعدت تأييده لاتفاقية آذار تأييدا ظاهريا، وعلى حد تعبير الصحيفة، بأن الحزب الشيوعي" تطير من النتائج التي تمحورت بعد الاتفاق، حيث كانت قيادة الحزب الشيوعي قد وضعت في حساباتها أن دعوتها للحل السلمي للقضية الكردية سيتيح لها مجالاً أوسع للتحرك في المنطقة الشمالية ". (38)

وأعلن صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في تجمع لقواعد حزب البعث في ساحة الكشافة في 12 /ايار 1970 قائلاً "هذه الثورة وجدت لتبقى ، وجدت لكي يكُون حزب البعث العربي الاشتراكي قائداً لها" (39).

واحتج كريم احمد الداود (40)، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي، علناً على الإجراءات المتخذة ضد الشيوعيين، ودعا الى تشكيل جبهة متكافئة للقوى الوطنية على أساس مبدأ المساواة والتكافؤ، ووجد هذا الاحتجاج صداه عند الرأي العام، حيث وزع نص كامل له على نطاق واسع في بغداد ومدن أخرى .(41) وقد هاجمت جريدة "الثورة" الاحتجاج ووصفت دعوته لجبهة متكافئة الإطراف بأنه "يقُدم شيئاً فريداً في لا واقعيته" واعتبرت التكافؤ يشترط "وجود اطراف متساوية في مسؤوليتها، ومشتركة في مهامها ومتضامنة في حفاظها على نتائج أعمالها".

ولكي يكون الطرف الذي ير يد التكافؤ

متكافئاً فعلا"، أن يكُون مشتركاً في الثورة ضد هذا الحكم مهما كانت النتيجةُ ربحاً أو خسارة"، وأيضاً "أن يكُون ممتلئاً بالعرفان للثورة التي حررت أعضاءه" (42).

● ملاحظة من هيئة التحرير: نظرا لطول المقال فقد تم نشر الجزء الأول منه في هذا العدد وسينشر الجزء الثاني والأخير في العدد القادم.

الهوامش

1- للتفصيل انظر : علي حمزة سلمان الحسناوي ، النظام السياسي في العراق 1958 ، 1968 دراسة تاريخية أطروحة دكتوراه غير منشور، كلية الآداب جامعة الكوفة، 1998، ص 222 – 257. عمار خالد رمضان الربيعي الصراع على السلطة في العراق الجمهوري 1964 – 1968، دراسة تاريخية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كليةالاداب، جامعة البصرة، 2002، ص– 218–275 د . عبد الوهاب حميد رشيد، العراق المعاصر، دار المدى للثقافة والنشر دمشق،2002، ص16

2- فيبي مار، تاريخ العراق المعاصر ، العهد الجمهوري الأول ، ترجمة مصطفى نعمان احمد، مكتبة مصر ودار المرتضى، بغداد، ص. 72

3- حامت الشكوك حول ارتباط معاون مدير الاستخبارات العسكرية المقدم الركن عبد الرزاق النايف، وآمر الحرس الجمهوري المقدم إبراهيم عبد الرحمن الداود بجهات غربية، فقال عضو قيادة الحركة الاشتراكية العربية عبد الإله النصراوي أن المكتب السياسي للحركة الاشتراكية بأغلبية أعضائه قرر عدم التحالف مع حزب البعث والاشتراك في انقلاب 17 تموز لارتباطات النايف المشبوهة على حد توصيفه ، مقابلة أجريتها مع عبد الإله النصراوي بالبريد الالكتروني. ينظر على التوالي: محمد جمال باروت، حركة القوميين العرب ، النشأة– التطور – المصائر ،المركز العربي للدراسات الإستراتيجية، دمشق، 1997 ص 486 وثائق المؤتمر الوطني الثاني للحزب الشيوعي، بهاء الدين نوري ، مذكرات ،دار الحكمة ، لندن ، ص 319. فضلا عن ذلك، أكد فيما بعد عضو القيادة القطرية لحزب البعث ومن المشاركين في انقلاب البعث الثاني1968 صلاح عمر العلي قوله " كنا في الحقيقة نخشاه ، وكنا نتوجس خيفة من عنده ، "وكنا نشك في علاقاته الخارجية " برنامج شاهد على العصر ، مقابلة مع صلاح عمر العلي بتاريخ 8 حزيران2003 الحلقة الرابعة www.aljazeera.net

4-على مدى تاريخ العراق السياسي المعاصر شكلت الأحزاب التنظيمات السياسية فيه جبهات وطنية عدة. للتفصيل انظر عبد الرزاق الحسن، الجبهة الوطنية في العراق، جذورها التاريخية في العراق وتطورها، ط 2، مركز الأبجدية للصف التصويري، بيروت، 1980.

5- للتفصيل انظر: تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي ، أوائل أيلول. 1968

6-عانى الحزب الشيوعي من البطش والتنكيل في انقلاب البعث والقوى القومية في 8 شباط 1963 ما لم يشهده أي حزب في تاريخ العراق ،انظر : علي كريم سعيد 1، العراق ، البيرية المسلحة ، حركة حسن سريع، ط 1، الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، 2002، ص 26– – 108تموز 1968.

7- للتفصيل انظر: جريدة الثورة العدد194 ،30 تموز ، 1968

8- ولد في مدينة تكريت عام 1933 أو1937 ، انتمى الى حزب البعث العربي الاشتراكي ، تولى وزارات عدة منها وزارة الإعلام، انشق عن حزب البعث ، وانضم الى المعارضة وأسس حركة الوفاق الوطني في لندن، برنامج شاهد على العصر، الحلقة 4 فـ8 حزيران. 2003

9-انظر وثائق المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي العراقي.

10- الحزب الشيوعي العراقي بيان اللجنة المركزية حول الوضع السياسي الراهن في البلاد ، 29 تموز 1968.
11- في هذا الشأن ينظر ما أدلى به صلاح عمر العلي في برنامج: شاهد على العصر، الحلقة الرابعة المصدر السابق.
12- انظر الدكتور رحيم عجينة، الاختيار المتجدد ، ط 1 ، دار الكنوز الأدبية 1998 بيروت ،ص 93.
13-تشرذمت حركة القوميين العرب في العراق على الأقل الى تسع منظمات قومية متصارعة ومنافسة للبعث، ومثلت "الحركة الاشتراكية العربية" بجناحيها المتصارعين: الماركسي – اللينيني الذي يمثل يسار حركة القوميين العرب بقيادة عبد الإله النصراوي ، والناصري اليساري بقيادة خير الدين حسيب، اكبر هذه المنظمات وأهمها، فضلاً عن ذلك، مؤتمر القوميين الاشتراكيين، وحزب الكادحين العرب وحزب العمال الثوريين والحزب العربي الاشتراكي وغيرها. للتفصيل انظر: محمد جمال باروت، المصدر السابق، حنا بطاطو، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، الجزء الثالث ، الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار، ترجمة عفيف الرزاز، ط 2، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1995، هامش (36) ص 413.
14- عقد الحزب الشيوعي العراقي مؤتمره الوطني الرابع سراً في شمال العراق تحت شعار "من اجل إنهاء الحرب فوراً وإسقاط الدكتاتورية الفاشية، وتحقيق البديل الديمقراطي ".واستمر المؤتمر خلال الفترة 10–15 تشرين الثاني 1985،واقر وثيقة تقييم تجربة الحزب للسنوات1968– 1979. ونشرت الوثيقة مجلة "الثقافة الجديدة"، العدد 172 نيسان 1986 ص 100– 166تجدر الإشارة هنا أن مجلة الثقافة الجديدة يومئذ تطبع في دمشق، وتوزع على الشيوعيين وغيرهم في سوريا، وكذلك ترسل أعداد منها الى كردستان العراق ودول أوربا، حيث يقيم العراقيون هناك.
15- للتفصيل عن النص الكامل لمشروع ميثاق الجبهة الوطنية ينظر "الثقافة الجديدة "، بغداد ، العدد3 ، حزيران 1969 ، ص199–223. أجازت حكومة البعث ظهور مجلة الثقافة الجديدة علانية بوصفها مجلة تهتم بنشر ثقافة تيار اليسار الماركسي والفكر الشيوعي، وصدر منها العدد الأول بشكله العلني والرسمي في نيسان1969، ومن ثم أجيزت صحيفة الحزب الشيوعي العراقي "طريق الشعب".
16- نص مشروع الحركة الاشتراكية العربية ينظر: "الثقافة الجديدة"، العدد 8 ، تشرين الثاني1969 ، مطبعة الجاحظ بغداد.
17- استناداً الى بعض أدبيات الحزب الشيوعي العراقي ذكرت بان بلبلة فكرية تفشت في صفوف الحزب لأسباب ذاتيه تنبعث من ظروف الحزب الخاصة ، وعمقتها السياسة الخاطئة التي سار عليها والأخرى موضوعية كانت تعاني منها الحركة الشيوعية العالمية، انعكست آثارها على الحزب الشيوعي العراقي واعتباراً من17 أيلول1967 انشقت قيادة الحزب الى قيادتين الأولى القيادة المركزية بقيادة عزيز الحاج والثانية اللجنة المركز أي بقيادة سكرتيرها عزيز محمد. للتفصيل انظر: عزيز سباهي ، عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي ، ج 2 ، ط 3 ، دار الرواد المزدهرة والتوزيع المحدودة، بغداد2005 ، ص 58–78.
18- بيان الحزب الشيوعي -القيادة المركزية في آب1968 ، مقتبس في: حنا بطاطو ، المصدر. السابق ص 413
19- ينظر نص القرارين في "الوقائع العراقية "العدد 1633، 5تشرين الثاني 1968.
20–حنا بطاطو -المصدر السابق ، ص 414.
21- مقتبس في :عزيز سباهي ، المصدر السابق ، ص 92–93
22-ينظر: زكي خيري وسعاد خيري، دراسات في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، المجلد الأول، إصدار اليوبيل الذهبي، ط 1، ب.م ، 1984 ، ص .54
23– للتفاصيل عن الإضراب ينظر: عبد جاسم الساعدي ، الحركة الوطنية في العراق وإضراب عمال الزيوت ، بغداد ، 2008. و يتهم عضو مجلس قيادة الثورة ، وعضو القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي صلاح عمر العلي بأنه قاد القوات الأمنية للهجوم على المضربين .
24-"طر يق الشعب" ، جريدة الحزب الشيوعي العراقي السرية ، العدد 5 ، كانون الأول ، 1968
25- مقتبس من عبد جاسم الساعدي ، المصدر السابق ، ص 97 .
26- مقتبس من سمير عبد الكريم، أضواء على الحركة الشيوعية في العراق ج5، ط 1، دار المرصاد، بيروت، ص 145. و يشُار الى أن سمير عبد الكريم ما هو إلا اسمٌ وهمي لشخصية مختلفة ادعاها احد الباحثين المتخصصين العاملين في أجهزة المخابرات الأمنية العراقية .
27- على سبيل المثال ينظر: كراس "خطب وتصريحات صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة".منشورات دار الحريةٌ للطباعة، بغداد، 1972، حزب البعث العربي الاشتراكي، لكي يصان السلام. وتتعزز الوحدة الوطنية، منشورات "الثورة "، ط 1، بغداد،1973، الجمهورية (جريدة)، بغداد العدد 199، 31 تموز 1968.
28-ينظر: الثقافة الجديدة، العدد 3، حزيران 1969، ص 208.
29- ينظر: زكي خيري وسعاد خيري، المصدر السابق، ص 505.
30- رسالة من الباحث عبر البريد الالكتروني بتاريخ 10 تشرين الأول2009 الى السيد عبد الإله النصراوي.
31- أجوبة السيد عبد الإله النصراوي مثلما وردت الى الباحث عبر البريد الالكتروني بتاريخ 21 تشرين الثاني . 2009

32- ينظر "الوقائع العراقيةً" العدد3 –1224 كانون الثاني 1970، قرار رقم757 في 24 كانون الأول.
33- حنا بطاطو، المصدر السابق ، ص 416 .
34- وثائق المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي العراقي، المصدر السابق.
35- للتفصيل ا نظر نص الوثيقة في: ""الثقافة الجديدة " العدد 172، نيسان 1986.
36- عزيز سباهي ، المصدر السابق ، ص 104.
37- زكي خيري وسعاد خيري ، المصدر السابق ، ص 508 ، حنا بطاطو ، المصدر السابق ، ص 417
38- جريدة الثورة12 آذار 1970، العدد 478.
39- جريدة الثورة 13 آذار 1970، العدد 510
40- كردي ولد في ابريل عام 1922، معلم مدرسة ابتدائية انتمى للحزب أوائل عام 1944، أصبح سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في نيسان 1935 ولغاية حزيران 1954، ثم أصبح سكرتيرا للحزب الشيوعي الكردستاني عام 2006 (كتاب المسيرة مذكرات كريم احمد، ابريل).
41-حنا بطاطو ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 417 .
42- جريدة " الثورة " العدد 565 /10 تموز 1970، 6 تموز. 1970

نحو منهجية للحفاظ على المواقع الأثرية في محيط بغداد وتنميتها

د. موفق جواد الطائي / معمار وأكاديمي

يعد محيط المركز التأريخي لمدينة بغداد من أكثر المواقع التأريخية والتراثية أهمية في العالم ولقد جادت قرائح الشعراء والتأريخيين بأفكارهم عنه في السابق ثم جاء بعدها الكثير من اكتشافات ونظريات جديدة عن بغداد. إذن لابد لنا من وضع منهجية جديدة ودراسات حديثة على ضوء ما أستجد من مكتشفات جديدة وحرية فكرية جريئة يمكن عرضها في عراقنا الجديد دون التعرض للمسألة والسجن. إن هذه المواقع هي وثيقة الحسم وشواهد الباحثين الثبوتية التي يستوجب الحفاظ عليها وربطها بالتصاميم التنموية لبغداد لأجل ديمومتها .

نستعرض هنا وضع منهجية للحفاظ على المواقع التأريخية والتراثية مع توضيح ربطها ببدائل (سيناريوهات) خطط التنمية المستدامة التي تروم إليها أمانة بغداد في تصميمها الإنمائي الشامل. أضحى من الضروري شرح تأريخ وواقع حال وأهمية موقع بغداد منذ بدء حضارات وادي الرافدين التي أدركت في السابق الأهمية الجغرافية لموقع مدينة بغداد.

لابد لنا أن نلاحظ مدى تأثير جغرافية المنطقة التنموية على تأريخ المنطقة فعواصم معظم الحضارات العراقية القديمة تقع في محيط بغداد الحالية، سبار وأكد (تل الدير) ومنها كانت الحضارة الأكدية (حاليا بين اليوسفية وبغداد) اتخذها سرجون السامي (2316- 2371 ق.م) عاصمة لإمبراطوريته، (تل أسمر)عاصمة مملكة أشنونا شرق بغداد وهي من أهم دويلات المدن في عصر فجر السلالات (3000–2370ق.م). وضمن هذه الدولة كان (تل حرمل) الذي وجد فيه أقدم قوانين البشرية وهي أقدم بقرنين من شريعة حمورابي كما عثر على ألواح نقشت عليها جداول رياضية والتي أقتبس منها فيثاغورس

نظريته المعروفة كذلك وجد في منطقة قريبة (خيوط ربوعة) أقدم بطارية كهربائية وكانت إقليما متميزا.

أما سلوقية (تل عمر) فقد أسسها سلوقس الأول (321 ق.م) عاصمة لإمبراطوريته في اليوسفية مقابل المدائن العاصمة الساسانية التي تشكل مجموعة من المواقع الأثرية المتيزة لفترة زمنية مهمة، وعقرقوف (دير كوريكالوز) بناها الملك كوريكالوز الثاني(345 -324) وأتخذها عاصمة لملكته وهي في غرب بغداد. تعتمد جميع هذه المدن في إروائها على السد البابلي الذي يرقى تاريخه الى الفترة السومرية وأعاد بنائه نبوخذ نصر(-605 562) وهو في مركز الكرخ قرب جسر باب المعظم الحالي وقد كان سببا في تنشيط وإدامة قرية (بغداد) التأريخية التي كانت النواة التي أنشأت بغداد الحديثة والذي يرقى وجودها الى زمن حمورابي(1750– 1792 ق م) حيث وجد لوح مدون علية اسم بغداد (بكدادي) والتي تعني معسكر البعل.فأهمية بغداد لم تكن بسبب النمو الحضري الشعاعي من مدينة المنصور، إنما النمو القطبي من مراكز التنمية بين هذه الحضارات التي نشئت بسبب النظم الإروائية.

فمنهجية تأريخ بغداد تعتمد على هيدرولجية ومسار نهري دجلة والفرات حيث يقتربان لأقرب نقطة لهما في المنطقة المحيطة ببغداد ويعمل السد البابلي في منطقة (خضر الياس) في الكرخ بمثابة صنبور الماء الذي يمكن توجيهه حسب الحاجة الى أي مكان في محيط بغداد. فكان بذلك أداة التنمية الأساسية التي أدت لنشأة الحضارات القديمة حيث توفر في هذه المنطقة جميع شروط نشأة الحضارات واستمراريتها ولاحقاً الديانات السماوية. وهذا ما حدا بـ (وليم ولكوكس) الباحث التأريخي والمهندس الانكليزي الذي عهد له دراسة نهري دجلة والفرات بالاعتقاد أن الجنة المقصودة في الكتب السماوية هي بين الفلوجة وبغداد شمالا والمحمودية والمدائن جنوبا.

لقد كان قل مجيء الإسلام نمو اقتصادي كبير في منطقة دير الزندرود (ساحة الخلاني الحالية) حيث يوجد نهر الزندرود والذي يعني نهر شديد الجريان. فهناك المئات من الطواحين التي تعمل على النهر ذات الجريان السريع مما أدى الى تنمية بيئية تجارية اقتصادية عالية أوجدت بؤرة استيطان مهمة. وكذلك في (الكرخ) قرية بغداد، وهنا نشأ قطبا التطوير، دير الزندرود وقرية بغداد الملاصقة للسد البابلي وقرب دير الجاثليق. لذلك أصبح من الطبيعي أن يكون الطريق الموصل بينهما العمود الفقري للنشاط التجاري والذي سمي بسوق الثلاثاء (وهو مقارب لمسار شارع الرشيد الحالي ثم الشورجة وحتى الصدرية) والذي كان سوقا يعقد للتجار من جميع أنحاء العالم وخصوصا من الصين في الثلاثاء الأولى من كل شهر إكمالا لطريق الحرير ولاحقا طريق التوابل. لذلك فنمو موقع بغداد اعتمد ما يسمى الآن بالنمو القطبي وليس كما هو شائع بما يسمى التطور الشعاعي. وقد حملت بغداد المنصور أكثر من أهميتها من الناحية

التخطيطية رغم أهميتها المعمارية التي لا يمكن إنكارها.

ولقد أدرك الأمام علي ابن أبي طالب أهمية الاتصال الحقيقي والفعال حين عسكر جيشه المتوجة الى معركة النهروان في موقع العطيفية الحالي وذلك حينما شاهد السد شبه منهار فألزم جنوده بصيانته ووضع جسور خشبية لتؤمن عبور الجيوش، وكان هذا أول وثيقة مدونة حول وجود وأهمية هذا السد البابلي. ونتيجة هذا الترميم والصيانة أصبح الطريق سالكا للتجارة الى كلواذا، الكرادة الشرقية حاليا ومن ثم الى المدائن والبصرة. وهنا التقى طريق الحرير بطريق التوابل من الخليج العربي والهند. وبعد إصلاح السد أصبح من الممكن اتصال بغداد بأنطاكيا ثم أوربا.

لقد ولد هذا السفر التأريخي الكبير مجمعات تاريخية يضاف لها المواقع التاريخية الإسلامية والعباسية والعثمانية الموجودة داخل مركز مدينة بغداد والمعروف تأريخها وأهميتها. ونشير هنا الى بغداد العباسية ببقايا فترتها الأولى ومن ثم الفترة الثانية والمحددة بسورها القديم الذي لازالت بعض أجزائه موجودة مثل الباب الوسطاني وغيرها كما أن هناك رصيداً عالياً من نسيج عمراني يعود إلى العصر العثماني وبداية القرن مما يستدعي إعلان المنطقة وليس المبنى فحسب منطقة أثرية وتاريخية وهذا ما أغفله قانون الآثار العراقي .

هذه المواقع الأثرية في محيط بغداد واستخداماتها ومحيطها أضحت ذات استخدام مدمر أيام حكم صدام وهي مبان للتجسس والإرهاب وأسلحة الدمار الشامل والتصنيع العسكري ومعسكرات الجيش التي لم تفقد هذه الأماكن قيمتها التأريخية فحسب وإنما قيمتها الإنسانية. لقد طوقت هذه الاستخدامات مدينة بغداد وجعلتها عاجزة عن النمو بالاتجاهات الصحيحة ودمرت الحياة في محيط بغداد. لابد لنا من وضع سياسة لتأهيل جديد لهذه المناطق والمباني والمواقع الأثرية بما يتناسب وقيمتها التأريخية والتراثية وعدم الاستحواذ عليها عسكريا لأننا لا ننشد عسكرة المجتمع في عراق الغد البعيد عن كل الحروب. ولأجل ذلك نقترح دراسة مواقع محيط بغداد وفق منهجية عالمية علمية رصينة معتمدة على مواثيق ومنظمات الأمم ومنظمات الأمم المتحدة التي كانت مقراتها في العراق مثل منظمة المدن الإسلامية والمركز الإقليمي للممتلكات الثقافية في الوطن العربي وغيرها والتي نأمل إرجاعها عن قريب وبجهود الخيرين من أبناء هذا الشعب .إن هذا الأجراء أصبح ضرورياً جدا وذلك لأننا مقبلون على الإعداد لبغداد عاصمة الحضارة العالمية وكذلك الاهتمام بما يليق ببغداد التاريخية.

لابد لنا بعد هذا العرض التاريخي وتوضيح واقع الحال من إعداد منهجية مناسبة للحفاظ والتنمية وفق معايير مناسبة لتأمين معطيات ضرورية لتصاميم إقليمية وحضرية في محيط بغداد وهي:

– المواصلات المناسبة للموقع وتتضمن:

أ. إمكانية الوصول؛

ب. المواصلات النهرية؛

ج. شبكة المواصلات العامة؛

د . شبكة سير السابلة.
– تأثير التلوث البيئي على الموقع .
– التوزيع والنمو السكاني وتأثيره على الموقع.
– تأثير استراتيجيات تطوير أحواض الأنهر على الموقع.
– تأثير (السيناريوهات) البدائل المعدة:
أ. الطموحة؛
ب. الاعتيادية؛
ج. دون مستوى الطموح.

إن هذه المعطيات قد أنتجت وقد تنتج لاحقا بعد اكتمال دراسة التصميم الإنمائي الشامل جملة من التوصيات المهمة والضرورية. ومن الاستقراء الأولي نجد من المناسب تقديم مؤشرات لمقترحات أولية وهي:

أولا: توزيع المواقع الأثرية الى أربعة مجاميع تتفق ونوع الحضارات وأحواض الأنهر:
أ. نهر ديالى حضارة أشنونة مركزها تل حرمل.
ب. حوض أسفل الفرات بابلية مركزها سبار.
ج . غرب الفرات قبل وبعد الإسلام مركزها مدينة الأنبار القديمة
د. دجلة شمال بغداد إسلامية وعباسية مركزها سامراء.

إن تنويع المناطق وربطها ببؤر تسهل مهمة ادارتها والأشراف عليها وعرضها وتأمين تنميتها وخصوصا بعد الإدارة اللامركزية في العراق الآن .

ثانيا: تأمين المواصلات الجيدة ضرورية لكل المواقع حيث لوحظ صعوبة الوصول للمواقع على أن يراعى عدم توجه السير الى المراكز التاريخية القديمة وتأمين مناطق عدم دخول المركبات
في أماكن محددة (تجميد سير المركبات). كما يجب استخدام المواصلات النهرية وذلك لتواجد كثير من هذه المواقع على النهر إضافة الى ما تضفيه السفرات النهرية من متعة سياحية. وبعد أن يتم تصميم وتخطيط المشهد التاريخي يمكن لنظام سير السابلة أن يتبع النظام السائد قديما لتقوية الحس التاريخي وإعطاء الموقع الأصالة التاريخية الفضائية إضافة إلى سهولة النقل الأمن للزوار.

ثالثا: الصناعة والتطور التجاري لها تأثيرات مزدوجة على المواقع. فإلى جانب تامين خدمات ومواصلات وزوار للموقع، فانه ومن جانب آخر تجلب كل أنواع الملوثات والاستخدام المدمر للآثار. لذلك يجب دراسة كل حالة على حدة مع مراعاة الشروط البيئية الجيدة التي يجب أن يحددها التصميم الإنمائي الشامل والتصميم الأساسي والإقليمي والقطاعي.

رابعا: لا يخفى على أحد ما للكثافة السكانية العالية من تأثير مدمر على الآثار ولكن النمو السكاني المنضبط والمنتظم والمخطط له يمكن أن يشكل عاملا تنمويا ايجابياً للمواقع.

خامسا: أن كل ماذكر سابقا يجب أن يناقش حسب ما يؤول إليه التصميم الإنمائي الشامل وتطبيقاته وبدائله (السيناريوهات) الطموحة أو الاعتيادية أو دون الطموح وبما يجود علينا عراقنا من خيرات.

في ضوء مقال (في قضايا الإسكان) ❖ للدكتور مظفر الجابري

سنان أحمد حقّي/مهندس ومنشغل بالثقافة

لا شك أن الدكتور مظفر الجابري لا يستطيع أن يستعرض في مقال موجز مشاكل ومعوقات سياسة الإسكان في العراق وهي مسألة تعقّدت كثيرا بعد أن أُهملت طويلا ولم تقم الدولة منذ أمد طويل بأيّة مبادرات أو محاولة تقديم حلول لأزمة الإسكان مدار البحث وبشكل عام فإن المقترحات التي قدّمها الدكتور الجابري وهو خبير بالتخطيط الحضري والإسكان، نستطيع أن نقول أنها تسلط الضوء على رؤوس المعضلات وأهمها بشكل أساس. بيد أنني بكل تواضع أودّ أن أضع بعض الملاحظات المحدودة مستمدّة من واقع تجربة عمليّة محدودة ومنها:

1. هناك ضرورة ملحّة لإصدار تعليمات بمنع محدود الأمد لتقسيم الأراضي لأغراض توزيعها على المواطنين للأسباب الواردة في مقال الدكتور وهذا سيشجّع التوجّه إلى إقامة مشاريع إسكان متطوّرة توفّر الخدمات والمناطق الخضراء وسوى ذلك كما ورد بالمقال.

2. في ضوء التحولات في الإدارة العامّة اللامركزيّة للبلاد فإنه من الأهميّة بمكان العمل على العناية بدوائر التخطيط والمتابعة في المحافظات والأقاليم وإحداث منصب نائب محافظ للتخطيط والمتابعة في كل محافظة وليس معاون محافظ يشغله أحد ذوي الاختصاص لكي تكون لديه الصلاحيات المناسبة والقوّة المعنويّة اللازمة لتنفيذ سياسة مختلف الشؤون التخطيطيّة والتي لا تحظى بالأهميّة المطلوبة بسبب ضعف الوعي بالإحصاءات والتخطيط لدى مسؤولي الدولة في معظم المحافظات وجنوحهم الدائم للتجاوز على الخطط والبرامج وإلى الارتجال. كما أن هذا الإجراء سيتلاءم مع مجلس الإسكان المقترح في المقال وكذلك مع التغيير اللاحق بقوّة.

3. أهم ما يجب أن يجري من تحديث وتطوير في عمل دوائر التسجيل العقاري هو ليس الاعتماد على الحاسوب أو

التخلص من الأعمال الورقيّة فحسب بل الأهم أن تنتقل دوائر التسجيل العقاري إلى اعتماد خرائط ومسوحات كادستراليّة (خرائط الملكيّة) جديدة لا تقوم على الاعتماد على المرتسمات المنفّذة بخطوط قلم التحبير بل على الإحداثيات المعتمدة على أحد أرصن الإحداثيات المعمول بها عالميا كإحداثيات (UTM)أو غيرها وقد يُستعان بالإحداثيات التي يعتمدها GPSللدلالة. وبهذا لن نكون بحاجة لكل تلك المخططات والمرتسمات وتفاصيلها بل سيكون وصف حدود أيّة قطعة أرض بذكر إحداثيات زوجيّة لرؤوس شكلها سينيا وصاديّا وبهذا يستطيع أي فنّي أو مهندس أن يرسم بموجبها شكل قطعة الأرض مهما كبرت أو صغرت ولا حاجة لذكر مدى ما يوفّره هذا العمل من جهود ويختزل كمّا من الأخطاء تعاني منها دوائر التسجيل العقاري الحاليّة بشكل مزمن

4. يجب أن لا تعود المؤسسات المعنيّة بالأراضي واستعمالاتها إلى السيطرة على الأراضي المخصصة للخدمات والمناطق الخضراء أو المنافع العامّة بدعوى تسهيل تنفيذ سياسة الإسكان لأن المدن العراقيّة قاست كثيرا من الاستهتار بالأراضي الموصوفة ولعدم إمكان توفير بديل لها وتتحوّل المناطق الحضريّة إلى مناطق سيئة التخطيط تعاني من اختناقات لا حصر لها كما أن سياسة الملء الحضري الموصوفة بالمقال يجب أن تتجنب تلك الاتجاهات المغريّة والكارثيّة والتي لا يمكن إصلاحها.

5. يجب تشجيع إدخال مواد بناء جديدة إلى البلاد مثل القطع الجاهزة ولا أقول البناء الجاهز إذ أن محافظات العراق كافّة، وربّما باستثناء بغداد، تعاني من رداءة إنتاج الخرسانة وبالتالي فإن توفير بعض القطع الجاهزة قد يجنّب المستهلك رداءة متدنّية في الإنتاج وطبعا تشجيع قيام للملحقات الحديديّة وما يماثلها Hard-wares) فضلا عن التمديدات والتوصيلات الكهربائيّة والصحيّة ومجاري الهواء ..الخ.

6. نؤيد جميع ما جاء بالفقرة ثانيا من المقال.

7. تتطلّب الدراسة وما ورد بالمقال إعادة النظر بقوانين الإسكان وأنظمة البلديات وقانون البلديات والمحافظات لكي يلائم هذه التطورات مع التشدد في منح رخص البناء على اختلافها والتأكّد من تحقق كافّة الشروط والضوابط

8. معالجة العشوائيات ضرورة مستعجلة وملحّة.

9. لا يُفهم من عبارة المناطق التي يجب الحفاظ عليها هو أن تترك لكي تؤول إلى الإنهدام دون أن تمتد لها يد الصيانة والترميم المناسب ولذلك يجب الإسراع بإجراء ما يلزم لعمل كل ذلك لأن معظم تلك المناطق والمباني قد آلت فعلا إلى السقوط والإنهدام وقد نخسرها قريبا جدا لو لم نحرّض على قيام حملة لصيانتها وإعمارها وهذا أمرٌ مهم جدا يعلمه كاتب المقال الموقّر الأستاذ الجابري أكثر منّا.

10. نؤيّد مقترح وزارة للإسكان ولكن قدرا من التنسيق أكبر ضروري أن يتم مع المسؤولين عن التصاميم الأساسيّة ومخططي المدن.

* انظر: مظفر علي الجابري، في قضايا الإسكان، الثقافة الجديدة، العدد 342/2011

طاولة مستديرة

طاولة مستديرة حول

مشروع حذف الاصفار الثلاثة من العملة العراقية❖

في الرابع من تشرين الثاني /نوفمبر 2011 وعلى قاعة جمعية المهندسين العراقية ببغداد، انتظمت أعمال طاولة حوارية ضمت عددا من المهتمين بالشأن الاقتصادي العراقي ومن ذوي الاختصاص، خبراء البنك المركزي العراقي والأكاديميين للمساهمة في مناقشة حول مشروع حذف الأصفار من العملة العراقية. وتسهيلا للنقاش في الطاولة المستديرة التي أدارها الخبير الاقتصادي إبراهيم المشهداني، فقد تم تعميم ورقة عمل، ندرجها هنا أعماما للفائدة:

توطئة

أعلن البنك المركزي العراقي في الرابع والعشرين من حزيران 2011 وضع اللمسات الاخيرة لمشروع قانون رفع الاصفار من العملة العراقية بغية عرضه على مجلس النواب لمناقشته وإصداره بعد المصادقة عليه من رئاسة الجمهورية واعلانه رسميا في جريدة الوقائع العراقية.

ويذكر أن البدء بهذا المشروع قد تم في عام 2005 .

وتجد الهيئة الاقتصادية في الحزب الشيوعي العراقي من الاهمية بمكان مناقشة هذا المشروع ضمن اطار طاولة مستديرة يشارك فيها نخبة من الاقتصاديين والاكاديميين واصحاب الاختصاص في هذا المجال وصولا الى استنتاجات وتوصيات تسهم في اغناء هذا المشروع.

ولا تعتبر الهيئة أن هذه الورقة تشكل بديلا عن مشروع البنك المركزي او بديلا عن اراء المشاركين في هذه الطاولة، وإنما هي منطلق لاثارة النقاش حول هذا المشروع الحيوي من قبل الاساتذة المشاركين في هذه الطاولة والاستئناس بتوضيحات وشرح ابعاد هذا المشروع من قبل المختصين في البنك المركزي العراقي، وخاصة الذين ساهموا في دراسة واعداد هذا المشروع .

حذف الاصفار والسياسة النقدية:

تعتبر السياسة النقدية التي هي جوهر مهمات البنك المركزي العراقي، شأنها شأن السياسة المالية، أداة من أدوات التنمية والاستقرار الاقتصادي في العراق. ومن هذا المنطلق فان تقليص الكتلة النقدية في الاقتصاد العراقي يعتبر من تجليات السياسة النقدية التي تؤثر في هذا الاقتصاد ليس بوصفها سياسة منعزلة عن الفعاليات الاقتصادية الاخرى بل جزء اساس من هذه المنظومة التي تستهدف تحسين الاداء الاقتصادي. إلا أن فعاليتها ونجاحها يتوقف، من بين امور عديدة، على وجود جهاز تنظيمي واداري لمنظومة المصارف الحكومية والأهلية، كفء قادر على اختيار الوقت المناسب للشروع بالتنفيذ واعداد الادوات والاليات المناسبة لانجاح هذا المشروع واجراء دراسة تحليلية لكافة العوامل التي تؤثر يشكل مباشر او غير مباشر على إنجاحه وضبط هذه العملية وفق معايير علمية تكون قادرة على اجراء التصحيحات المقتضية عند اية معوقات تواجه هذه العملية. ومن الطبيعي أن رسم هذه السياسة يعتبر جوهر وظيفة البنك المركزي العراقي الذي يجب إلا ينظر إليه كمؤسسة منعزلة عن باقي المؤسسات الاقتصادية رغم طابع الاستقلال التام للبنك في رسم السياسة النقدية، وهناك فارق كبير بين الانعزال والاستقلال.

أهمية رفع الأصفار من العملة

إن أهمية رفع الأصفار تكمن في رفع قيمة العملة المحلية في التداول الاقتصادي الداخلي والخارجي، وهو مشروع استراتيجي يهدف إلى تقليل التضخم في الاقتصاد وفقا لتصريحات المسؤولين في البنك المركزي العراقي بالإضافة الى تخفيض تكاليف المعاملات وتيسير عملية تداول العملة، ولكنه يؤدي إلى ارتفاع الأسعار بسبب تأخر عملية التكيف والتلاعب في تعديل الأسعار. كما أن ضخامة الكتلة النقدية العراقية التي تناهز 27 تريليون دينار عراقي أو ما يقارب أربعة تريليون من الأوراق النقدية قيد التداول بعد أن كان مقدار هذه الكتلة في عام 1980 (25 مليار دينار عراقي). وهذا الحجم الكبير من الكتلة النقدية يؤدي إلى جملة من التداعيات أهمها:

1- تعرضها إلى عمليات التزوير التي تقوم بها عصابات محترفة في ظل غياب الجهاز الامني الاقتصادي الكفء.

2- صعوبات في التداول للإغراض التجارية مما يجعلها عرضة للسرقة.

3- أخطاء حسابية تتعرض لها الوحدات الحسابية في دوائر الدولة أو القطاع الخاص مما يجعلها عرضة للتلاعب من قبل ضعاف النفوس.

4- الوقت الطويل الذي تستغرقه عمليات العد والحساب في التداولات اليومية.

5- إرباك في عمل المصارف.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الكتلة النقدية الكبيرة قد تمت في ظروف غير طبيعية فقد اقترنت بالحروب التي شنها النظام المباد ومن ثم الحصار الاقتصادي الذي فرضته قرارات مجلس الامن وفقدان الاحتياطيات من العملات الصعبة وقيام الحكومة بطبع العملة المحلية بكميات كبيرة جدا، فضلا عن عمليات التزوير الكبيرة التي مارستها العصابات المحلية بالاضافة الى العملة

المزورة التي تضخها البلدان المجاورة بهدف ارباك الاقتصاد واضعاف الحكومة وهي شكل من اشكال الحرب التي شنتها دول الاقليم المجاورة ردا على سياسات النظام السابق انذاك. إنها حالة استثنائية بكل المقاييس أدت الى تفاقم التضخم بشكل غير مسبوق وانخفاض قيمة العملة حيث بلغ سعر صرف الدولار الامريكي اكثر من 3000 دينار عراقي مما يتعين على المؤسسات الاقتصادية وخاصة البنك المركزي العمل مامن شأنه تجاوز هذه الحالة الظرفية الاستثنائية واعادة الاعتبار للعملة العراقية وصولا الى قيمته السابقة وهي 3.33 دولار للدينار الواحد والاستفادة من تجارب البلدان الاخرى التي سبقتنا في هذا المضمار ومرت بظروف مماثلة ومنها تركيا والمانيا وايطاليا.

الاثار السلبية المحتملة

إن حذف الأصفار وتقليص الكتلة النقدية كأي عملية كبرى سوف تترك اثارا سلبية وتخوفا من المؤسسات والاطراف التي تتعامل بالعملة النقدية ومنها:

1 -آثار نفسية لعمليات الديّن خارج المصارف والسوق النقدية الرسمية وربما تؤدي عن غير وعي الى منازعات قد تؤدي الى اضطرابات مضافة الى الوضع الامني المتوتر .

2 -تداعيات على سوق الاوراق المالية اذ ستنخفض رؤوس الاموال العائدة للشركات المتعاملة مع السوق بنفس نسب الاصفار التي ستحذف وبالتالي ستدخل السوق في مرحلة يتوجب عليها اغلاق السوق لفترة معينة تطول او تقصر يتم خلالها اصدار شهادات جديدة للاسهم وطبعا مع بقاء عدد الاسهم .

3 - تكاليف طبع العملات الجديدة وقد يؤدي تبديلها الى انفاق ملايين الدولارات يمكن توظيفها في دعم مجالات هي احوج ما تكون الى هذه الملايين كالخدمات الصحية والتعليمية، وقد تؤدي، وهذه توقعات، الى ارتفاع تكاليف المعيشة رغم انها استثنائية.

4 -ان رفع الاصفار سيؤدي الى انخفاض القيمة الاسمية لدخول العاملين في كافة القطاعات حتى لو احتفظت بقيمتها الحقيقية وهذه حالة تسبق انخفاض الاسعار التي دائما ما يكون انخفاضها متأخرا وهذا ما يؤدي الى مضاعفة الازمة الراهنة بكل ابعادها.

5- اصحاب مكاتب الصيرفة متخوفون من هذا المشروع بسبب توقعات مفادها مشاكل مع المواطنين لم يعوا طبيعة واهداف هذا الاجراء لاسيما وانهم يتعرضون باستمرار الى هجمات العصابات المنظمة. كما يمكن إضافة مخاطر نشوء عمليات مضاربة بالدينار.

مقترحات لانجاح المشروع

إن نجاح هذا المشروع الهام يتطلب اتخاذ سلسلة من الاجراءات والفعاليات التي تسهم في تهيئة الارضية المناسبة له، ويمكن تلخيصها بما يلي :

1 -العمل على اتخاذ التدابير الضرورية لرفع القيمة الحقيقية للدينار العراقي قبل الشروع بتنفيذ مشروع رفع الاصفار.

2- ان اعادة سك عملة جديدة يجب ان تتناسب مع هيكل الأسعار، فعلى سبيل المثال فان عملة (الالف دينار) ستصبح

دينارا واحدا وهناك سلع بـ (500 دينار) واخرى بـ (250) دينارا. وعلى هذا الاساس فان العملة الجديدة ستتناسب مع انخفاض الاسعار.

3 -طرح المشروع للرأي العام لمناقشته بنطاق واسع وخاصة الاكاديميين والاقتصاديين العاملين في مؤسسات الدولة ومجالس المحافظات والاحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني ومختلف الاوساط الشعبية من اجل خلق وعي عام واستعداد لتقبل المشروع والاقتناع به على ان ترافق هذه العملية تغطية اعلامية واسعة.

4-اعادة النظر بالعملية الاستيرادية وتقليصها الى حد تلبية الحاجات الضرورية والاساسية للمجتمع من اجل الاحتفاظ بالعملة الصعبة والحفاظ على فوائضها في البنك المركزي، وتقليص الانفاق الحكومي وخاصة استيراد الاثاث والموجودات غير الضرورية وذات الطابع الترفي في خطوة لاصلاح الاقتصاد العراقي.

5 – وارتباطا بهذه الاجراءات الاهتمام بالقطاع الانتاجي في الصناعة والزراعة في القطاعين العام والخاص للاكتفاء الذاتي سبيلا لتقليص الاستيراد وخاصة بالنسبة للمواد الغذائية والمواد المنتجة محليا مساهمة في خفض نسبة التضخم الناجم عن ارتفاع اسعار المواد الغذائية على وجه الخصوص .

6- اتخاذ الاجراءات الصارمة ضد محاولات اخراج العملة الصعبة من العراق للاحتفاظ بها في البنوك الاجنبية لاسباب قد تكون مخططة او بناء على توقعات المستثمرين العراقيين، واتخاذ اجراءات وقائية ضد اساليب المضاربة بالعملة.

تساؤلات تساعد على توضيح المشروع

● ما هو الدور الذي ستؤديه المصارف الاهلية في تنفيذ المشروع؟

● ما هو الدور الساند الذي يجب ان تنهض به وزارة المالية وخاصة ما يتعلق بالانفاق الحكومي؟ واذا كان الامر يتعلق بتخفيض الانفاق، فأي الميادين يجب ان يشملها التخفيض ؟

● ما هو دور المؤسسات الحكومية الاخرى في اسناد هذا المشروع؟

● هل يتطلب هذا المشروع الاستعانة بالمؤسسات النقدية الدولية ؟وهل هناك حاجة لهذا التدخل؟ وماهو الثمن الذي يجب تقديمه نظير هذا الدعم ؟

● هل يتطلب هذا المشروع اصدار تشريعات ساندة وماهي ؟.

رائد فهمي/عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي

نرحب بالحضور جميعا ... ان موضوع اليوم قد طرح بالاعلام ومن قبل البنك المركزي، كما طرحت اراء مقابلة فيها حدة. وفيما يتعلق بالرأي العام فاعتقد أن هناك تشوشا في الرؤية حول الموضوع. ومن الضروري ان يكون الحوار بعيدا عن المزايدات والحسابات الاخرى، كما تطرحه بعض وسائل الاعلام.

في ورقة العمل هناك اشارات الى بعض المسائل الاقتصادية وهذه غير ملازمة وضرورية لعملية تبديل العملة ونشير الى ان بعض الاضطرابات ممكن ان تحصل من خلال تبديل العملة مثلا تبديل (الالف دينار) بدينار واحد اضافة الى عملية الرسملة التي يمكن ان تقوم وتؤدي الى رفع الاسعار بصورة تعسفية.

د. مظهر محمد صالح/ نائب محافظ
البنك المركزي العراقي

في ظل الظروف الاقتصادية والمالية المتقلبة وضغوط التضخم النقدي التي حلت في بلادنا سابقا وادت الى اثار سلبية على انتظام السوق التجارية واسواق العمل والانتاج ومستوى معيشة المواطن، فقد تولدت تشوهات كثيرة في البنى والعلاقات الاقتصادية والتي كان من بينها تواجد كتلة نقدية كثيرة الاصفار قليلة القيمة وعلى نحو لايتناسب والتطورات المقبلة في حاضر ومستقبل الاقتصاد العراقي، مما يقتضي ايجاد حل لهذه الظروف ومخلفاتها. ومن هذه الحلول اصلاح نظام ادارة العملة النقدية من خلال هيكلتها وحذف الاصفار منها للسيطرة على تدفق وادارة الكتلة النقدية على نحو امثل.

ان تداول كتلة نقدية مصدرة تربو على 30 تريليون دينار عراقي بمختلف الفئات والتي يعكسها عدد الاوراق المتداولة البالغة 4 تريليون ورقة نقدية هي نتاج مرحلة طويلة من التضخم والتدهور الاقتصادي. فقد ارتفع على سبيل المثال الرقم القياسي لاسعار المستهلك بأساس 1993 من 100 الى 200000في خضم العام 2003 مما يعني ان السلعة التي كانت تباع بـ 100 دينار اصبحت تباع بـ 200000 دينار ..وهكذا . وتحت هكذا ظرف وتدهور قيمة العملة ارتفعت فئة العملة الاكبر من 25 دينار الى 25000دينار مما يعني ان التضخم هو الذي اضاف هذه الاصفار، حيث لا تتناسب فئات العملة الحالية مع الوضع الاقتصادي الراهن والمقبل. فعلى سبيل المثال وقبيل اندلاع الحرب العراقية الايرانية (1980) كانت فئة الـ 25 دينارا تعادل 75 دولارا بالقوة الشرائية لذلك الوقت او مايعادلها في الوقت الحاضر 300 ألف دينار. لقد اضاف التضخم المالي في البلاد، على مدى ثلاثة عقود من الزمن، اصفارا الى العملة وعلى الرغم من ذلك لم ترفع تلك الاصفار من القدرة الشرائية لاكبر فئة من العملة وهي الـ 25 ألف دينار والتي تساوي اليوم21 دولارا ونحن بحاجة اليوم الى اعادة هيكلة العملة. فالاصفار الكبيرة تعني كتلة نقدية كبيرة في التداول تبلغ اليوم قرابة 30 تريليون دينار مما تطلبه من تداول نقدي مباشر والى كلفة كبيرة في العد والفرز وما تستغرقه من وقت وخواص مكانية وامنية. ففي نظام الاسعار يعد السعر هو القيمة معبر عنها بالنقد وبالتالي فان هيكل التكاليف والمدفوعات الاجرية والرواتب واقيام المعاملات امست جميعها لاتتناسب مع حاجة البلاد الى نظام نقدي سهل التعامل ومن فئات صغيرة وكبيرة معبرة عن كلفة ذلك الهيكل الحقيقي.

التضخم وارتفاع رقم العملة المتداولة

وواصل د. مظهر حديثه مؤكدا على ان التضخم يعني بنفسه ارتفاع أسعار النقود (money price)على السلع والخدمات (أي كم من النقود نحتاج لمبادلتها بحزمة معينة من السلع والخدمات .. فكلما تزداد كمية النقود المخصصة لمبادلتها على الحزمة نفسها معنى ذلك ان هناك تضخما او ارتفاعا في اسعار النقود). ان قيمة النقود تتناسب عكسيا مع اسعار النقود، وان السعر هو قيمة السلع والخدمات معبر عنها

بالنقد. ولما كانت النقود هي اي شيء يتفق عليه المجتمع ليصبح وسيطا للتبادل ومخزنا للقيمة ووحدة حساب فان النقود (القانونية) الصادرة عن السلطة النقدية بموجب القانون وذات قوة ابراء للذمم ينظر اليها بانها مؤسسة اجتماعية social institution حيث تزداد كفاءة الاقتصاد وعملياته في تحريك التبادل بكفاءة تلك المؤسسة الاجتماعية اي النقود والعكس بالعكس. لقد ادى التضخم المستمر الى ارتفاع رقم العملة المتداولة من 23 مليار دينار في العام 1991 الى حوالي 30تريليون دينار في الوقت الحاضر وارتفاع اكبر عملة من 25 دينار الى 25000دينار بمرور الوقت وبهذا رسم التضخم ارقاما جديدة للعملة المتداولة باضافة ثلاثة اصفار مما زاد من مقدار العمليات النقدية الاسمية ورتب تكاليف انتاج كميات كبيرة منها رافقتها عمليات خزن وتوزيع وعد وفرز وتدقيق مرافقة لها وبمستويات مضاعفة ساعدت على تعاظم المخاطر التشغيلية . operational Risk

الاصلاح الجذري لنظام ادارة العملة

في ظل الاستقرار السعري والتفاؤل بمستقبل العراق الانمائي، يقول د. مظهر محمد صالح، فقد بات من اللازم اجراء اصلاح جذري على نظام ادارة العملة وذلك باعادة هيكليتها بما يتناسب وهيكل الاسعار الجديد المختلف والمستقر ومستويات الاجور والرواتب التي اختلفت كثيرا عن السنوات الثلاثين الماضية، فضلا عن التعامل بكتلة نقدية كبيرة ضعيفة في مكوناتها بحيث باتت اكبر فئة عملة لاتساوي الا21 دولار امريكي في الوقت الحاضر. منوهين ان ارتفاع الناتج المحلي الاجمالي للعراق من140 مليار دولار في نهاية العام 2010 الى اكثر من 300 مليار دولار في نهاية عام 2015 سيرفع الكتلة النقدية المصدرة من 30 تريليون دينار الى حوالي 709 تريليون دينار. وان التركيب الضعيف في هيكل العملة قد اخذ يضيف كلفة تسمى كلفة المعاملات النقدية من حيث التداول بها سواء بين الافراد انفسهم والافراد والمصارف وداخل الجهاز المصرفي نفسه (فالطلب على الدولار الامريكي، ولاسيما فئة الـ100 دولار) أمسى حاجة ملحة لتسوية المعاملات النقدية في السوق المحلية خارج ارادة السياسة النقدية لكون تلك السوق تتطلع في معاملاتها الى فئات اكبر غير متوافرة حاليا ولكنها تتجسد بفئة العملة الامريكية الكبيرة لسهولة حملها وتداولها. لذا فان النظام النقدي العراقي بحاجة الى اصلاح اداري ليكون هناك فئات نقدية عالية القوة الشرائية في التداول سهلة الحمل والحيازة بما يسهل عمليات التبادل النقدي لاغراض المعاملات والمتاجرة. ولا بد من التنويه هنا ان الاختلال في هيكل او تركيب الوحدات النقدية قد عمق من مشكلات (الدولرة) التي رتبت اثارا غير مرغوبة على فاعلية واداء السياسة النقدية. ففي السويد مثلا التي يتوافر فيها حاليا واحدة من افضل انظمة المدفوعات النقدية في العالم وعلى الرغم من ذلك فان كلفة التداول النقدي من عد وفرز ونقل وخزن للعملة تكلف الاقتصاد الوطني مانسبته 4٪ من الناتج المحلي الاجمالي للسويد. فكيف نقارن ذلك في بلد مثل العراق يتولى ادارة هكذا مقادير نقدية هائلة ضعيفة التركيب

مما يضيف كلفة معاملات نقدية ربما تصل الى 8٪ او اكثر من الناتج المحلي الاجمالي وهو عبء يتحمله الفرد في تعاملاته مما اخذ يقلل من كفاءة النقد كمؤسسة اجتماعية مؤازرة لمؤسسات الاقتصاد المختلفة بما فيها السوق. والدليل على ذلك تنحصر المعاملات النقدية الكبيرة للدفع بالدولار الامريكي مما يعني احلال عملة دولة اخرى في التداول لاسناد المعاملات النقدية بسبب هبوط كفاءة وتركيب الكتلة النقدية الحالية .

ويواصل د. مظهر محمد صالح حديثه مشيرا الى ان تعدد الاصفار على فئات العملة مع انخفاض القوة الشرائية لها يثير مصاعب جمة منها صعوبة التعبير عن القيمة النقدية فضلا عن مصاعب العمليات النقدية نفسها ومشكلات فنية في تسجيل البيانات الاحصائية والتسجيل في الدفاتر المحاسبية وتغيير انظمة الحاسبات ونظم التسويات فضلا عن اظهار الاسعار بارقام طويلة تصعب احيانا حتى العدادات او الاجهزة الرقمية من قراءة اصفارها في محطات الوقود او الاجهزة الرقمية الاخرى.

اصلاح نظام المدفوعات

وعلى هذا الاساس اصبحت حاجة لاصلاح نظام المدفوعات النقدي من خلال المزايا الاتية :

أولا – على المستوى الافقي: حذف الاصفار الثلاثة

– تحويل 30 تريليون مليار دينار الى 30 مليار دولار عن طريق حذف ثلاثة اصفار من العملة الحالية واستبدالها بعملة جديدة مما يسهل التعامل الحسابي مع ارقام هي اقل عددا على صعيد حسابات الموازنة الاتحادية، وموازنات البنوك والشركات فضلا عن موازنة الاسرة النقدية (الافراد) دون ان يرتب اي تغيير او تبدل على الدخل او الثروة النقدية للاشخاص الطبيعية والمعنوية فضلا عن عدم تاثيره على التعاقدات والالتزامات بين الاشخاص الطبيعيين والمعنويين كافة. وهو مايطلق عليه بتوليد دالة رياضية متجانسة من الدرجة الصفر طالما ان كمية النقود الجديدة الاصغر رقما تغطي في التبادل الحزمة السلعية نفسها في النقود القديمة ذات الرقم الاكبر.

ثانيا – على المستوى العمودي: اعادة هيكلة العملة وتركيبها

– لما كانت الفئة الكبيرة البالغة 25000 دينار تشكل لوحدها (ثلثي كمية الاوراق المتداولة) فان اصدار فئات اكبر يعني اختزال الاربعة مليار ورقة نقدية المتداولة حاليا وتحويلها الى عدد يساوي (2.180) مليار ورقة نقدية، حيث ستختزل الفئات الكبيرة من العملة قرابة 80٪ – 90٪ من اجمالي الفئات المصدرة الى التداول.

استنادا الى ما تقدم، يؤكد د. مظهر محمد صالح، فان كلفة المعاملات النقدية بين الافراد والمصارف وبين الافراد انفسهم طبيعية أم معنوية ستنخفض حتما من حيث تكاليف العد والفرز والتدقيق. واذا ماعلمنا ان الاوراق النقدية المتداولة تتآكل بالمتوسط خلال مدة خمس سنوات مما يعني استبدال كتلة هائلة ضعيفة التركيب وترتب تكاليف طباعية ذات مواصفات امنية عالية، وهو عبء اخر تتحمله سلطة الاصدار النقدي وهو من مخلفات نظام ادارة نقدية ولدها التدهور الاقتصادي السابق واصبحت لاتتناسب

والاستقرار والتقدم الاقتصادي المنشود. إن اسباب تغيير العملة الراهنة يعبر عن ثمرة الاستقرار الاقتصادي ونجاح سياسات البنك المركزي العراقي في الحفاظ على الاستقرار والمتمثلة باستقرار سعر صرف الدينار العراقي وهبوط التضخم الى مرتبة عشرية واحدة وبناء احتياطيات اجنبية مؤازرة للدينار العراقي بمستويات لم يسبق تحقيقها خلال الثلاثين عاما الماضية والتي تعد غطاء العملة العراقية. هذا اضافة الى تحسين نظام المدفوعات النقدية وجعله يغادر التصاقه وتركيبه الراهنين بالماضي واختلالاته الاقتصادية واعادة بنائه على مستقبل التطور الاقتصادي ومعطياته الحقيقية والاسمية. لذا فقد اعد البنك المركزي العراقي ستراتيجية بعيدة الاجل قابلة للتطبيق مستقبلا عند توافر الفرصة الملائمة وبصورة تدريجية وفق تعليمات واضحة ولوائح إرشادية توفر الحماية للحقوق والمصالح المختلفة بما يتلاءم ومرحلة الازدهار المقبلة والنمو الاقتصادي المتوقع حيث سيزداد متوسط دخل الفرد خلال السنوات القادمة الى اكثر من مرة وسيخطو الاقتصاد خطوات نحو التقدم مما يتطلب اصلاحا لمخلفات مراحل التضخم وربما يتطلب بعض التشريعات بهذا الشأن.

راغب بليبل/

رئيس اتحاد رجال الاعمال

أكثر المخاوف التي كانت ترافق اوقاتنا بشكل مستمر نحن الذين نعيش في الميدان هي المخاوف التي طمأننا بها د. مظهر واعطى صورة اكثر اطمئنانا، ولكن نحن الذين نعيش في الميدان لدينا مشاكل كثيرة وهذه المشاكل نضع لها الاولويات في المعالجة. واعتقد بانه ومن ناحية التوقيت يمكن ان نكون متسرعين بعملية حذف الاصفار لان المشاكل التي مرّ بها العراق معروفة، حيث لدينا تجربتان: الاولى في التسعينات والأخرى في عام 2003 في تبديل العملة، وايضا الازمة الاقتصادية التي حدثت لدينا في التسعينات اثر الموافقة على الغذاء مقابل الدواء وصار هبوط بالاسعار وصارت لدينا مشاكل كبيرة. فنحن بلد عشائر وهناك حقائق وهناك عرف، يعني أن شخصا يطلب مليون دينار تعطيه ما قيمته بالدولار مليون دولار فلايقبل حيث يقول بانه يريد مليون دينار عراقي. هذه المشاكل موجودة واليوم يمكن القول ان الامر صار اصعب لانهم اعطوا للعشائر مكانة وتاثيرا اكثر مما كان سابقا. ونحن في الميدان فان حذف الاصفار اذ لا يوجد استقرار اقتصادي فاي عملية من هذا القبيل ستسبب مشاكل كبيرة للاقتصاد . والبلد لايتحمل مشكلة اقتصادية جديدة، فالاقتصاد مدمر ونحن بلد مستورد ليس لدينا انتاج وفي كل القطاعات. والان المفروض الحلول هي لانعاش الاقتصاد العراقي ابتداء من البنك المركزي الذي بدأ في 2007 بزيادة اسعار الفائدة وشل النشاط الاقتصادي ولحد الان ما زال الاقتصاد مشلولا لذا نعتقد ان التوقيت غير مناسب. ولكن الدكتور مظهر اقنعنا في الحقيقة حيث اذا تمت العملية ولو نريدها في وقت متأخر جدا الى ان تحل المشاكل التي يمر بها البلد والاقتصاد العراقي.. ولكن هذه التطمينات اعتبرها ورديــة، وضع وردي ليس في العراق. فالاجراءات المطروحة اليوم لايمكن ان تسير باتجاه سليم لان هناك تاثيرات ومحاصصة

وقوى مؤثرة. لكن اعتقد ان التوقيت غير مناسب جدا فالاقتصاد العراقي لايتحمل هزة جديدة ويمكن ان تنشأ مشاكل في البلد والموضوع يجب ان يؤجل الى سنين، حتى تحل مشاكل الاقتصاد العراقي ويحدث الانتعاش الاقتصادي المطلوب وتنشأ دورة عمل في داخل البلد وتنهض الصناعة والزراعة والخدمات في البلد وقيام وضع طبيعي. لقد مرت تركيا والبرازيل والارجنتين وعدد من البلدان بمثل هذه التجربة، فقد تم انجاز عملية تبديل العملة عندما استقر الوضع الاقتصادي واصبح متينا والعملية اصبحت لاتمثل خطرا عليهم.

عبد الحسن محي الشمري
/صناعي

علينا التفرقة بين شيئين، بين العملة وقيمتها بالدولار، فاذا كانت متذبذبة فانها ستخلق مشاكل. ان تبديل العملة سوف لن يؤثر على قيمتها الحقيقية وانما ستبقى بنفس القيمة ولذلك فالمجتمع العراقي ليس لديه فرق لو اعطي دينار او الف دينار. ثم طالما ان العملة ستكون متوازية مع العملة القديمة فلا يحدث أي تاثير يذكر سوى بحسابات الدولة اما المشاكل مع الناس فلايمكن ان تحدث. كما ليس من الممكن بناء بلد بدون اتخاذ قرارات جريئة وقوية فالقرار عندما يكون متذبذبا ويخاف من شيء فهذا غير صحيح اما ان نخاف من الفساد الاداري والمالي او نخاف من المشاكل العشائرية والان العشائر لها دور كبير خلقته الدولة. وهذا في تنفيذ العملة غير موجود واشد على يد د. مظهر بان يسيروا بهذا الطريق لانه طريق مهم حيث سيخفف من هذه المليارات والملايين والتي سنتخلص منها بعدها تاتي مرحلة رفع قيمة الدينار العراقي حيث لا تحدث مشاكل لان مثلا رواتب الموظفين عالية فاذا ارتفعت قيمة الدينار العراقي فسترتفع قيمة رواتب الموظفين اما القطاع الخاص فسيبقى على نفس وضعه والسلع تبقى بنفس قيمتها لانها تتحدد بالدولار وليس بالدينار العراقي .

ادور جبري
/مهندس استشاري

لقد تفضل د. مظهر مشكورا واعطى صورة وردية لطريقة تبديل العملة، ولدي سؤالان: الاول هل ان عملية تبديل العملة عملية سياسية أم اقتصادية؟ والسؤال الثاني: في حال تغيير العملة وحذف الاصفار فانه ستحدث لدينا حالتان اما التزوير او السرقة، ان كانت سرقة وتزوير فهذه مصيبة كبرى، واذا كان مسيطرا عليها، فلماذا لم نسيطر على السوق؟

د. مظهر محمد صالح/نائب محافظ البنك المركزي العراقي

ردا على سؤال الاستاذ أدور جبري: هل ان عملية تبديل العملة هي عملية سياسية أم اقتصادية؟ اقول: نظرا لأنني رجل في ميدان العمل الاقتصادي ولم انقطع عنه منذ عام 1989 والى اليوم، فانني اعتبر هذه العملية بالذات ليست سياسية ولا يوجد وراءها صندوق النقد الدولي ولايوجد أي احد ورائها بدليل ان الحكومة مازالت قناعاتها غير مهضومة. الموضوع هو موضوع فني 100٪. ولكن عندما طرح المشروع ظهرت عدة تساؤلات، واطمئنكم بعدم وجود جهات

خارجية ولاحتى الامريكان الذين لم يهتموا بهذا الموضوع نهائيا.

واقول بصدق بانه لاتوجد جهة سياسية دولية او منظمة عالمية او عراقية او حزب يدفع بهذا الموضوع نهائيا. فهذا الموضوع درس بيني وبين د.ماجد الصوري و د. سنان الشبيبي وبعض المعنيين، لاكثر ولااقل.

النقطة الاخرى هل هو تزوير وسرقة ...الخ، اذا تأخذ الجانب الآخر فالبلد مستقبله الامني في خطر وكل الامور مهددة فهذه طبعا عملية خطرة جدا وهو هدر لكل شيء، وبصراحه هذه صورة قاتمة واتمنى ان ترفع من اذهاننا جميعا. وقد يقول قائل اليس من المهم ان تعمل الكهرباء؟ اقول له اجعلني وزيرا للكهرباء حيث ان مسؤوليته ان يعمل الكهرباء، ومسؤولية امين العاصمة مثلا تبليط الشوارع، وانا مسؤوليتي ان انتج نقدا جيدا، فكل شخص في عمله ولا توجد اسبقيات هذا على ذاك. فهناك قدرة على التنفيذ وتحقيق الاهداف فهذه هي المسألة. وقد يسأل احد:

واذا مابدلنا العملة فماذا يحصل؟ اقول هناك فرق بين مدرسة من طين يجلس طلابها على الارض وبين مدرسة فيها مكتبة وموسيقى لان الاثنين يشتغلون والفهم والتعلم قد ياتي بطريقة او باخرى.

هذه نتائج تقدم الاقتصاد، تحسن نوع الاقتصاد وتحديثه، فحقك تريد تبديل العملة وليس لديك كهرباء، تريد تبديل العملة والامن غير موجود.. فهذه تساؤلات كلها مشروعة ونحن لسنا ضدها او البنك المركزي يغالي ويعطي صورة وردية وكأنه لايوجد شيء، مشكلتنا اننا منتجو عملة.

د. مهدي الحافظ/خبير اقتصادي ونائب سابق في البرلمان ووزير التخطيط الاسبق

احب ان اثير النقطة التي تفضل بها الاستاذ مظهر حول اهمية تغيير العملة وهي مسألة فنية من حيث الشكل ولكنها في الحقيقة هي ذات صلة مباشرة بالوضع الاقتصادي العام. ومن الخطأ الكبير فصل السياسة النقدية عن السياسة الاقتصادية فهنالك ترابط وثيق بينهما، واذا رغبنا ان نقدم على خطوة من هذا القبيل علينا ان ننظر للواقع الاقتصادي. فالوضع الاقتصادي العام في البلد وضع مزر بصرف النظر عن الكلام الكثير الذي يقال هنا وهناك. اقتصاد غير موحد، فالحالة في كردستان حالة منفصلة تقريبا من حيث العمليات الاقتصادية والمالية والنقدية وفي حالة المحافظات يوم عن يوم تجري اتصالات ومحاولات ومبادرات لاعلان ما يسمى بالفدرالية هنا وهناك. وعندما نرجع للسياسة النقدية علينا ان نحسب حسابا ماهي حالة السياسة في مجال المصارف؟. واعتقد من ابرز مشكلات السياسة النقدية هي ازمة المصارف، فعندنا مايقرب من سبعة مصارف حكومية وما يقرب من 42 مصرفا خاصا (اهلي). فالبحث عن هذه المسألة بمعزل عن مشكلة المصارف مشكلة كبيرة. اذا شئنا ان تكون حالة المصارف طبيعية وهي نقطة جوهرية بالنسبة للسياسة النقدية ومن الخطأ التصور ان السياسة النقدية يمكن ان تنهض وتتقدم مالم تكن هناك حياة مصرفية سليمة. الحياة المصرفية في العراق مازالت تعتمد على الدولة حيث ان مصرفين كبيرين يملكان حوالي90٪ من الودائع

المصرفية وما عدا ذلك التي هي 10٪ فتعود للمصارف الاهلية التي هي في الحقيقة اشبه بالبيوت المالية الخاصة وهذه مشكلة كبيرة بالنسبة للعراق. اذا شئنا ان نتقدم خطوة للامام في هذا المجال علينا ان نحسب الحساب لإصلاح القطاع المصرفي بشكل مضبوط. لقد اطلعت على بعض التفاصيل، مؤخرا يقال بان المصرف الاهلي لايستطيع ان يغير موقعه الا بموافقة البنك المركزي، فهل هذا الكلام يمكن ان يكون صحيحا؟ فهذه مسألة خطيرة جدا.

يعني اذا كان عندك موقع في هذه المحلة وتريد تغييره الى محلة اخرى فكم تأخذ من الوقت؟ النقطة الثانية المهمة هل تتعامل الدولة مع المصارف الخاصة بطريقة طبيعية مثلما تتعامل مع المصارف الحكومية؟ اعتقد ان هذا غير قائم الان في العراق.

يعني أن توضع ودائع حكومية في المصارف الخاصة وهذه مشكلة اخرى يجب ان نحسب لها حسابا فالقطاع المصرفي هو من اهم مظاهر السياسة النقدية ولاينبغي النظر الى هذه المسألة بصورة منعزلة.

انا لا اتفق مع الفكرة القائلة ان المسألة فنية فلا يمكن ان تكون مسألة فنية ولديك اقتصاد غير موحد.

فالاقتصاد العراقي الان ليس به ترابط وثيق مثلما موجود لا في السابق ولا بالنسبة للاقتصاديات التي يقودها النفط، يعني في السعودية وقطر يوجد نفط ومناطق الخليج الاخرى وعندما يبحث هذا الموضوع علينا ان نأخذ بنظر الاعتبار حالة القطاع المصرفي.

هنا اطرح فكرة وارجو ان تناقش بشكل واضح، ماهي المشكلة التي تترتب على الصلة بين التضخم والعملة؟ وانا بالحقيقة لحد الان لم استوعبها بشكل كامل فالتضخم في العراق ليس حالة منفصلة عن حالة الاقتصاد، السياسة التجارية في العراق معتمدة الان على الخارج، فانت لاتستطيع الان ان تتقدم في أي مجال مالم تفكر في استيراد هذه السلعة او تلك. ومقابل هذا نلاحظ ان السلع المحلية هي اغلى من السلع المستوردة كالفواكه والخضروات والاشياء الاخرى المماثلة.

لدينا مشكلة في الحقيقة تتعلق بالسياسة التجارية، حيث انها في العراق لاتقوم على الحماية وهي حالة نادرة في العالم ولايمكن لهذا البلد ان يستمر بهذه الطريقة يبقى اقتصادا مفتوحا وتكون النتائج وخيمة. ولاتستطيع ان تتحكم بالعملة ولانستطيع ان نعلن المداولات النقدية بشكل مضبوط اذا لم تكن لديك مفاتيح واضحة لكل الحالة الاقتصادية، فلا القطاع المصرفي ولا السياسة التجارية، اضف الى ذلك السياسة المالية، والتي هي سياسة معتمدة على اساس انه انفاق بالدرجة الاولى لان الموارد مضمونة والمتأتية من النفط واذا حصلت أي مشكلة الان للنفط فان الاقتصاد يتوقف. هناك اكثر من 5 ملايين شخص مرتبطين بالدولة من موظفين ومتقاعدين واذا افترضنا ان عدد افراد العائلة الواحدة 5 اشخاص فان هناك25 مليون شخص مرتبطين بالدولة (5 ملايين ×5 = 25مليون) فهذه مشكلة كبيرة بالنسبة للعراق.

الذي يتكلم عن موضوع العملة من الناحية الفنية ويعزلها عن الحالة المالية والاقتصادية فسيقع في خطأ حيث لايمكن ان يحصل هذا .

البطالة في العراق

وواصل د. مهدي الحافظ حديثه قائلا: ان حالة البطالة في العراق ليست مسألة بسيطة. مؤخرا قيل ان نسبة البطالة اصبحت 15٪، لادري على أي موازين يعتمدون، وماهي المعايير التي تستخدم؟ البطالة حالة مزرية في العراق فهناك اناس لايأكلون وهذه حقيقة ليست مبالغ فيها وانما هي حقيقة واضحة في كل مكان.

وعندما نريد البحث في هذا الموضوع علينا ان نبحث عن ادارة العملة وانا اتفق مع الاستاذ مظهر من الناحية الفنية التي وضعت في الورقة واطلعت عليها والتفاصيل صحيحة، لكن هذه لايمكن ان تجري في مناخ غير المناخ الموجود في العراق.

المناخ الاقتصادي في العراق لايتحمل اعباء جديدة فهذا غير ممكن ولهذا السبب بودي ان اطرح السؤال التالي:

هل هنالك خطة واضحة للبنك المركزي في مجال تبديل العملة ؟ وهذا سؤال مهم فاذا كانت هناك خطة فلابد ان تناقش. واحب ان اعرف ماهو الحال بالنسبة للمجالات الاخرى المرتبطة بالعملة مثل الاسهم ؟ الاسهم يجب ان لاتصير نوعا من التدريج وهذه يجب ان تتكيف مع التغير المحتمل بقيمة العملة العراقية.

هذا موضوع مهم جدا. الشئ الاخر حالة الرواتب والاجور والتي هي في الحقيقة واحدة متصلة بالثانية وهذه ايضا تحتاج الى مناقشة واضحة وصريحة، واعتقد ان ماجرى في تركيا كما ذكر د. مظهر انه جرى في عام2005 وانتهوا في عام 2009 لكن الاقتصاد التركي قبل 2005انتعش وصارت حالة اخرى مختلفة لهذا انا اتصور بان التفكير في هذه المسألة يجب ان يرتبط بخطة واضحة ومدروسة حتى نستطيع ان نتوصل الى نتيجة معقولة.

خالد حميد شلتاغ/
البنك المركزي العراقي

اشارة الى استقلالية البنك المركزي طرحت ايضا وهذه مسألة شبه مقدسة نوقشت مرارا انه استقلالية البنك المركزي العراقي ومسؤوليته الحصرية عن السياسة النقدية وقد اشرتم لها في الورقة. هذه الاستقلالية لاتعني الانعزال، فالبنك المركزي العراقي له صلة وثيقة بالتنسيق مع السياسة المالية ويهتم تماما باوجه التطورات لهذا يساعد البنك المركزي العراقي بشكل متواصل من خلال لجنة الشؤون الاقتصادية في رئاسة الوزراء او وزارة المالية والتنسيق مع وزارة التجارة فيما يخص الاستيرادات واجازات الاستيراد وتنظيمها والتعريفة الجمركية وهناك مجالات تنسيق واسعة وخاصة مع وزارة التخطيط. واوجه التنسيق هذه قد شابها احيانا بعض القصور في الفهم او عدم الاستيعاب من قلة الاعلام تثار فيها كثير من الطروحات مثلما حدث في العام الماضي بشأن استقلالية البنك المركزي. ان هدف سياسة البنك المركزي الاساسية هو استقرار سعر الصرف. موضوع حذف الاصفار وكما اشار اليه الاستاذ مظهر يجعل للبنك المركزي مسؤولية حصرية عن السياسة النقدية مؤسسة وطنية لعلاقة الموضوع بكافة اوجه النشاط الاقتصادي والسياسة المالية ويجعل منها ايضا مؤسسة متفاعلة تعكس اهمية التطور والحفاظ على استقرار سعر الصرف كهدف اساس واستخدام ادوات السياسة النقدية.

ويمكن ان نشير الى النجاحات التي تحققت للسياسة النقدية في كبح جماح التضخم ومع الملاحظات التي اثارها استاذنا العزيز د. مهدي الحافظ كالتشوه في الاقتصاد العراقي والضغوطات الواسعة من الاستيراد ولكن اصبح بنسب مقبولة، واستخدام ادوات السياسة النقدية الاخرى في دعم سياسة الاقراض والتوجه نحو السوق في توفير العملة الاجنبية لاستيرادات القطاع الخاص. هذه كلها ادوات قد لاتكون معلنة كثيرا ولكن البنك المركزي وبشكل متواصل يتعامل مع كافة المؤسسات ذات العلاقة بالاقتصاد. هذا الجانب الوطني للبنك المركزي حول السياسة النقدية، تطلب ايضا التعاون والتنسيق والتكاتف جهود كل الاطراف المعنية مثلما اشار اليه الاساتذة في مداخلاتهم. مشروع حذف الاصفار صحيح انه يشمل كل هذه والاف اخرى من الاعتبارات الفنية واللوجستية والاقتصادية والنفسية وهي عملية معقدة جدا ولهذا تم الاشارة باستمرار وكما يسميها الاستاذ مظهر (مشروع ستراتيجي طويل الامد) بناء على الحاجة الفعلية سمي (مشروع ستراتيجي متوسط الامد) . في هذه الفترة ثمة عوامل عديدة ولكن اهمها هي حسن التوقيت. اشار الاستاذ مظهر الى اهمية مشروع رفع الاصفار وهو مشروع ستراتيجي متوسط او طويل الامد يعتمد على ما تقرره ادارة البنك المركزي. اود الاشارة الى ان هناك قضايا ومشاكل عديدة قد ترتبط بها الاشارات الى الجريمة والتزوير. ان نشاط مكافحة غسل الاموال نشاط جديد في جمهورية العراق، وان هناك مشاكل اقتصادية عديدة طرحتها تحديات المرحلة الانتقالية مثل دكاكين مالية او مؤسسات عائلية. الان اصبح حجم التداول كبيرا على ضوء النشاط الاقتصادي الموجود وطرحت مثلما موجود في كل العالم ولكن في العراق اكثر. ان عمليات التزوير وتهريب العملة أضعف من فرص الاستثمار الموجودة. اما حسن استخدام رأس المال الوطني والودائع التي اشار اليها د. مهدي الحافظ موجودة وهذه تتطلب توسيعها والجهود المشتركة موجودة. واشير هنا الى ان البنك المركزي من خلال عضويته في المجلس المشترك لمكافحة الفساد وتنسيقه مع بعض الجهات الامنية الموجودة لمعالجة ظواهر عديدة من جرائم مالية وتهريب وتزوير....الخ. نأمل ان نطرح الصورة المتفائلة.

نجاح العلي/مدير مصرف

من المشاكل التي يعاني منها مدراء المصارف هي حجم الكتلة النقدية وقد عملت كمدير للمصرف في عدة فروع وفي احد الفروع تصل الايداعات اليومية الى 48 مليار دينار مما يضطرنا يوميا الى ان نطلب السيارات لنقل هذه الاموال ويمكنكم تصور كم نحتاج حتى نكمل الاستلام، هذا اضافة الى مخاطر عملية نقلها. وفي فرع ثان عملت به كنا نستلم 7- 8 مليار دينار ايضا حيث كنا نتأخر في الدوام حتى الرابعة او الخامسة عصرا كي نستطيع ان نكمل العمل ونغادر المصرف، هذا اضافة الى مخاطر نقلها والمزور الى جانب الصفقات التي تحدث بين بعض امناء الصناديق والزبائن فهذه كلها موجودة. ولكن لو تسألونني: هل بامكان المصارف حاليا ادارة

عملية استبدال العملة ام لا؟ اقول لا، اولا من ناحية العنصر البشري حيث لاتوجد كوادر متمكنة من امناء الصناديق من الناحيتين الكمية والنوعية.

أعني الفرعين الكبيرين اللذين عملت فيهما عندما ارسل الاموال يرسل لي اشعار بان كثير من المبالغ مزورة مع العلم انهم يستلمون يوميا مليارات الدنانير ولديهم خبرة كبيرة في اكتشاف المزور ولكن مع ذلك تمرر عليهم، فكادر متمكن لاستلام العملة المطروحة غير متوفر في المصارف.

اما بالنسبة للمكننة فالمكائن الموجودة في مصرف الرافدين متهالكة، قديمة وقليلة العدد، واحيانا نستخدم ماكنة واحدة من قبل امناء صناديق اثنين واسبوعيا يزورنا خبراء الورشة لتصليحها حيث تتعرض للعطل يوميا.

وحتى انجز مهمة تبديل العملة يجب ان نجهز بمكائن حديثة وكافية ودقيقة وقادرة على اكتشاف العملة المزيفة وهذا كله غير موجود.

يعني مصرف الرافدين الذي هو اعرق مصرف واقدم مصرف والمصرف الاول لا تتوفر عنده الامكانية، فكيف بباقي المصارف كالمصارف الاهلية والمصارف المتخصصة؟ وعن قضية الفساد، فالفساد في المصارف لا يختلف عما موجود في بقية دوائر الدولة. ففي عام 2003 اشاع كثير من الزبائن لامناء الصناديق بان الاموال التي تم تبديلها انذاك تذهب مباشرة من المصرف الى المحرقة وبناء على ذلك عقدت صفقات بحيث ان احد الفروع كان لديه نقص اكثر من مليار دينار او مزور حيث تم الاستلام على اساس انه يذهب للمحرقة.

حاليا الفساد اكثر مما كان عليه في عام 2003 ويمكن ان تحدث مصيبة في الاستبدال هذا واقع حال.

حامد خلف/محاسب

الخطة النقدية تمر عبر تعاملات على مستوى الشعب والتي فيها اخفاقات، فالعملة المتداولة حاليا ومن خلال تعاملنا مع الشارع والاسواق وسيارات الاجرة نرى عدم تطورها فالتضخم له اثار كثيرة، فمثلا ان الفئات الصغيرة من العملات كالـ 250 دينارا تكاد تنتهي. كما ان عملة الـ 50 دينار ليس لها دور وهي مختفية من التداول لانه ليس هناك اضافة او تجديد ونحن نتنازل عن الربع دينار الى سائق سيارات الاجرة لانه لايقوم بارجاعه الينا حيث ليس لديه ارباع او انصاف ولا توجد متابعة لهذا الامر والا لماذا تختفي الـ 250 دينارا وتختفي الخمسمائة دينار وبالمستقبل يمكن حتى الالف دينار يمكن ان تختفي ونبقى نتعامل بالخمسة الاف والعشرة الاف. وخطة تبديل العملة الجديدة ستكون ادق حيث فيها عملات صغيرة كالعشر فلوس والخمسين فلسا وهذه لها قيمة حيث لاننسى ان عملتنا التي نتعامل بها اليوم عندما تشتري ورقة بيضاء (A4)من المكتبة فانك تدفع 250 دينارا لانه لاتوجد اجزاء صغيرة من العملة. هذه العملية الان مربكة فكيف اذا جائتنا العملة الجديدة؟ فهل اخذ البنك المركزي هذه الجزيئات بنظر الاعتبار؟ وهل يتعامل بها الناس بسهولة وسلاسة ؟

مسلم عوينة/محاسب

ان تضخم العملة النقدية هو نتيجة لوضع معين الا اننا نعالج النتائج دون

معالجة الاسباب، المتمثلة بسوء الوضع الاقتصادي وعدم وجود انتاج وتنمية، ولهذا يجب ان ينصب الاهتمام على تطوير الوضع الاقتصادي. لهذا فان تبديل العملة ليست مسألة فنية غير مرتبطة بالوضع الاقتصادي ومعزولة عنه، بل يجب ان نعالج الاسباب التي ادت الى هذا الوضع الاقتصادي والتضخم في الكتلة النقدية. والاسباب هي ضعف التنمية وتوقف الاعمار حيث لاتوجد تنمية ولا اعادة اعمار منذ عشر سنوات فالاساس هو تطوير الوضع الاقتصادي بجميع وجوهه.

رائد فهمي: عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي

هناك بعض الملاحظات في ضوء المناقشات. اذا اخذنا هذا المشروع بشكل مجرد في ضوء المعطيات التي تفضل بعرضها د.مظهر هو مطلوب العمل في كل الميادين والعمليات المرتبطة بحذف الاصفار وهي واضحة. والسؤال الذي يطرح نفسه هو ان هذا الاجراء وهذا المشروع وهذه الخطوة هل يمكن ان تتحقق من قبل البنك المركزي بمعزل عن الموقع العام للدولة؟ سياسة عامة للدولة؟ ان نجاح المشروع مترابط مع متطلبات، ففي هذا المشروع جوانب عديدة اعلامية وعلمية وفيه المصارف وهو ليس خطوة منعزلة يمكن بكل حلقاته للبنك المركزي. فهناك حلقات اخرى هي خارج البنك المركزي وهي للدولة فهذا قرار للدولة وللحكومة وليس حكرا لقرار البنك المركزي. وقد لاحظنا اليوم عندما اثير هذا الموضوع فان مستشار رئيس الوزراء يتكلم بشكل والحكومة ساكتة والبنك المركزي له رأي، فاذن هناك شرط معين يبدو مختلا من البداية. والنقطة الثانية، كل الحديث يدور عن متطلبات النجاح للمشروع، السؤال هو عن التوقيت، وما هي بشكل نظري معالم التوقيت المناسب؟ وما هو الحد الادنى للشروط التي ينبغي ان تتوفر لكي تنطلق هكذا عملية؟ هناك شروط متعلقة بثبات العملة وقد استطاع البنك المركزي على مدى سنوات وبهذا الاحتياطي الضخم ان يعمل على ثبات العملة ولكن في هذا تداعيات اخرى صح ام خطأ يعني هل من الصحيح ان يتراكم لدينا هكذا احتياطي؟ حيث فيه جانب ايجابي وجانب سلبي . هناك حد معين للعملة، درجة من الاستقرار بسبب هذا الاحتياطي الكبير. اذا نتحدث عن التضخم وهذه النقطة تحدث بها د.مهدي الحافظ وذكر بان الاقتصاد غير موحد، يعني نذكر ماهو دور اقليم كردستان وهل له علاقة في هذا الموضوع خاصة انه تطرح اليوم قضية الاقاليم. ثانيا ان هذا الاجراء التقني قد تكون له اثار مباشرة ولايؤثر ولكن هو غير مباشر هل فيه تاثير وعلاقة مع جوانب اقتصادية ؟ نعم غير مباشر بحكم تداعيات مختلفة واحدة منها سيسهل التداول، هذه قيمة اقتصادية وهذا يتبع كفاءة معينة. التعاملات قد تكون من وجهة نظر البنك المركزي غير سياسية ولكن اليوم لايوجد شيء غير قابل للتوظيف سياسيا. نحتاج اليوم اذن الى دراسة حقيقية لجميع البلدان التي تمت بها عملية استبدال العملة، ماهي شروط الحد الادنى التي كانت متوفرة والتي ينبغي لان تتم العملية، فهناك شروط اقتصادية وشروط نقدية وهناك شروط مؤسسية وهناك شروط امنية .. والنقطة

الاخرى المرتبطة التي اريد اثارتها، هي انه هل قرر البنك المركزي اليوم ان هذه الفترة هي اللحظة المناسبة للتغيير؟ يعني ان البنك المركزي قد قرر وان الموضوع يستحق الاثارة اليوم بقوة وليس قبل سنتين مثلا؟ هذا السؤال يطرح، فالتساؤلات التي طرحها د. مهدي بمعنى انه ضمن رؤية البنك المركزي، وقد اثير موضوع المصارف والتي فيها اكثر من مشكلة. وقد ذكر د. مهدي عدم تعامل الحكومة مع المصارف الاهلية وقد اتخذ هذا القرار على ارضية مصرف الوركاء وقبل مصرف الوركاء كانت العديد من المؤسسات الحكومية قد اودعت اموالها في مصارف اهلية. عندما حدثت مشكلة الوركاء صار هناك اشكالية لهذه المؤسسات الحكومية بالتسديد ودفع الرواتب وغيرها وقد استخدمت هذة الحالة كذريعة للتعميم ام انها مشكلة خاصة ببنك معين، وهل انها كانت كافية للاطلاق؟ المصارف الخاصة اليوم يتميز نشاطها في الاقراض بانه قليل والاموال تتداول مصرفيا ولا تعاد وظيفتها الاقتصادية في التنمية الاقتصادية وغيرها. هناك اسباب عامة فالمصارف الخاصة ليست لديها وظيفة مصرفية رئيسة اليوم بالمعنى الحقيقي، ونحن اليوم نتحدث عن سوق الاوراق المالية . هل من الممكن الحديث عن اقتصاد سوق بدون وجود سوق مالية متطورة؟ اذن لايوجد هذا التناسق الكبير، نعم البنك المركزي يمكن ان تكون لديه رؤية متكاملة وهي رؤية محافظة بالدرجة الكبيرة في ظل وضع متغير جدا. وعلى الاقل ان العملة تبقى ثابتة وعمل تراكم احتياطي نقدي كبير واستطيع مواجهة العواصف الكبيرة رغم ان قضية التضخم في العراق موجودة، حيث ان التضخم ظاهرة نقدية وهناك ظاهرة غير نقدية والحديث يطرح بين الاقتصاديين العراقيين ان جزء كبيرا من الظاهرة النقدية في العراق هي ظاهرة تضخمية، يعني الكهرباء كم تكلف والمستورد كم يكلف والكهرباء مكلفة بشكل كبير وتؤدي الى رفع الاسعار .

إن سياسة البنك المركزي في المحافظة على العملة باعتبارها الهدف الارأس، تتسبب في زيادة تكلفة الاقراض وتقييد حجمه ما يؤثر سلباً على عملية النمو الاقتصادي، بمعنى اعادة تنشيط الاقتصاد. لذلك ينبغي الأخذ بعين الاعتبار أن للبنك المركزي هدفين اساسيين، الأول استقرار العملة ، ولكن هناك قضية النمو، وقد تم دفع هذا الهدف إلى الوراء ليكون محصلة غير مباشرة لهدف استقرار العملة والتحكم بالتضخم. بمعنى نقوم بتثبيت العملة واذا بقي شيء، كما شرح ذلك محافظ البنك المركزي،د. سنان الشبيبي، حيث قال ما معناه أن البنك المركزي يبني للاقتصاد الوطني وللدولة شيئا متينا ومستقرا وعلى العاملين والفاعلين الاقتصاديين الاستفادة من هذا الاطار والوضع النقدي الأكثر استقراراً، الذي يقلل من المخاطر وعدم اليقين الذي يقترن بتذبذب سعر الصرف وعدم ثبات العملة، ما يوفر ظروفاً افضل للمبادلات التجارية والاقتصادية عموماً، ورؤية اوضح تشجع على اجراء التعاقدات، اي ان السياسية النقدية تركز على خلق ايجاد بيئة اقتصادية مستقرة. هذا الكلام للدكتور سنان ويفترض ان هناك اليات اقتصادية فاعلة وتستطيع ان تستفيد من هذه البيئة الأكثر استقراراً، ولكن واقع

الحال أنه اليوم ليس لدينا اقتصاد سوق فعلي ولاتوجد الاليات التنظيمية للسوق ولايوجد لدينا جهاز مصرفي فاعل ولا توجد عملية شفافة بتحديد الاسعار اليوم، كما لاتوجد ضوابط على النوعية ولايوجد لدينا اي تخطيط اقتصادي فعلي .

بالمحصلة، التساؤلات التي تدور حول دور البنك المركزي وسياسته تتعلق بمدى فاعلية هذه السياسة في تنشيط الاقتصاد الوطني والتي تفترض وجود اجهزة قادرة على التطبيق وآليات تكاد تكون غائبة. وفيما يخص مشروع حذف الأصفار، تبرز اهمية تحديد شروط التوقيت الجيد، وكيف يندرج هذا المشروع في تسلسل اولويات البنك المركزي. وإذ يفترض نجاح المشروع وجود رقابة فعّالة على البنوك، يؤشر المراقبون إلى مظاهر ضعف في رقابة البنك المركزي على المصارف، وإلاّ كيف نفسر التجاوزات والخروقات الادارية والمالية التي شابت عمل مصرف الوركاء ومصرف آخر في البصرة بوجود البنك المركزي؟

د. مظهر محمد صالح/ نائب محافظ البنك المركزي العراقي

ان البنك المركزي يتحمل عبئا في المحافظة على التوازن في ظل اوضاع عديمة الانتاج، حيث يواجه البنك انفاقا حكوميا هائلا . من جهة اخرى، السياسة الاقتصادية الفاشلة هي التي تقوم بالتضخم حيث ان الجهاز المركزي للاحصاء هو الذي يقيس التضخم في العراق. هناك خطة رفعت للحكومة اذا ما اعتمدت يفترض مناقشتها. البنك المركزي مؤسسة سيادية موحدة، وعن التوقيت فهو قيد الحكومة العراقية ولازال الموضوع قيد الدراسة ومتروكة للخطة الامنية المناسبة وقرار مجلس النواب.

وردا على تساؤل الاستاذ فائق الدباس الذي بين بان سعر صرف الدينار العراقي كان 117–118 ألف دينار للمائة دولار وبعد طرح المشروع ارتفع سعر الصرف الى 120 ألف دينارواالذي خلق ارباكا في السوق، أجاب د. مظهر قائلا: ان سعر الدولار مرتبط بالمزاد وليس بهذا المشروع، مؤكدا على اهمية التفاعل بين السياسات الاقتصادية والمالية والنقدية .. وعن موضوع المصارف فهي مشكلة فقانون البنك لعام 1976 لايعترف الا بالمصارف الحكومية ثم بعد ذلك اجاز المصارف الاهلية في فترة الحصار. وبعد عام 2003 صدر قانون للمصارف علما ان مصرفي الرشيد والرافدين يعملان بدون رأسمال ويعتمدان على نشاطهما في الادخار والقرض.

د. ماجد الصوري/رئيس فريق اصلاح المصارف العراقية –البنك الدولي، مستشار سابق في البنك المركزي

اود التحدث عن موضوعين اعتقد بأنهما ضروريان جدا. أولا: بين المشاكل الاقتصادية وموضوع السياسة النقدية والعملة. السياسة النقدية من الواجب ان تهيء الظروف المناسبة للنشاط الاقتصادي والتي هي الثقة بالعملة وقوة العملة والاستقرار النقدي . هذه هي واجبات السياسة النقدية، واية مشكلة خارج هذه السياسة يجب إن يسأل عنها في السياسة الاقتصادية والسياسة المالية. لذلك فالمشاكل الاقتصادية كانت وتبقى وستستمر لانه في كل مرة من المرات يظهر نوع من المشاكل

الاقتصادية. أما السياسة النقدية فواجبها التعامل بالدينار بدلا من التعامل بالعملات الاخرى، اذا ضعف الدينار واذا لاتوجد لدينا بالدينار يمكن التعامل مع العملات الاخرى. هذه القوة ليست فقط داخلية وانما خارجية أيضا، يعني أي مستثمر إذا جاء ولاحظ إن هناك استقرارا بالسياسة النقدية وبالعملة المحلية فسيتشجع على عملية الاستثمار لان الاستثمارات الخاصة به سوف لن تتغير بالسرعة المختلفة حيث يستثمر مليار دولار وتصبح قيمتها بالمستقبل نصف مليار نتيجة لانخفاض العملة المحلية حيث التداولات كلها بالعملة المحلية. ولذلك يجب فصل عملية السياسة النقدية بالكامل عن المشاكل الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع او الاقتصاد العراقي. ومن هنا فان عملية تغيير العملة، وكما قال د. مظهر،هي عملية ادارة النقود، ادارة الكتلة النقدية وليست السياسة النقدية وهذه في تصوري فكل المبررات التي اثارها د.مظهر هي صحيحة جدا ونتفق معها. ولذلك فعملية تغيير العملة سوف لن يعمل أية هزة اقتصادية وانما ستساعد على امتصاص الهزات الاقتصادية.

اما بالنسبة لموضوع التزييف فهو موجود في اقوى عملة في العالم واكثر العملات تداولا في العالم هي الدولار واليورو والين واليوان وكل هذه العملات موجود فيها تزييف. اروي لكم حادثة بسيطة جدا حصلت في كازاخستان عندما كنت هناك مديرا لاحد البنوك فيها حيث جاءنا احد الباكستانيين واعطاني ورقتين فئة 100دولار لكل منهما وقال لي رجاء افحص هاتين الورقتين وقد ارسلتهما للفحص وقد اثبت الفحص الاولي بانها عملة اعتيادية وليست مزيفة، الا ان الزبون قال لي لا هذه العملة مزيفة وتلك صحيحة. وهذه العملة المزيفة لايتم كشفها الا اذا كان الكاشف دقيق جدا حتى يمكن تمييزها ولكن بعد ستة اشهر او سنة يتغير لونها، وهذا يعني انه خلال الستة الاشهر الاولى يمكن تداولها بشكل كامل..توجد عمليات التزييف لاحسن العملات في العالم ومعروفة الدول التي تقوم بالتزييف فهي دول " متخصصة".

ان عملية تغيير العملة وبالمواصفات التي يريدها البنك المركزي وهي مواصفات عالية جدا مهما كانت التكلفة ستقلل من عملية التزييف لكن في نفس الوقت ستكتشف كل عمليات التزييف للعملة السابقة لانه عند التغيير سيصير كشف العملات السابقة لذلك هذا الموضوع تغيير العملة بالعكس لايزيد من عمليات التزوير وانما يكشف عمليات التزوير الموجودة.

هذه المسائل المطروحة. اما القول بانه سوف لن تزيف العملة فهذا غير صحيح.. انها ستزيف بعد فترة طويلة الى ان يكتشفوا ماهي المواصفات الموجودة في العملة وسيعملوا مكائن خاصة واليات معينة للتزييف، لكن ماهي قدرة عملية اكتشاف التزييف فهذه المشاكل موجودة ومستمرة.

تبقى المسألة الاخرى في موضوع العملة النقدية وفئات العملة النقدية، في تصوري فئة العملة النقدية من 25 ودرهم وربع ونصف ودينارين اعتقد انها ستشكل مشكلة معينة وتم اقتراح 10 فلوس و25 فلسا و50 فلسا و 100 فلسا و250 فلسا.

المشكلة الاساسية من الان اننا سنعترف بان هناك تضخما في الاسعار لانه اليوم

عندما نشتري ويبقى 250 دينارا فان البائع يعطيك بدله شخاطا و علكا.... والاسعار تزيد وفي تصوري وجود العشر فلوس مهم جدا لعمليات التداول من اجل ان نزيد من قيمة العملة والثقة بها.

موضوع الأسهم

وواصل د. ماجد الصوري حديثه عن موضوع الاسهم الذي اعتبره مهم جدا ويجب حله، ولكن ماهو الحل بالنسبة الى تضخم العملة فليست مشكلة قيمة الاسهم الاسمية، الحد الادنى للسهم هو دينار كيف ذلك؟ واذا كان كله مضبوطا وصحيحا فيمكن تحويله الى فلس ويصير بعد ذلك كل الف سهم بدينار، هذه مسألة لها حل. ولكن ماهو الحل الذي صار عند تضخم العملة، فهناك اموال كثيرة جدا كان سعرها بدينار ولازالت بدينار وعدد الاسهم بقي نفسه. هذه هي المشكلة الاساسية. عدد الاسهم المتوارثة سابقا كيف سنحلها يعني خسرنا بها وسنخسر بها مرة اخرى. فلذلك هذا الموضوع يجب ان يحل بشكل محدد وهذا في تصوري احدى المشاكل التي يجب ان تحل بشكل منطقي وبحيث لايصير فيها غبن لاي مالك للاسهم رغم ان عدد الاسهم الموجودة بالتداول قليلة جدا ولذلك زيادة عدد الاسهم للشركات الجديدة يمكن ان تحل حيث انه كل الف سهم تصير بدينار ويقل رأس المال وتنتهي المشكلة.

يعني بدلا مما يصبح بالتريليونات يصبح بالمليارات، وبدلا مما يصبح بالمليارات يصبح بالملايين.

الخلاصة

من خلال المناقشات يمكن بلورة الخلاصات النهائية التي تم التوصل اليها في هذه الطاولة نشير اليها بما يلي :

● من الشروط الأساسية لتنفيذ مشروع حذف الاصفار، وجوب تحقق المستوى الجيد من الاستقرار الاقتصادي وهو ما لم يتحقق في هذه المرحلة. فالاقتصاد مرتبك ولا توجد خطة اقتصادية لإستراتيجية تنموية مستدامة لهذا فان من عوامل نجاح هذا المشروع وجود هذا الاستقرار .

● ضرورة دراسة التوقيت المناسب لتنفيذ مشروع حذف الاصفار بعيدا عن التسرع وما يترتب عليه من حالات إرباك غير محسوبة لاسيما وان الوضع العام في البلاد ليس فقط الاقتصادي وإنما الأمني والاجتماعي والتشريعي غير متوفر .

● الأهمية الكبرى لوجود نظام مصرفي موحد في أهدافه وفي أساليب عمله بما يتناسب مع احتواء التطورات في الجوانب الاقتصادية وعمليات الاستثمار بالإضافة إلى توفر آليات كفوءة في الشروع بعملية تبديل العملة في مواجهة حالات العملة المزورة التي يحتمل إن تتدفق عند تنفيذ مشروع تبديل العملة وهذا يتطلب بين أمور عديدة استخدام أجهزة عالية التقنية في المصارف الأهلية والحكومية .

● ضرورة وجود عملية شفافة وأساليب علمية دقيقة لتحديد الأسعار اخذين بعين الاعتبار مدى تطور وتوازن القطاعات الاقتصادية المختلفة، وحساب دقيق لقياس حجم الطلب الكلي على السلع والخدمات وحجم العرض المتاح في السوق والاختلال بينهما بالإضافة إلى حساب القوة الشرائية بوصفها عوامل مباشرة ومؤثرة في مستوى الأسعار وهيكلها .

* نظمت الطاولة المستديرة محلية المثقفين في الحزب الشيوعي العراقي، والتي قامت بإعداد هذه الخلاصة عن أعمال الطاولة، وخصت مجلة (الثقافة الجديدة) بنشرها.

نصوص
قديمة

الطريق التاريخي لوحدة الأمة العربية *

عـــامـــر عـبـــد الله

لعدة قرون خلت تعرض الوطن العربي الكائن بين المحيط والخليج الى تجزئة مستديمة اتخذت لها صورا متباينة وأشكالا شتى ولسنا الآن بصدد متابعة مجرى هذه العملية المعقدة وعرض صورها. ولكن يكفي أن نقول بان الوطن العربي قد تعرض للتجزئة منذ انحلال الدولة العربية التي كانت تدين أمصارها المترامية لعاصمة الملك (بغداد) بل منذ بدء بوادر الانحلال والضعف في هيمنة ورقابة السلطة السياسية المركزية على الأقاليم المترامية في أطراف الدولة. وقد شهد العالم العربي ولايات تقطع من جسم الدولة من جانب بعض الولاة والحكام، وأصقاعا أخرى تنتزع عن طريق الاحتلال والغزو من جانب الأقوام التي كانت تقطن على تخوم الدولة العربية.

منذ ذلك التأريخ البعيد، والوطن العربي يعيش مجزءا، وحتى في عهد الحكم العثماني لم تتوحد بلاد العرب، لا كما " توحدت " أوروبا على أيام نابليون، أو على أيام هتلر. يضاف الى ذلك، أن الشرق العربي وان ظل موحدا تحت لواء الطغيان العثماني حتى الحرب العالمية الأولى بسبب قربه من مركز "الخلافة" ! إلا أن مصر وبلدان المغرب العربي قد تعرضت للغزو الأوربي منذ مستهل القرن التاسع عشر، وتوزع الغزاة من الانجليز والفرنسيين والألمان والأسبان الأرض العربية في الشمال الأفريقي. وتحت وطأة الاستعباد العثماني المديد، واقتحام بعض الأراضي العربية من جانب المستعمرين الأوربيين وتأهب أوروبا للتطويح بالدولة العثمانية واقتحام الشرق ، برزت بوضوح معالم حركة التحرر القومي لدى العرب، وتبلورت ثورات المغرب وانتفاضات المشرق في تيار قومي كفاحي ينشد أولا وقبل كل شيء الخلاص من السيطرة الأجنبية والظفر بالاستقلال. وهكذا نجد أن المغرب العربي الذي تعرض قبل غيره من أصقاع الوطن العربي الى الغزو الأوربي، قد شغل لسنوات طويلة في كفاح دموي عنيد، للذود عن حريته والفوز باستقلاله. ولذلك ظل كفاح المغرب بسبب الظروف المعقدة المفرطة بالصعوبة التي مر بها يتصف بطابع تحرري صرف. ويعني ذلك أن الكفاح المرير الذي كان يشنه كل بلد من بلدان المغرب العربي لانتزاع حريته، لم يكن ممتزجا بشكل واضح بالكفاح من اجل الوحدة العربية. والأمر ذاته ينطبق تقريبا

على مصر، التي تعرضت قبل بلدان المشرق الأخرى الى الاحتلال البريطاني، وعاشت في أيام الدولة الفاطمية وحتى في أيام الدولة العثمانية ولأمد طويل نسبيا في حالة من الاستقلال الذاتي على عهد الأسرة العلوية كما هو معروف. وبسبب من هذه الظروف الخاصة لم يمتزج كفاح الشعب المصري بشكل واضح ضد الاحتلال الأجنبي وفي سبيل الحصول على الاستقلال الناجز بالكفاح من اجل وحدة الأمة العربية. ومن هنا يتبين، أن مسالة الوحدة العربية، لم تعرض على بساط البحث والعمل في المغرب العربي ومصر كما عرضت في الشرق العربي قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى. ونقول أن الشرق العربي كان موطن الدعوة الى الوحدة العربية وكانت شعوبه أكثر استيعابا لجوهرها وإدراكا لأهدافهم. وبإمكان المرء أن يتأكد من هذه الحقائق بمقارنة شعارات الكفاح والمناهج السياسية للأحزاب، وبالتعرف على أفكار الجماهير في كل من مصر وبلدان المغرب من جهة، وفي بلدان المشرق من الجهة الأخرى، بل أن آثار ذلك لما تزل قائمة على الرغم من تطور حركة التحرر القومي العربي وانتشار أفكارهم في كل أرجاء العالم العربي. وحتى في مصر – التي تتصدى قيادتها الرسمية اليوم لحمل لواء الوحدة العربية لم تستوعب الغالبية العظمى من الشعب المصري مفهوم الوحدة العربية وجدواها حتى عهد قريب بل ولم تبلغ في وعيها لأهداف ومبادئ حركة التحرر العربي ذلك المستوى الذي يمكن تلمسه بوضوح، في أي من بلدان الشرق العربي كسورية أو العراق أو الأردن. ولهذا السبب جاء نص الدستور المصري عام 1956 على أن مصر جزء لايتجزأ من الأمة العربية أشبه بمفاجأة سارة بالنسبة للعرب. ونحن إذ نذهب الى القول بان الشرق العربي قد شهد مولد حركة التحرر القومي والدعوة الى الوحدة العربية، فإنما نريد فقط أن نعطي تقديرا موضوعيا للمسألة دون أي هدف آخر. فلماذا كان المشرق العربي، لا المغرب ولا مصر –الموطن الأول لحركة التحرر العربي، والوحدة العربية ؟! ليس في ذلك مايعطي لبلدان المشرق العربي أي اعتبار. كل ما في الأمر أن نسق السير لحركة التطور العامة في العالم العربي، قد بدأ يختل منذ عهد بعيد ولاسيما منذ أن بدأت بلدان المغرب تتعرض للغزو الأوربي، وتكافحه ومنذ أن استطاعت مصر أن تعيش في كيان إقليمي يتمتع بشيء من الاستقلال الذاتي ، رغم أن هذا الكيان قد تعرض فيما بعد الى الاحتلال الأجنبي. ولهذا يمكن القول أن الشمال الأفريقي ومعه مصر، قد دخل واقعيا في طور يختلف اختلافا كليا عن نظيره في المشرق، وكانت تلك أول مرحلة جديدة من مراحل التجزئة. أما المشرق العربي، فقد ظل حتى الحرب العالمية الأولى، ولايات متماثلة الأوضاع والشروط تقريبا، في ظل السيطرة العثمانية، كما بقيت هذه الولايات في تداخل اقرب وأوثق من سواها بالنسبة لبلدان المغرب ومصر. وكان لذلك كله أثره طبعا في الحفاظ على حد أدنى من تماثل الظروف وأهداف الكفاح ونمط التطور العام – بالنسبة لبلدان المشرق. وكان من الطبيعي إذن، أن تولد في هذا الميدان دون سواه من أرجاء العالم العربي، حركة التحرر والوحدة القومية. إن الانفصام الواقعي بين المشرق والمغرب، يمكن التعرف عليه بالدقة، من طبيعة الدولة العربية التي كان يفكر بإنشائها عرب المشرق قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى. إن نظرة واحدة الى كيان هذه الدولة المرجوة تعطي الدليل على أن طموح العرب الى التحرر والوحدة، لم يتجاوز نطاق بلدان الشرق العربي –دون أن يشمل مصر أو

بلدان المغرب. وقد تجسد هذا الطموح – الذي لم يكن له نظير في المغرب ومصر – في تيار كفاحي ملموس، اتخذ شكل حركة تحررية شاملة قبيل الحرب العالمية الأخيرة. ولاشك أن تفاقم الطغيان العثماني، وسياسة التتريك التي أريد فرضها على العرب، وتعاظم الوعي السياسي في الشرق، قد لعب دوره في تنشيط هذه الحركة وتقوية ساعدها. إلا أن الانجليز والفرنسيين قد بادروا الى استثمار هذه الحركة في حربهم ضد العثمانيين ، وعملوا على تحويلهم عن وجهة سيرها – مستغلين بذلك ضعف القيادة العربية آنذاك واستعدادها للمساومة على مصير العرب ، وقد أصبح معروفا للجميع مسلك الشريف حسين في الثورة العربية – كما اتضح ذلك من مراسلات حسين مع مكماهون، ومواقف ومساومات أبنائه من بعده، ثم انحدارهم أخيرا الى حضيض الخيانة. يضاف الى ذلك نكاية الانجليز والفرنسيين بالعرب، وتآمرهم الخفي على اقتسام العالم العربي والتحكم في مصيره – بعد تمزيقه الى ولايات ودويلات – كما اتضح فيما بعد من اتفاقية (سايكس – بيكو) و (سان ريمو) وغيرهما، وأخيرا في تسليم فلسطين الى الصهاينة وفاء بعهد (بلفور) المشؤوم.

***

هكذا شهد العالم العربي عملية من التجزئة اتخذت لها ثلاثة مسالك:

– غزو المغرب ومصر وتجزئتهما.

– فصل المغرب ومصر عن المشرق.

– غزو المشرق فيما بعد وتقسيمه.

***

وعلى هذا النحو، أصبح الوطن العربي برمته مجزءا، فاخضع شطر منه لبريطانيا والآخر لفرنسا، كما تعرض المغرب العربي – قبيل الحرب العالمية الأخيرة وأثناءها وبعدها – الى موجة جديدة من الاحتلال الايطالي والألماني ، ثم الى تداول وسيطرة مركبة من جانب الدول الاستعمارية. من هذا يتبين أن التجزئة لم تكن من صنع العرب، وإنما فرضت عليهم فرضا، فأصبحت واقعا. ونتيجة لهذا الواقع، واستطالة أمد السيطرة الاستعمارية، واتساع رقعة العالم العربي التي تلعب دورها السلبي المؤثر في بلد متأخر حضاريا – بالإضافة الى عوامل تاريخية أخرى – عاشت البلدان العربية في ظل أوضاع متباينة – الأمر الذي اخل إخلالا جذريا بنمط السير للأمة العربية. وقد أدى ذلك بطبيعة الحال، الى عرقلة التطور الطبيعي للقضية القومية، فلم تسلك البلدان العربية المجزأة في تطورها العام سبيلا واحدا أو سبيلا متماثلا، وإنما تعرضت الى عملية تطور لامتناظر في مختلف أوضاعها وأوجه حياتها. يضاف الى ذلك أن الاستعمار الذي جزء الوطن العربي وأقام بين أجزائه الحدود والسدود، قد استهدف – من اجل إحكام سيطرته – الى تعميق التفاوت بين بلد عربي وآخر، لكي يقضي مقدما على عناصر التلاقي والتلاحم بين هذه الأجزاء ويبقى عليها مجزأة الأوصال الى النهاية. ومما هو جدير بالملاحظة أيضا بهذا الصدد، هو تباين أسلوب التحكم والسيطرة لكل من الاستعمارين البريطاني والفرنسي خاصة، وكذلك تباين أشكال الحكم الاستعماري التي تصطفي لهذا البلد أو ذاك. وكان من شان ذلك، بالطبع، انه لعب بمضي الزمن دوره في تعميق التفاوت بين أوضاع وظروف بلد عربي معين وبين أوضاع وظروف بلد عربي آخر.

من الناحية السياسية

تكفينا نظرة واحدة الى رقعة العالم

العربي، فماذا نرى:
- بلدانا عربية تعرضت للحكم المباشر من جانب الانكليز والفرنسيين والطليان وغيرهم.
- بلدانا أخرى وضعت تحت الحماية أو الانتداب.
- بلدانا محكومة بمعاهدات ومواثيق.
- بلدانا مستقلة متحررة، وأخرى مستقلة استقلالا معيبا. يضاف الى ذلك كله تباين في أنظمة الحكم: جمهوريات، وملكيات، ومشيخات، وإمامات، وسلطنات ...!

من الناحية الاجتماعية

باستطاعة كل فرد أن يلمس مدى التفاوت في الأوضاع والعلائق الاجتماعية –في المألوفات اليومية والمواضعات وبعض التقاليد –بين جزء من الوطن العربي وأجزائه الأخرى. بين سورية أو لبنان أو مصر مثلا – وبين اليمن أو العربية السعودية أو السودان، بين المستويات الحضارية والنظم الاجتماعية والعلائق الحقوقية، بين نجد وحضرموت مثلا، وبين لبنان وسورية، بين بلد من المغرب وبلد آخر من المشرق. وليس بنا من حاجة الى الاستشهادات والمقارنات بين مختلف أوجه حياة المجتمعات العربية في مختلف أوطانها المجزأة المتباعدة. فهي معروفة للجميع.

من ناحية التفاوت في مستوى التطور الاقتصادي

تختلف أجزاء الوطن العربي عن بعضها البعض في مستويات تطورها الاقتصادي وثمة ظروف عديدة وعوامل شتى. وقد لعبت دورها في إحداث وتعميق هذا التفاوت. ونظرة واحدة على البلدان العربية المجزأة تكفي لتلمس ذلك التفاوت الواضح بين مستويات تطورها الاقتصادي. ويكفي أن نعقد مقارنة أولية بين العراق وحضرموت ، بين سورية ومراكش، بين مصر واليمن، بين لبنان أو ليبيا أو السودان أو تونس الخ . لنتبين مدى هذا التفاوت.

من ناحية التفاوت في مستوى التطور الثقافي

وللأسباب عينها تقريبا، حصل تفاوت ملحوظ في مستوى التطور الثقافي بين مختلف أجزاء الوطن العربي. ولنأخذ مثلا على ذلك من: تفاوت نسبة الأمية ومدى انتشار التعليم بين لبنان أو سورية أو مصر، وبين قبائل البدو في صحراء الجزيرة العربية أو على تخومها... بل حتى بين السكان الحضر في اليمن أو العراق أو السودان.

***

ونوجز ماسبق فنقول: أن ثمة تباينا في الأوضاع السياسية والاجتماعية وفي مستويات التطور الاقتصادي والثقافي –بين مختلف أجزاء الوطن العربي. هذه هي الحقيقة الأولى، أما الحقيقة الثانية فهي أن هذه الصور من التباين، إنما تعكس في التحليل الأخير تباينا في أشكال العلائق الطبقية التي تقف فيها مختلف فئات المجتمعات العربية بعضها من البعض في العملية الاجتماعية للإنتاج. ونحن إذ نقول تباينا في " أشكال " العلائق الطبقية لانعني تباينا أو اختلافا جذريا في (الطبيعة الأساسية) لهذه العلائق، لان الطبيعة الأساسية لعلائق الإنتاج في مختلف أجزاء العالم العربي، تكاد تكون متماثلة. أما التباين فينصرف الى الأشكال والمظاهر. ومما لاشك فيه أن تباين هذه الأشكال والمظاهر يمكن أن تلمسه في ميادين أخرى عديدة. ونكتفي هنا بان نوجه الأنظار الى تلك المظاهر والأوجه المتباينة في حياة المجتمعات العربية ولاسيما ما يتصل بعلائق التملك، وتوزيع الثروة

ومستوى المعيشة، ووضع التجارة والصناعة والزراعة، واثر ذلك كله على تكييف أشكال النظم والمؤسسات السياسية والحقوقية وعلى وضع الحريات ودور رقابة الشعب في مختلف أجزاء الوطن العربي. وبدون خوض في الاستشهاد نشير الى مظهر هام من مظاهر هذا التباين، إلا وهو تباين الأشكال والسبل لكفاح الشعوب العربية في مختلف أوطانها. يستطيع المرء أن يرى أن تطور البورجوازية الوطنية وظروف كفاحها ودورها يختلف اختلافا ملموسا بين الجزائر أو تونس أو مراكش أو السودان وبين مصر أو سوريا أو لبنان أو الأردن، وهذا الاختلاف يرد أيضا على تطور الطبقة العاملة وظروف كفاحها ودورها الطليعي، في العراق أو سورية أو الأردن عنها في اليمن أو السعودية أو جنوبي الجزيرة، وأمام أعيننا تنفتح طرق كفاحية مختلفة بين بلد عربي وبلد آخر. إن طريق الكفاح في الجزائر، أو عمان أو عدن هو غير طريق سورية أو لبنان أو العراق. والطريق الذي سلكته مراكش أو تونس مختلف عن الطريق الذي سلكته مصر أو السودان أو ليبيا.

ظروف خاصة طارئة وخصائص قومية ثابتة

ونوجز أشكال ومظاهر هذا التباين في الأوضاع السياسية والاجتماعية، والتفاوت في مستويات التطور الاقتصادي والثقافي، وكذلك مظاهر التفاوت الأخرى، لمختلف البلدان العربية، فنجمعها تحت تعبير "الظروف الخاصة".

ونضيف الى ذلك مايلي :

1- إن هذه الظروف الخاصة ليست من صنع العرب، وإنما هي بالدرجة الأولى من مظاهر التجزئة التي فرضها الاستعمار.

2- إن هذه الظروف الخاصة ليست شيئا أصيلا بالقياس الى الخصائص الثابتة للقومية العربية

3- إن هذه الظروف الخاصة رغم أنها تستمد وجودها من تربة الواقع، إلا أنها شيء طارئ ومؤقت.

4- إن الخصائص الثابتة للقومية العربية، برغم أن بعضها هنا وهناك لايزال في دور التكوين الجنيني كالتلاحم الاقتصادي مثلا –إلا أنها، في مفهوم قوانين التطور هي التي تمتلك القدرة الحتمية على النماء والتطور. نستشهد على ذلك، باستقراء سريع لتاريخ الأمة العربية الحديث. تعرض العالم العربي في معظم أجزائه وكما هو معروف الى السيطرة العثمانية بيد أن العثمانيين، برغم الدعوات الإسلامية التي تذرعوا بها لحكم العرب وبرغم طغيان سلاطينهم وولاتهم الذي استدام قرونا عديدة، وبرغم سياسة التتريك التي لجأوا إليها أخيرا، لم يفلحوا في طمس خصائص الأمة العربية، أو في إطفاء الروح القومية العربية المتوثبة. ولقد شن العرب في مختلف أمصارهم، ولاسيما في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، ثورات ونضالات باسلة ضد الحكم العثماني، تجاوبت أصداؤها في كل أرجاء العالم العربي، فكانت شاهدا على أن عناصر الحياة للخصائص الثابتة للأمة العربية لايمكن قتلها بالطغيان مهما استطال زمانه. وتعرض العالم العربي أيضا، لاسيما مصر والشمال الأفريقي، الى غزو الاستعمار الأوربي منذ أوائل القرن التاسع عشر كما بينا. وانتهج الغزاة، ولاسيما الفرنسيون والايطاليون، سياسة مماثلة تقريبا للسياسة التي انتهجها العثمانيون إزاء العرب. غير أن الثورات الباسلة التي أشعلها العرب في وجه الغزاة الغربيين قد كانت هي الأخرى دليلا

على حيوية الخصائص الثابتة للأمة العربية وقدرتها على البقاء والتطور. إن أساليب التسلط والقهر، التي اتبعها العثمانيون، وسياسة التجزئة وتمزيق الشمل التي انتهجها المستعمرون إزاء العرب لم تؤد الى إبادة عناصر الحياة والنماء في الأمة العربية، وإنما بالعكس أدت في نهاية الأمر الى بعثها وبلورتها في تيار كفاحي اخذ شكله النشيط في ثورات المغرب العربي والانتفاضة على الحكم العثماني إبان الحرب العالمية الأولى، وأخيرا في الثورات والانتفاضات التي أشعلها العرب بوجه الاستعمار في كل مكان من أرجاء الوطن العربي ولاسيما بعد الحربين – والتي لايزال أوار البعض منها مشتعلا حتى اليوم في كل من الجزائر وعمان وعدن. وها هي حركة التحرر العربي اليوم تشغل موقعها في جناح هام من أجنحة الحركة التاريخية المعاصرة لتصفية الاستعمار. وفي غمار الانتصارات المتلاحقة لهذه الحركة، بدأت أحلام العرب في الحرية وجمع الشمل المشتت تتحول الى حقائق ملموسة كما تهيأت إمكانية الانبعاث والنماء السريع لمقومات الأمة العربية – باعتبارها أمة تمتلك كل الخصائص القومية للأمة الواحدة. ومن ذلك نتبين أن ما هو أصيل وحي هو الذي يستطيع أن يفتح طريقه الى الحياة وان ينمو ويتطور ويبلغ هدفه. إن سيطرة الاستعمار المزمنة، والتجزئة التي فرضها على الأمة العربية، لم تستطع طمس الخصائص الثابتة للأمة العربية غير أنها – الى جانب عوامل أخرى قد أحدثت أثرها في إيجاد أشكال من التباين بين بلد عربي وبلد عربي آخر – وهي التي اصطلحنا على تسميتها بـ "الظروف الخاصة ". إن هذه الظروف الخاصة على الرغم من أنها تأتي في المقام الثاني – بالقياس الى ثبات الخصائص القومية الأصيلة –إلا أنها على كل حال واقع لايمكن تجاهله. واقع ينبغي أخذه بالحسبان عند التوجه لمعالجة مشاكل القومية العربية وفي مقدمتها مشكلة توحيد الأمة العربية.

مسألة توحيد الأمة العربية ينبغي أن تحل في ضوء الواقع

إن التجزئة التي فرضها الاستعمار على الأمة العربية والظروف الخاصة التي خلقها ليست – كما بينا إلا عوامل خارجية وذات اثر مؤقت بالنسبة لما هو ذو صفة موضوعية دائمة – ونعني به المقومات الأساسية للأمة العربية. ونحن إذ نتناول هذه العوامل (أي الظروف الخاصة) التي تبدو الآن قوية الأثر لانعتبرها إلا عثرات في الطريق وبنفس الوقت نتمسك بالحقائق الموضوعية المتصلة بمقومات الأمة العربية – باعتبارها العناصر النامية الأصيلة – وان بدت مسيرتها التطورية محفوفة بالمشاكل والصعاب. التجزئة التي فرضها الاستعمار على العرب واقع لاسبيل الى نكرانه والتباين في الظروف الخاصة لكل بلد عربي تقريبا هو واقع لاسبيل الى تجاهله وعلى ضوء الواقع ينبغي أن تحل مسالة توحيد الأمة العربية – حلا ديالكتيكيا باعتبارها مسألة تعيش في ظروفها المادية الخاصة التي لايمكن عزلها عنها أو محاولة إخراجها من عالمها الواقعي الى عالم الأحلام، لتحويلها الى مجرد فكرة نبيلة أو أمنية غالية ينبغي قبولها أو رفضها –كما يفعل البعض. إن مسألة توحيد الأمة العربية عملية مركبة وينبغي أن تعالج في ضوء واقعها المادي، وان من يحاول تبسيطها وتجريدها إنما يسيء إليها ويساهم – شاء أم أبى – في وضع العقبات في طريق تطورها التاريخي. إن العربي المخلص

لقوميته والمؤمن برسالتها وأهدافها هو من يدرك مشاكل أمته إدراكا واعيا بصيرا ويعمل على معالجة هذه المشاكل انطلاقا من الواقع وبالاستناد الى ارض الواقع. ولكن من المؤسف حقا أن نشهد البعض وهم يحولون مفهوم الأمة ومفهوم القومية والوحدة ، الى ما يشبه " الخرافة ". وقع بيدي صدفة، كتاب لكاتب عربي، وصفته دار النشر بالفيلسوف العربي، استمعوا الى مقطع يعرف فيه الأمة حيث يقول: "الأمة في الحدس العربي، كوجدان قومي تصدر عنه المثل العليا، وتقدر بالنسبة إليه قيم الأشياء"، ويتساءل: "هل الأمة مفهوم يبنيه الذهن تلخيصا لعوامل تاريخية طبيعية، أم هي آية أصولها في الملا الأعلى وتجلياتها التطبيقية كنظام مندرج في بنية الأفراد وفي المؤسسات العامة ". ويقول أيضا حول الأفراد الذين يكونون الأمة : "أن ما يتجسد من شبه بين الأفراد المنحدرين من ذات الأصول وبين مايظهر من انسجام في المؤسسات العامة يرجع الى آية الأمة المتحققة عبقرية في الطبيعة، يرجع الى تجربة الأجداد المثلى في أصول الحياة، وليس التأريخ إلا سجل هذا التحقيق كمصير حصل من انتصارات الحياة على القدر ". واليكم مقطعا آخر، أرجو أن تتعاونوا معي على فهمه: "الأمة في الكون حاملة سيماءها بصورة مجملة، فتفتح عنها بتجارب تجلياتها بين قطبيها: قطب ترسم به في بنية أبنائها معرفة متبلورة، وفي الكون عالما تنعكس عنه الطبيعة محددة إمكانية إدراكهم، وقطب آخر ترتقي إليه النفوس من خلال هذه التجليات المستشفة في تساميها بنور ذاتها". وبعد الاستطراد في هذه المتاهات المحيرة ، يستنتج الكاتب الفيلسوف معنى الأمة، فيقول: "وهذا ما دعانا الى القول بان امتنا ليست محصلة ظروف تاريخية بل أنها معنى يبدع تجلياته ويوجهها نحو المزيد من الحرية "، الى أن يقول: " مثل ظهور الأمة على مسرح التأريخ كمثل ظهور الإلهام على مسرح الوجدان ". وتحت عنوان: "الأمة عقيدة " يذهب الكاتب الفيلسوف الى اعتبار الأمة "تجربة رحمانية مثلى" "ومنظومة من القيم" و "الهام ذو نظام أصولها في الملأ الأعلى". وبعد أكثر من مئة صفحة من التجليات والصبوات والتحليقات والاستقطابات والوجدانيات، وما الى ذلك من فيض الألفاظ الرنانة المثيرة ينتهي الكتاب انه لأمر مفجع حقا! ولكن مما يضاعف هذه الفجيعة أنني وجدت على الغلاف بعد الانتهاء من قراءته انه مجرد كتاب من سلسلة طويلة باسم" بعث الأمة العربية". لقد فات على هذا الكاتب الفيلسوف وغيره من الكتاب والمتفلسفين ومن يقرأ لهم ويؤمن بفلسفتهم أن الأمة العربية لايمكن أن تبعث على هذه الصورة، وأنهم لو اعفوا الجيل الناشئ من كل هذا الهراء المضلل لأحسنوا صنعا للأمة العربية ولقضية بعثها ووحدتها، وانه لأمر مؤسف أن نجد في العالم العربي اليوم كتابا وقادة سياسيين لايفتأون يتصدون لقضية العروبة ولمعالجة مشاكلها على هذه الصورة المضللة. وانه لأمر مؤسف أيضا أن نجد في العالم العربي اليوم كتابا يضعون أنفسهم في مقام الفلاسفة ثم لا يتورعون عن انتزاع القضية القومية من أرضها وتجريد مفهوم الوحدة من واقعيته محلقين في سموات عجيبة ظانين أن مجرد الرغبة في الشيء تكفي لتحقيقه. لهؤلاء الصادرين والمحلقين في تلك الأجواء الميتافيزيقية المزخرفة نقول ناصحين مخلصين: أن بعث الأمة العربية وتوحيدها مسألة من مسائل الحياة التي ينبغي أن تنضج عبر مراحلها التطورية الاعتيادية. أن التسرع في حل هذه المسائل حلا مبتسرا لايأتي بأي خير على احد وإنما بالعكس

يجلب معه كل تناقضاته ومشاكله. إن دعاة الدمج المتسرع المبستر دعاة توحيد الأوضاع والظروف المتباينة بصرف النظر عن مستويات تطورها إنما هم أناس يتعامون عن رؤية الحقيقة ويتنكبون الطريق السوي ويسيئون الى وحدة العرب. إن الدمج الصحيح هو دمج العناصر الناضجة وعملية التوحيد ينبغي أن تسير في طريقها الطبيعي التدريجي وعلى وفق خطوات وئيدة مدروسة لكل ماهو ناضج وما سينضج في المستقبل.

لنأخذ العبرة من تجربة سورية وتجربة اليمن

كانت لسورية ظروف خاصة لم تؤخذ بالحسبان عند إبرام الوحدة السورية – المصرية. لقد تغلب الارتجال والتسرع على الرؤية والحكمة فأنجزت الوحدة دونما دراسة أو تبصر بالنتائج ولذلك أنتجت طائفة من المشاكل، كما أشار الى ذلك الرئيس عبد الناصر. لقد أعطت تجربة الوحدة السورية – المصرية مردودا سلبيا يكمن في حقيقة وقف سوريا عن سيرها الحثيث في طريق التطور العام وردها خطوات عديدة الى الوراء. لقد كانت لسوريا مكتسبات ديمقراطية هامة أزيلت بدعوى العمل على " توحيد الأوضاع " وجعلها "متماثلة " ! عطل البرلمان وألغيت الأحزاب، ووضعت القيود على الحريات وفتحت السجون والمعتقلات للمناضلين الأحرار ونشط المتآمرون الرجعيون والعملاء وتلك بلا شك حصيلة سلبية لايمكن لأي مواطن عربي بار أن يعتد بها. ونتيجة لعدم التبصر بالظروف الخاصة لكل من سوريا ومصر ومدى التباين فيما يتعلق بمستوى التطور في كل من البلدين اصطدمت محاولة " توحيد الأوضاع " بحقائق الحياة فأثارت أعمق الاستياء سياسة إلغاء الأحزاب ومحاولة فرض فكرة الاتحاد القومي وتقنين الصحافة وتنظيم النقابات وكل الأشكال والتدابير والنظم الأخرى التي نقلت نقلا ميكانيكيا من مصر وأريد تطبيقها في سوريا. وعلى خلاف الوضع السابق للوحدة آثار الاعتراضات الجدية لدى السوريين استئثار الرئيس بالسلطات التشريعية وعدم تكوين البرلمان الذي تضمنه الدستور الموقت. ولا يستطيع السوريون أن يقتنعوا بان الوحدة قد ضمنت سوريا ضد المؤامرات الداخلية أو العدوان الخارجي فسوريا كانت مضمونة إزاء المؤامرات الداخلية بسهر جيشها ويقظة شعبها. وهذا ما تحقق بالفعل حيث كشفت وسحقت المؤامرات الداخلية واحدة بعد الأخرى وسوريا كانت مضمونة إزاء العدوان الخارجي بسبب تضامن الشعوب العربية معها والاتفاقية الدفاعية التي عقدتها مع مصر وبوجه خاص بموقف الاتحاد السوفياتي البات في حماية سورية وسحق أي عدوان قد تتعرض له. وبالعكس يدرك السوريون أن المتآمرين قد قلمت أظافرهم وسحقوا فريقا بعد الآخر وان سوريا شعبا وجيشا كانت جبهة متراصة سليمة مضمونة ضد أي تآمر داخلي أو عدوان خارجي بل ويرى السوريون أن الوضع بعد الوحدة قد اضعف وحدة الصفوف الوطنية كما اضعف دور الجيش في حراسة الحكم والدفاع عن مكتسبات الشعب الديمقراطية وذلك نتيجة لتدابير القمع وللتدابير التي اتخذت لتبديل الأوضاع في سوريا بغية توحيدها مع أوضاع مصر ونتيجة لإقصاء بعض قادة الجيش الأكفاء والساسة القديرين عن مراكزهم في قيادة الجيش والدولة. ويعتقد السوريون أن إمكانيات التضامن الداخلية لم تضعف بعد الوحدة لأنه إذا كان المتآمرون في السابق

لايجدون لهم موطئ قدم في أوساط الشعب –ولذلك كانوا يستعينون بالاستعمار وبدول حلف بغداد فإنهم قد يعمدون الآن الى محاولة استثمار الجوانب السلبية التي أسفرت عنها الوحدة يضاف الى ذلك أن القوى الرجعية المتآمرة في حزب الشعب والكتلة الدستورية والعشائر التي شلت أيديها عن العمل قبل الوحدة قد استيقظت وأخذت تتابع نشاطها التخريبي. وفي الوقت نفسه شنت حملة ظالمة ضد الشيوعيين والعناصر التقدمية في سوريا وفرضت على البلاد سياسة مفرطة في الإرهاب لمجرد أن هؤلاء المناضلين الصادقين نبهوا الى كل ذلك وطالبوا بتداركه وتفويت نتائجه. أما من الناحية الاقتصادية فبسبب عدم التناظر في التطور الاقتصادي لكل من سوريا ومصر وتفاوت مستوى المعيشة والأجور ونظام العملة والجمارك والضرائب وغير ذلك فقد اصطدمت مساعي " توحيد الأوضاع " بصعوبة جدية. لقد أخفقت فكرة ترحيل مليون فلاح مصري وإسكانهم في الجزيرة وفشلت فكرة حرية تنقل الأيدي العاملة من مصر الى سوريا بسبب التفاوت الجسيم في الأجور. وقد أساء ذلك دون شك الى شعور التضامن الأخوي بين عمال وفلاحي القطرين هذا الشعور الذي كان قائما على أفضل صورة قبل الوحدة. ونتيجة لتردي الوضع الاقتصادي في سوريا بعد الوحدة وجهت انتقادات وجيهة من جانب المواطنين السوريين فيما يتعلق بكساد التجارة والصناعة والزراعة وفرض الضرائب الباهضة ومحاولة دمج الاتفاقيتين الاقتصاديتين المعقودتين بين كل من مصر وسوريا وبين الاتحاد السوفياتي كما وجه التجار والصناعيون والزراع مذكرات تعكس صورا خطيرة من تفاقم الاستياء الشعبي

ومن الناحية الثقافية لم يحصل تقدم يعتد به مع انه كان منتظرا أن يتم الكثير في هذا الحقل على الأقل. وبالعكس أغلقت بعض المدارس نتيجة إضرابات قام بها الطلبة بسبب تقليص حرية التعليم وتعديل قوانين بعض المدارس لجعلها متماثلة مع مدارس مصر وبالنتيجة اتضح أن سوريا قد ردت الى الوراء بسبب التسرع في انجاز الوحدة التي لم تأخذ بنظر الاعتبار التفاوت البين في الظروف الخاصة لكل من سورية ومصر فبدلا من أن تتم الوحدة على أساس إطلاق طاقة السير لسوريا نحو وضع سياسي أفضل ومركز دولي مرموق أوقف هذا السير عند حده. وبدلا من أن تتم هذه الوحدة على أساس الديمقراطية تمت على أساس إلغاء مكتسبات سوريا الديمقراطية. وبدلا من تعزز وترص وحدة الشعب، أضعفتها. وبدلا من أن تزيد في التقارب الأخوي بين الشعبين أوجدت قسطا لايستهان به من الجفوة وبدلا من أن تكون هذه الوحدة تجربة مثالية تحتذيها بقية البلدان العربية، أصبحت باعثا على الاعتراض والتحفظ وفي نفس الوقت لم تساهم في صيانة سوريا ضد المؤامرات الداخلية كما يتصور البعض، وأضعفت مركز سوريا الدولي وفي النطاقين الاقتصادي والثقافي لم تؤد كما كان منتظرا ، الى تقدم ملموس ، وبالعكس أدت الى صعوبات وانتكاسات جدية. وهي بعد ذلك ، لم تخدم كما يجب رغم مافيها من جوانب ايجابية قضية توحيد العرب ولم تهتم وهذا هو المهم في تخطيط أفضل السبل وبالعكس فان تجربة اليمن لم تسفر عن أية نتائج سلبية، وباستطاعة كل امرئ أن يرى أن ارتباط اليمن بالجمهورية العربية المتحدة، بشكل من أشكال الاتحاد قد عزز وحدة الكفاح العربي، وأضاف قوة جديدة للبلدين

الشقيقين وساهم الى حد ما في خدمة قضية توحيد العرب والسير إليها في طريق طبيعي خال من الصعاب والعثرات.

والسبب في ذلك كله هو أن ظروف اليمن الخاصة ، ولاسيما مايتعلق في أوضاعها السياسية والاجتماعية ومستوى تطورها الاقتصادي والثقافي، قد أخذت بعين الاعتبار عند العمل لتحديد أفضل صور الارتباط بينها وبين الجمهورية العربية المتحدة.

ويكفي أن نشير هنا الى ما أوردته مجلة (نيوز ويك) الأمريكية في عدد أيلول المنصرم حين قالت: " لقد تشكى الرئيس عبد الناصر لميرفي من الصعوبات التي يعانيها مع سوريا وأضاف انه لو يستطيع معالجة موضوع سوريا من جديد لجعل مصر وسوريا يتحدان اتحادا فيدراليا ولا يندمجان".

ومن ذلك كله يتبين أن تجربة الوحدة الشاملة المتسرعة لم تبرهن في الواقع العملي على أنها خير أسلوب لاتحاد البلدين العربيين سوريا ومصر، بحث تضمن مصلحة الأمة العربية التي هي ليست في هذه العملية سوى مصلحة كل من سوريا ومصر أولا وقبل كل شيء.

ومما لاشك فيه أن معالجة مسألة توحيد الأمة العربية ينبغي أن يتم على أساس يخدم مصالح الشعوب العربية في التحرر والديمقراطية والتقدم ويعزز استقلال البلدان العربية المتحررة، ويوطد الى حد اكبر مشاعر الأخوة والتضامن الكفاحي العربي ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية.

وبهذا الشكل فقط، ينفتح الطريق الرحب القويم الى الوحدة وتستطيع المطامح والأماني النبيلة أن تأخذ سبيلها الى دنيا الواقع ، بمعزل عن التعجل والانفعال.

الطريق الى معالجة التباين بين أوضاع وظروف البلدان العربية

اتضح مما سبق أن لكل بلد عربي تقريبا ظروفا خاصة تختلف عن نظائرها في البلد الآخر، ومن ذلك يتبين أن البلدان العربية لاتسير على وتيرة واحدة لا في حركة تطورها العام، ولا في مسيرتها نحو الاتحاد. وواقع الحياة يدل على أن البلدان العربية المختلفة ستسير في مسالك عديدة متباينة شطر الاتحاد شانها في ذلك شان الروافد تختلف في طولها وسرعة جريانها يخترق بعضها السهل ويخترق بعضها الوعر ولكنها تصب آخر الأمر في النهر الكبير. مما لاشك فيه أن شكل الوحدة الكاملة الفورية لن يكون الصورة الوحيدة والصحيحة لاتحاد الأمة العربية في ظروف المستقبل القريب والأرجح انه بسبب التباين في الظروف الخاصة التي اشرنا إليها سيصبح من الصحيح والممكن ترابط البلدان العربية المتحررة باتحادات فيدرالية أو كونفيدرالية أو أن تقيم هذه البلدان فيما بينها أشكالا أخرى من الارتباطات تتفاوت في قوتها وشمولها. وبالتأكيد سيقع تفاوت في الزمن إذ ستنضج في بلد عربي ظروف أسرع وأكثر مؤاتاة من بلد آخر سواه وطبيعي أن أشكال هذه الارتباطات لن تقف عند حدودها الأولية بل تتطور مع الزمن كأية ظاهرات اجتماعية. ومن هذا يتبين أن عملية توحيد العرب هي عملية معقدة محكومة بظروفها وقوانينها وان الطريق الى معالجتها هو النظر إليها بموضوعية و بما يكفي من التجرد والشعور بالمسؤولية إزاء قضية تتعلق بمصير امة بأسرها. على ضوء هذه الحقائق ينبغي التسليم بعد الدراسة :

أولا– بان هذا الشكل من الارتباط أو ذاك يخدم على نحو أفضل من سواه مسألة

وحـدة الكفـاح العـربي ضـد الاستعمـار ويساهم في تحرير البلدان العربية المستبعدة ويساعد على تطوير المكاسب الديمقراطية للبلدان العربية المتحررة وييسر سير الشعوب العربية نحو مزيد من التآخي والوحدة.

ثانيا- أن شكل هذا الارتباط ينبغي أن يكيف على أساس النظر في أن ظروف بلدين عربيين مثلا ناضجة لاتحاد فيدرالي أو كونفيدرالي فينبغي أن تعالج ارتباطها على هذا الأساس وإذا وجد أن ظروف هذا البلد ليست ناضجة لأي من هذا أو ذاك فينبغي أن ننتظر. أما أن تولي ظهورنا للحقائق ونتمسك بعناد وطيش بشعار الوحدة الفورية الشاملة ، باعتباره الشعار الأمثل والأوحد – فانه موقف لاينطوي إلا على المكابرة والجهل أن الركب العربي غير محشود في نقطة واحدة على الطريق وإنما هو موزع على طول هذا الطريق ولكنه يسير شطر هدف واحد. أن هذا الركب لايسير في كل أجزائه بوتيرة واحدة والسبيل الأجدى هو إسداء المعونة للشطر المتأخر ومساعدته على التقدم وليس العكس.

سوريا سبقت مصر في طريق التطور

الكل يعلم أن سوريا كانت قد سبقت مصر في طريق التطور، ولكن الذي حصل أن مصر بدلا من أن تلحق بسوريا أرجعت سوريا الى الوراء لكي تقف في صف مصر أو وراء مصر. والذريعة التي استند إليها في هذا الشأن هو ضرورة " توحيد الأوضاع " و " ثمن الوحدة " ! توحيد الأوضاع ينبغي إلا يكون مردوده سلبيا، وثمن الوحدة يجب أن يكون كسبا ايجابيا لا خسرانا. إن توحيد الأوضاع ينبغي أن يتم على أساس الأخذ بما هو ايجابي ومفيد في هذا البلد أو ذاك واستبعاد ما هو سلبي وضار وعقيم. كان ينبغي أن تقتدي مصر بسوريا فيما يتعلق بتطورها الديمقراطي سواء في أسلوب الحكم أو في السياسة الداخلية، أو في تطورها بالبلد الأكثر تقدما، وليس العكس. ينبغي إسداء المعونة لكي تستقيم الأوضاع السياسية والاجتماعية في هذا البلد العربي، ويرتفع مستوى تطوره الاقتصادي والثقافي، الى مستوى البلد الشقيق الأكثر تطورا. يجب أن نسعى الى خلق تناظر في الأوضاع والمستويات كشرط للتوحيد الشامل ، وعلى أساس الأخذ بالأفضل والتقدم الى الأمام لا على أساس سلب مكتسبات هذا البلد أو ذاك ورده الى الوراء، ولا على حساب تطور بلد ما على حساب البلد الآخر. فإذا ما وجد بلد عربي يمتلك القدرة على إعطاء أمثلة حسنة، سواء في نظام حكمه أو نهجه الديمقراطي أو علائقه الدولية أو سياسته في الميدان الاقتصادي أو الثقافي فينبغي أن تترك له حرية العمل والتقدم، وينبغي أن تقتدي به كل البلدان العربية. وبالعكس إذا ما ورد كل بلد عربي متقدم أو له القدرة على التقدم إلى مستوى البلد الآخر الأقل تقدما، باعتبار أن ذلك من مستلزمات " توحيد الأوضاع " أو " ثمن الوحدة " فان ذلك خسرانا كبيرا لحركة العرب التحررية ، وتعسفا يلحق الأذى بقضية اتحاد العرب ويسيء إليها ويؤخر سيرها.

المهام الأساسية لكفاح الأمة العربية في الظرف الراهن

بالاستناد الى هذه الحقائق يمكن في الظرف الراهن تشخيص الشيء الرئيس بالنسبة لنضال الأمة العربية وطريقها الى الوحدة على الشكل التالي :

– تقوية تضامنها في الكفاح ضد الاستعمار والعمل على تحرير الأجزاء المستعمرة وتحقيق أوثق وأوسع الروابط

السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية بين دولها المتحررة، بغية تبادل المساعدة في أوسع نطاق، وتدارك التفاوت في أوضاعها السياسية والاجتماعية وفي مستويات تطورها الاقتصادي والثقافي وذلك تمهيدا لخلق أوضاع متماثلة مستندة إلى الأخذ بما هو ايجابي وجيد من هذا البلد أو ذاك واستبعاد ما هو سلبي وعقيم.

– تأمين سيرها على طريق تحرري ديمقراطي واحد، وتناول مسألة الارتباطات بالاستناد إلى الظروف الخاصة لكل بلد عربي على حدة، أو مجموعة من البلدان بغية ضمان إشكال متينة من الاتحادات ، كفيلة بالتطور طبيعيا نحو اتحاد عربي ديمقراطي.

– توفير إمكانيات الانتصار في معركة التحرر العربي والمحافظة على استقلال البلدان العربية المتحررة، وتأمين تطورها وتقدمها بالاستناد إلى أوثق علائق الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية الأخرى ومع سائر قوى السلم والحرية في العالم.

المسالك المختلفة المؤدية إلى الوحدة

إن السير في طريق آخر بمعزل عن هذه الحقائق لايجلب معه إلا المشاكل وهو ليخدم في أي مقياس طموح العرب النبيل الى توحيد أمتهم. إن الذين يتناولون مسألة اتحاد العرب، على أساس الالتحاق الفوري في وحدة كاملة مع مصر أو مع الجمهورية العربية المتحدة، إنما هم أناس، إن لم يكونوا أصحاب أغراض ودعاة مكاسب شخصية على حساب مجموعة الأمة، فإنهم على الأقل خياليون بعيدون عن دنيا الواقع.

فمما لاشك فيه أن المسالك المؤدية الى الاتحاد عديدة ومتشبعة، كما بينا فإذا ما تحررت عدن مثلا، واختارت الوحدة الكاملة الفورية مع اليمن، فذلك حسن وهو اقرب الى الواقع من اندماجها بالجمهورية العربية المتحدة وإذا ما تحررت مشيخات الجنوب واختارت الارتباط باليمن باتحاد فيدرالي أو كونفيدرالي فذلك حسن واقرب الى الواقع أيضا. وإذا ما انتهت ثورة الجزائر الى ظفر نهائي واختارت بلدان المغرب العربي إقامة شكل من أشكال الاتحاد فيما بينها فذلك حسن وواقعي أيضا. وإذا ما أرادت السودان أو ليبيا أن ترتبط بمصر أو الجمهورية العربية المتحدة بشكل من أشكال الاتحاد فذلك من شأنها وهو أمر غير بعيد عن الواقع. وإذا ما تحررت بلدان الخليج واختارت سبيل الاتحاد أو الوحدة مع العراق، فذلك ممكن أيضا وواقعي. وإذا ما اختارت السعودية الارتباط باليمن باتحاد فيدرالي فذلك طبيعي وممكن.

والى جانب هذا وذاك، يرتبط العراق بمراكش مثلا واليمن بالجزائر، بروابط من التضامن والتآخي القومي الوثيق. هذه الحلقات والارتباطات هي اقرب الى الواقع من المشروع الذي يطرحه دعاة الوحدة الفورية الكاملة مع الجمهورية العربية المتحدة على أساس أن كل بلد عربي يتحرر ينبغي أن يندمج بالجمهورية العربية فورا. هذه الحلقات والارتباطات المتوقعة، هي اقرب الى الواقع لأنها تسلك سبيلها الطبيعي في التطور وهي بالتالي تخدم قضية توحيد العرب وتقرب من اجل بلوغ اتحاد عربي شامل.

وتناول هذه المسألة –كما بيّنا– ينبغي أن ينهض على أساس الأخذ بالظروف الخاصة لكل بلد، وتجنب التطبيق الميكانيكي لأوضاع ونظم وقوانين بلد على بلد آخر ، بل على العكس، يجب اصطفاء الأفضل، والتمسك بالأسلوب الديمقراطي الصحيح في تناول أية مسالة بهذا الصدد.

يستطيع العراق أن يلعب دورا طليعيا في الحركة العربية التحررية

أشكال الارتباطات بين البلدان العربية ينبغي لا تكون وثاقا يقيد سعيها واندفاعها في طريق الديمقراطية والتقدم. فإذا كانت سوريا مثلا قطعت في طريق الديمقراطية والتقدم مسيرة سبقت بها مصر أن تسحب سوريا الى الوراء وتشد وراء مصر، بحجة " توحيد الأوضاع " أو بدعوى أن على سوريا أن تدفع " ثمن الوحدة ". وإذا كانت الجمهورية العربية المتحدة قد سبقت في مسيرتها بلدا عربيا آخر كاليمن أو العربية السعودية ، فليس من مصلحة العرب ولا من مصلحة اليمن أو السعودية أن تسحب الجمهورية العربية الى الوراء فتشد وراء اليمن أو السعودية، استنادا الى ذات الحجج والدعوات. إن أشكال الارتباطات ينبغي أن لاتكون معرقلة لسير الركب العربي الى الأمام، وإنما بالعكس، ينبغي أن تكون ميسرة له، ينبغي أن تصطفي أفضل الأشكال الطبيعية والممكنة التي تطلق أقصى طاقة السير لهذا البلد العربي، وبالتالي للركب العربي برمته. إن هذه الأشكال ليست بحد ذاتها هدفا رئيسيا، وإنما هي في الأصل وسيلة لبلوغ هدف أكبر ألا وهو الوصول الى اتحاد عربي شامل وفق مسيرة تقدمية ديمقراطية، وهذا الاتحاد العربي الشامل هو الآخر ليس هدفا بحد ذاته فحسب، وإنما هو أيضا وسيلة لتحقيق مزيد من التقدم والازدهار للشعوب العربية. ينبغي معالجة مسألة الارتباطات إذن على أساس الأخذ بهذه الحقائق فإذا ما وجد بلد عربي يستطيع أن يلعب دورا طليعيا في الحركة العربية التحررية ، وييسر سير ركبها المتحرر نحو الانطلاق والحرية والتقدم، فينبغي أن يعطي كامل حريته في العمل، وينبغي أن يكيف شكل الارتباط بينه وبين أي بلد عربي على أساس الأخذ بهذه الحقيقة ، وفي ذلك كما بينا مصلحة كبرى وأساسية لا لهذا البلد فحسب وإنما للأمة العربية برمتها وفي اعتقادنا أن سوريا كانت تمتلك القدرة على أن تلعب دورا طليعيا في الحركة العربية التحررية إلا أنها قد أقعدت عن الوفاء بهذا الدور التاريخي المشرف ولم يكن ذلك في مصلحة أي بلد عربي. وفي اعتقادنا اليوم أن العراق تتوفر له الإمكانيات الحقيقية للوفاء بهذه المهمة، على أكمل وجه، وان يلعب دورا طليعيا في مقارعة الاستعمار ونشر الديمقراطية في العالم العربي، ومضاعفة الحيوية الكفاحية للحركة العربية التحررية، وان يعطي أمثولة حسنة جديرة بالاقتداء في ديمقراطية الحكم وفي التقدم الاقتصادي والثقافي، وفي علائقه الدولية وسياسته الداخلية ، وفي تخطيط أفضل نماذج السير نحو الاتحاد العربي الشامل المنشود. ونحن لا نذكر ذلك على سبيل الاعتداد وإنما نستند الى الحقيقة ، ونؤكد ذلك بالقياس مثلا الى سياسة العربية المتحدة التي لايمكن اعتبارها أفضل السياسات التي ينبغي على العرب الاقتداء بها. ونحن نشير الى دور العراق الطليعي، إنما تنطلق في ذلك من مصلحة العراق نفسه والأمة العربية جمعاء. وتقديرنا لهذا الدور الذي يستطيع أن ينهض به العراق في الحركة العربية التحررية مستندا الى جملة من الحقائق نوجزها فيما يلي :

1- إن الحيوية الثورية الفائقة الموجودة في العراق والتي برهنت على أصالتها وقوتها أيام الثورة وبعدها، تبوء العراق مركزا مرموقا في الكفاح العربي ضد الاستعمار وفي سبيل الحرية والتقدم للعرب أجمعين.

2- ولأسباب تاريخية وموضوعية معينة وجدت في العراق قوى ديمقراطية زاخرة لا نظير لها في أي بلد عربي آخر، وتمتلك

الغالبية الساحقة من أبناء الشعب العراقي روح منطلقة حارة شديدة التعلق بالديمقراطية، وبمبادئ العدالة و السلام و التقدم.

3- يضاف الى ذلك كله عمق الوعي وسعته وشموله لدى الشعب العراقي الذي يدرك ببصيرته الثاقبة مغزى تعاونه الوثيق مع العالم الاشتراكي من اجل الحفاظ على استقلاله وتطور اقتصاده وثقافته.

وتلك بلا شك خصائص فريدة وعوامل أساسية ينبغي إن تأخذ طريقها الى العمل وتنتج ثمارها المرجوة لخير العراق والعرب أجمعين. إن العراق مدعو تاريخيا وفي هذه الفترة الحاسمة من تاريخ العرب والإنسانية، أن يؤدي دوره المشهود في مكافحة الاستعمار والصهيونية والرجعية، في نشر الديمقراطية و تطويرها في العراق وفي العالم العربي، في أن يصبح مصدر إشعاع باهر للعدالة وفي العالم العربي، في أن يصبح مصدر إشعاع باهر للعدالة والسلام والتقدم، وان يدل على اسلم الطرق واجداها لتحقيق اتحاد العرب وجمع شملهم على قواعد ديمقراطية متينة. وبذلك يستطيع العراق أن يؤدي اجل خدمة لنفسه وللعرب، وان يلعب دورا طليعيا هاما سيكون له شأن خطير في تقويم السياسة العربية المتحررة وتطويرها وتغذيتها بدم نقي ساخن دفاق ليس من مصلحة الشعب العراقي والشعوب العربية الشقيقة أن يحال بين العراق و بين تأدية هذه المهمة التاريخية الفريدة. ليس من مصلحة احد غير أعوان الاستعمار والمشبوهين والراكضين وراء المكاسب والأغراض أن يطرح العراق بكل إمكانياته الخلاقة في مؤخرة الركب العربي المتحرر، إنما من مصلحة الخلافة في مؤخرة الركب العربي المتحرر، وإنما من مصلحة الأمة العربية ومصلحة تقدمها ووحدتها أيضا أن يشغل العراق دوره الطبيعي ، وان تتاح له كامل الحرية للوفاء بهذا الواجب التاريخي المجيد. إننا عندما رفضنا دمج العراق بالجمهورية العربية المتحدة الشقيقة، على الصورة المفتعلة المتسرعة التي تمت بها وحدة مصر وسوريا، فما ذلك إلا لأننا لا نشعر أن ذلك لا يخدم بأي مدى قضية اتحاد العرب، ولا يسهم إسهاما ايجابيا في حث الركب العربي على السير في مدراج الرقي والتقدم. ونحن – كما بينا في متن هذا البحث – نستند في هذا الموقف على أسس مادية وعلى وقائع وظروف لا يمكن لأي مواطن عربي بار أن يتجاهلها ويتصرف بمصير الأمة العربية بمعزل عنها. ونحن إذ نؤكد على دور العراق الطليعي نضع أمام أعيننا مصلحة العراق ومصلحة العرب أجمعين.

خلاصة

1 – منذ أن تعرض الوطن العربي الى التجزئة ، اختل نسق السير للأمة العربية، وتكونت في مختلف البلدان العربية ظروف خاصة تعكس التباين في الأوضاع السياسية والاجتماعية وفي مستوى التطور الاقتصادي والثقافي بين بلد عربي وبلد آخر. وقد انعكست آثار هذا التباين في جوانب شتى من حياة المجتمعات العربية، في مختلف أجزاء الوطن العربي.

2 – ونتيجة لذلك، دخل المجتمع العربي في طريق التطور اللا متناظر، وتوزع فصائل متباعدة أو متقاربة على طول هذا الطريق وبمضي الزمن أصبح كل بلد عربي تقريبا، يعيش في ظروف خاصة، وينهج سبيل تطوره بالتفاعل مع هذه الظروف.

3 – وبناء عليه، أصبحت قضية توحيد الأمة العربية من قضايا الحياة المعقدة التي ينبغي تناولها بالارتباط مع الظروف الخاصة بكل بلد عربي، وان تكييف المسألة على هذا النحو

يطرح جانبا تلك المفاهيم والأساليب الرامية الى انتزاع هذه القضية من واقعها المادي الذي تعيش فيه، الى تجريدها وتبسيطها والعمل على حلها بمعزل عن هذا الواقع.

4- إن سير الأجزاء العربية المتشتتة نحو التقارب والالتحام هو حركة تأريخية ذات صفة موضوعية ناشئة من وجود الخصائص القومية الأصيلة للأمة الواحدة، وتوفر أسباب النماء الطبيعي لهذه الخصائص التي يرتكز عليها بنيان الأمة.

ولذلك فان لحركة الوحدة طاقة تأريخية تستطيع معها أن تشق طريقها تدريجيا عبر الظروف الخاصة المتباينة التي لا تتمتع بصفة الديمومة والثبات.

5 – وعلى هذا فان السير نحو توحيد الأجزاء العربية، ينبغي أن يقترن أولا، بتسوية هذه الظروف الخاصة وذلك عن طريق إقامة تطوير أوسع أشكال التعاون والتضامن ثم اصطفاء شكل واقعي من الارتباط بين بلد عربي وبلد عربي آخر يساعد على تحقيق حد أدنى من التقارب والاستواء و يضمن تهيئة الإمكانيات الواقعية للتقدم خطوة أخرى نحو شكل أرقى من الارتباط وهكذا.

6- إذا ما وجد بلدان عربيان أو أكثر، يعيشان متجاورين وفي ظروف اقرب الى التناظر من بلدين عربيين آخرين أو مجموعة من البلدان، فان شكل الارتباط الذي يلائم ظروف البلدين الأولين قد يأتي مختلفا عن الشكل الآخر الذي يلائم ظروف البلدين الآخرين، أو تلك المجموعة من البلدان.

7- ولذلك فمن المؤكد -استنادا الى نتائج التطور اللا متناظر للبلدان العربية المجزأة أن تأخذ عملية توحيد الأمة العربية:

أ – أشكالا متباينة من الارتباطات لا شكلا واحدا.

ب – ارتباطات عديدة، بين كل بلدين أو مجموعة من البلدان قد تأخذ شكل اتحادات مختلفة القوة بين البلدان العربية المتجاورة جغرافيا.

ج – وسيقع تفاوت أكيد في الزمن فيما يتعلق بانجاز هذه الارتباطات والاتحادات.

8 – إن هذه الأشكال المتباينة من الارتباطات أو الاتحادات، لن تكون أشكالا مخلدة وإنما:

أ – ستتطور تدريجيا نحو أشكال أرقى فأرقى، تبعا لما سيتحقق من استواء وتناظر في ظروف تطور أي بلدين أو مجموعة من البلدان الداخلة في إطار ارتباط معين.

ب – وعلى نفس الخط ، وفي غمار تطور حركة التحرر العربي الهادفة الى توحيد الأمة العربية ستتقارب هذه الاتحادات والارتباطات من بعضها وتترابط على مراحل، ثم تندمج بالتدريج كلما توفرت لها ظروف مؤاتية.

9 – وهكذا يمكن بلوغ اتحاد يشمل الوطن العربي بأسره عن طريق التجمع التدريجي لهذه المسالك والتقائها آخر الأمر في نقطة واحدة، بشرط أن تكون حركة التطور العام على نطاق العالم، مساعدة على هذا التجمع.

***

ذلك هو الطريق التأريخي لوحدة الأمة العربية، مأخوذا على ضوء الواقع. ومنه يتبين :

ا – إن قضية الوحدة هي من قضايا الحياة المركبة ، على خلاف ما يتصوره البعض.

ب – إن حل قضية الوحدة ، ينبغي أن يتم تدريجيا وبالاستناد الى الواقع.

ج – إن تحقيق حلم العرب الأكبر في توحيد أمتهم، ليس أمرا يسيرا أو قريب المنال.

استنتاجات

بناء على ما سبق نستنتج ما يلي:

1 – إن حركة التحرر العربي التي من أهدافها الأساسية توحيد الأجزاء العربية المبعثرة هي حركة العرب أجمعين، حركة كل الطبقات والفئات والأحزاب في الوطن العربي الكبير.

2 – وبناء عليه فان مسألة العمل من اجل توحيد الأمة العربية هو من بين الأهداف السياسية لسائر الطبقات في المجتمع العربي وسائر المؤسسات السياسية التي تمثل هذه الطبقات، لكن الحل الذي يعطي لتحقيق هذا الهدف، يختلف بالنسبة للطبقة التي تطرحه. فالبورجوازية العليا في مصر مثلا تطرح اليوم حلا للوحدة يناقض المصالح الأساسية للطبقات الشعبية ويدور في إطار المصالح الاقتصادية والسياسية لهذه البورجوازية، بينما تطرح الطبقة العاملة ومؤسساتها السياسية حلا آخر يستند الى واقع الظروف التاريخية للأمة العربية، ويأخذ بعين الاعتبار مصالح كل الطبقات وفئات المجتمع العربي.

3 – وإذن فان قضية توحيد الأمة العربية لايمكن :

أ – إن تكون بحد ذاتها عقيدة سياسية يمكن أن ينهض عليها كيان ومنهاج حزب من الأحزاب أو حكومة من الحكومات.

ب – لا تكون لوحدها إيديولوجية سياسية متميزة ، إلا بمقدار ما تتخذ وسيلة لستر مصالح طبقة معينة ، تسعى لحل قضية الوحدة على الأساس الذي يحقق لها مصالحها الأنانية.

ج – ومن هنا يتضح السر في هذا الهراء المثالي الذي تبثه بعض الأحزاب والمؤسسات السياسية البورجوازية في مسعى فاشل لابتكار " نظرية " خاصة بالوحدة العربية.

د – لا يصح العمل من اجل الوحدة، أن يكون – لهذه الأسباب –موضعا للاستثمار أو الاحتكار من جانب حزب من الأحزاب أو حكومة من الحكومات.

استنتاجات أخيرة

أ – لن يكون لحركة الوحدة العربية، مركز واحد، ولا نواة واحدة –لا الجمهورية العربية المتحدة ولا الجمهورية العراقية.

ب – وبناء عليه، فلن يكون لها زعيم واحد... لا جمال عبد الناصر، ولاعبد الكريم قاسم.

ج – لن يحلها حزب واحد أو حكومة واحدة أو مؤسسة سياسية معينة، وإنما سيأتي حلها حصيلا لنضال عام شاق طويل الأمد تشترك فيه كل الشعوب العربية، بكل طبقاتها، وأحزابها وقادتها وبصرف النظر عن تباين إيديولوجياتهم ومناهجهم السياسية.

وكلمة أخيرة أيضا:

ليس من المجدي في أيامنا هذه، الإفراط في الحديث عن دولة عربية واحدة ، مثلما هو مجد الحديث عن امة متحررة تستطيع أن تصون استقلالها، وتنطلق قدما في طريق الحرية، والتقدم، والسلام.

* عامر عبد اللّه، الطريق ألتأريخي لوحدة الأمة العربية، كراس صادر عن دار الفكر الجديد، بيروت 1960

ترجمة نصوص

التسلط الأوربي*
تفكيك الديمقراطية كنتيجة لأزمة اليورو

بقلم: أندرياس فير
ترجمة: رشيد غويلب

أندرياس فير: باحث ألماني، و احد العاملين، منذ عام 1999، لدى كتلة اليسار في البرلمان الأوربي. ولد في برلين عام1954 ودرس علوم القانون في جامعة برلين الحرة، كان عضوا في الحزب الاجتماعي الديمقراطي و أحد نشطاء حركة السلام الألمانية. انتقل منذ عام1999 إلى العمل مع حزب الاشتراكية الديمقراطية سلف حزب اليسار الألماني الحالي. رشح عدة مرات ضمن قوائم الحزب لعضوية البرلمان الاتحادي الألماني و البرلمان الأوربي. عضو هيئة تحرير مجلة (العلوم و السياسة الاشتراكية)، وله العديد من الأبحاث و المقالات في الصحف اليسارية. أصدر عددا من الكتب كان آخرها كتابه الموسوم " اليونان و أزمة اليورو" في عام 2010 وصدرت منه طبعة ثانية منقحة عام 2011 . نقدم للقراء ترجمة مختصرة للفصل الأخير من الكتاب.

الاتحاد الأوربي ليس دولة، صحيح انه يمتلك عملة موحدة، و لكن ليس لديه سوى صلاحيات محدودة للغاية في المجالات الاقتصادية و الاجتماعية و الميزانية و السياسة الضريبية، فضلا عن بقاء رسم السياسة المالية ضمن مسؤوليات الدول الوطنية الأعضاء في الاتحاد. (...) لتجاوز الأزمة الحالية يجب أن تضعف هذه الحقوق أو يتم التخلص منها، فالدفع للبلدان التي تعاني العجز لا يتم إلا مقابل التخلي من جزء من الحقوق السيادية للمستلمين: " كل طرق حل أزمة اليورو تؤدي إلى خزينة أموال دافعي الضرائب الألمان: الحكومة الاتحادية إما أن تمنع الدخول إلى الخزينة أو تجبر بلدان اليورو على التخلي عن المزيد من السيادة"(1).

إن برامج الترويكا (صندوق النقد الدولي و البنك المركزي الأوربي و المفوضية الأوربية) التي فرضت على اليونان و ايرلندا و البرتغال حققت تقدما على هذا الطريق، إذ تم إيصال وضع هذه البلدان إلى درجة المحميات، ولكن برلين تريد المزيد. وإذا

أرادت بلدان العجز إن تحيد عن المسار المرسوم لها فسيجري التعامل مع حقها في التصويت (ضمن اطر منطقة اليورو والاتحاد الأوربي- المترجم). في مقابلة مع (النسخة الألمانية من فاينانشال تايمز2011/7/27 أوضح وزير مالية ألمانيا الاتحادية فولفغانغ شويبله :" صحيح إننا لم ننجح في مطالبتنا بأن تفقد البلدان التي لا تستطيع ألإيفاء بالتزاماتها حقها في التصويت، لم ننجح بفرض ذلك حتى الآن، ولكن عليكم الانتظار و سنرى ".

بروكسل تريد الهيمنة

يعرف السيد شويبله جيدا، إن المعاهدات الأوربية لا توفر أرضية لفرض مثل هذه العقوبة، ولجعل ذلك ممكنا تطرح حكومة ألمانيا الاتحادية باستمرار ضرورة إجراء تغير أساسي فيها. كما يمكن التفكير بمقترح رئيس البنك المركزي الأوربي (السابق) جان كلود تريشيه، والداعي لإقامة وزارة مالية أوربية ذات صلاحيات واسعة، " تكون مسؤوليتها الرقابة على الميزانية و القدرة التنافسية و تتدخل في السياسة الاقتصادية لبلدان الاتحاد الأوربي المثقلة بالديون"(2).

لقد أعرب رئيس البنك الاتحادي الألماني عن موافقته على" إن البديل لتعزيز الأطر الحالية هو الانتقال إلى اتحاد مالي أوربي ينقل إليه جزء من الصلاحيات المتعلقة بالسياسة المالية" (3).

ليس لدى رئيس الحزب الاجتماعي الديمقراطي الألماني المعارض، (**زغمر جبرائيل**)، أيضا، مشكلة مع هدم الحقوق الديمقراطية، ففي مقابلة مع الراديو الألماني أكد على ما يلي: "بالطبع ستتنازل البلدان التي تريد الاستفادة من السندات الأوربية عن جزء من سيادتها على سياستها المالية".

ستتحول أزمة اليورو إلى أزمة للديمقراطية، ويرى، هانس- يورغن أوربان عضو اللجنة التنفيذية لنقابات عمال الحديد، بحق إن أوربا تسير نحو التسلط: "هناك الكثير من الأدلة تشير إلى إن أوربا لا تعاني أزمة وجود، ولكنها تمر بمرحلة تحول. (....) يبدو إن النخبة الأوربية مستعدة لمبادلة الاستقرار المالي بالديمقراطية "(4)، وأضاف:"وعندما لا تقدم الانتخابات بعد اليوم إمكانية انتخاب حقيقية، لان الحكومات يفرض عليها، وبغض النظر عن توجهاتها الأيديولوجية، الخضوع للتعليمات القادمة من بروكسل، و تفقد بهذا لعبة تداول السلطة بين المعارضة و الحكومة معناها".

إن أوربان يقلل في الوقت نفسه من أهمية القوى المهيمنة، عندما يقول: "بالرغم من المشتركات الواضحة للعيان فان الموضوعة السيئة حول قوة الهيمنة الألمانية تضيق النظرة لأوربا المعاصرة.

إن ترسيخ النموذج الجديد للمنافسة و النمو، يلبي مصالح أهم القوى الفاعلة في الأسواق المالية العالمية ".

بلا شك تستخدم الأسواق المالية العالمية، والأصح راس المال المالي، النموذج الجديد للمنافسة والنمو، ولكنها لا تستطيع بمفردها فرضه، ولذلك فهي بحاجة إلى القوى المهيمنة في أجهزة الدولة، لأنها وحدها القادرة على تضيق الخناق على الحكومات المتمردة، في البلدان التي تعاني من العجز، وجرّها إلى المسار المطلوب، ولهذا فان المفوضية الأوربية، بدون سلطة الدولة التي تقف خلفها في برلين و باريس و ربما لندن وروما، ليست سوى إطار بيروقراطي.

الضغوط القادمة من برلين

تعلق الأسواق المالية آمالا خاصة على ألمانيا، البلد الأقوى اقتصادا في الاتحاد الأوربي، و لذا يسعى السيد (جوزيف أكرمان)، رئيس البنك الألماني (أكثر البنوك الخاصة نفوذا في الأسواق المالية الأوربية- المترجم)، إلى القرب المستمر من المستشارة الألمانية (أنجيلا ميركل). ولهذا كذلك يطالب الملياردير الأمريكي (جورج سوروس) (الملقب بعبقري المضاربة - المترجم) الحكومة الألمانية بأخذ الدور القيادي في أوربا، وفعلا يأتي الضغط القوي الآن من برلين على البلدان التي تعاني من العجز وجميع بلدان منطقة اليورو لإجبارها على التكَيف. ومن هنا فان مقترح برنامج " إنقاذ اليورو" ليست سوى نسخة من البرنامج النيوليبرالي الألماني" أجندة 2010 " الذي اعتمده التحالف الحاكم بقيادة المستشار (شرودر) في نهاية التسعينيات من القرن الماضي، ومن هنا تأتي باستمرار فكرة استبعاد بلد ما من منطقة اليورو أو حرمانه من حق التصويت داخل مؤسسات الاتحاد الأوربي.

يتطور الاتحاد الأوربي باضطراد إلى نظام للهيمنة تقوده فيه ألمانيا مجموعة من دول المركز الأوربي و مجموعة من دول المحيط الضعيفة و التابعة.

إن اخذ دور مهمين داخل الاتحاد الأوربي سيقود إلى نزاعات في البلد ذاته، وقد بدأ ذلك واضحا في الخلاف حول الاتحاد العابر (transfer Union) -المقصود هنا التكافل المالي-

و حول ضرورة إعادة جدولة ديون اليونان. فالكثير من السكان و كذلك جزء من الطبقة المسيطرة يرفضون سياسة الحفاظ، بأي ثمن، على منطقة اليورو. وعلى هذا الأساس نظمت شركات ألمانية وفرنسية حملة إعلانية كبيرة نشرت في صحف البلدين تحت عنوان " اليورو ضروري" وتضمنت الحملة ضمن أمور أخرى: " تقديم مساعدات مالية في المدى القصير للبلدان المتضررة من أزمة الديون، لكي تستعيد استقلالها المالي، و لتقدم لسكانها مستقبلا أفضل "(5). إن وضع السياسة في خدمة أغراض راس المال المالي تعرض لنقد مباشر من ممثلي إدارة المصانع التي تديرها عوائل مالكيها مباشرة: "نحن ندافع عن أنفسنا ضد نية الشركات الفرنسية وبعض الشركات الألمانية إنفاق أموال دافعي الضرائب "(6). وهذا يدلل في مصلحة من بجري، في المقام الأول الحفاظ على اليورو، إنها مصلحة الشركات فوق القومية التي تستخدم العملة المشتركة لحمايتها من تذبذب الأسعار في التجارة الداخلية الأوربية، لحاجتها لليورو والسوق الأوربية الداخلية التي تضم 500مليون إنسان، كقاعدة تستطيع من خلالها قيادة المعركة بنجاح حول الأسواق المالية العالمية. (.....)

تزايد الشكوك باليورو

ليس هناك اتفاق، لحد الآن، على وجود قوى يمينية في ألمانيا أيضا تشك باليورو على شاكلة حزب "الفنلنديون الحقيقيون" في فنلندا، وحزب الحرية في النمسا، والجبهة الوطنية (القومية) في فرنسا، وحزب الحرية الهولندي. ففي جميع هذه البلدان هناك خليط من الخامات تضم أحكام نفسية مسبقة ضد الشعوب، ونقد برجوازي صغير للبنوك الجشعة، ورفض لدولة الرفاه الاجتماعي، فضلا عن اعتقاد ليبرالي ساذج بنظام اقتصاد بدون رأسمالية مالية.

تتداخل، في ذات الوقت، في هذه ألأيديولوجيات، فكرة مفادها، إن ما يجري في الاتحاد ألأوربي هو اقتصاد مصادرة، نتيجة للتحويل المستمر لموارد القوى العاملة والطبقة الوسطى واقتصاد الأطراف إلى رأس المال المالي.

إن تزايد الشكوك باليورو يقف في مواجهة إستراتيجية امبريالية للرأسمال الكبير، تصر على الحفاظ على منطقة اليورو بشكلها الحالي ولا تريد التراجع عن تعميق التكامل الأوربي. وكلما تتعمق أزمة الاتحاد الأوربي، تتأكد القناعة به أكثر كضامن لإثبات الذات الأوربية، و لهذا يجري التحذير من السير على طريق اللاجدوى: " هنالك اتجاهان ممكنان: إما أن توحدوا أوربا، أو تحصروا العمل المشترك في منطقة للتجارة الحرة، و الأخير سيعزل جميع بلدان الاتحاد الأوربي عن المسرح العالمي و يجعلها بلا أهمية، وهذا يعني نهاية المشروع الأوربي الكبير (...)."(7)

هذا الخوف يثيره أيضا **(ديتر هوندت)** رئيس اتحاد أرباب العمل الألماني والذي يقول: " ليس هناك بلد أوربي يمتلك القوة و القدرة للتنافس بمفرده مع مناطق العالم الصاعدة، أما أن تكون أوربا المشتركة موجودة بين الولايات المتحدة و الصين و روسيا، أو لا تلعب دورا في الأحداث العالمية " (8).

وهذا ليس من جديد في المناقشات الأوربية، فالمخاوف من السحق كانت تصاحب حجج الحركات الأوربية في عشرينيات القرن الماضي، والتي يستند اليوم على أفكارها إيديولوجيو الاتحاد الأوربي، وكما هو الحال في يومنا هذا، كان الهدف سابقا إضفاء الشرعية على مطالبة أوربا بالسيطرة على العالم، وحتى **(لينين)** استشهد، في كتابه: "الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية عام 1916، بتحذيرات عن انهيار وشيك للقارة القديمة.

شبح الصين المخيف

ارتباطا باتساع المزاج المشكك باليورو، يذهب أنصار اليورو و الاتحاد الأوربي الى شن هجوم مضاد من خلال: "البدء بتعبئة أنصار الاستمرار بالتكامل الأوربي، لغرض التحول من الخلاف حول أدوات السياسة النقدية إلى فتح نقاش حول سؤال (الى أين نحن ذاهبون؟)، وبالفعل فهم يحذرون من هجمات شعبوية ضد اليونان لأنها لا تؤدي إلى الفوز في صراع انتخابي و لا تساعد على تلميع الوجوه"(9). تنسجم هنا مطالبة، (أورسولا فون دير لاين)، أحدى ممثلات البرجوازية الكبيرة لا غيرها، بالاندماج السريع، مطالبة " بتوسيع الاتحاد السياسي في أوربا كرد على أزمة الديون .. هدفي هو الوصول إلى الولايات المتحدة الأوربية على غرار نموذج الدولة الاتحادية في سويسرا، ألمانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية. (....) لا تكفي العملة المشتركة للقدرة على المنافسة عالميا، هناك ضرورة لقيام الاتحاد السياسي" (10).

الحزب الاجتماعي الديمقراطي وحزب الخضر المعارضان يتفقان مع هذا الموقف بلا تحفظ. فرئيس الحزب الاجتماعي الديمقراطي **(سغمر جبرائيل)** يقول:" على النخب أن تمارس مسؤوليتها بجدية أكثر من السابق وتدعو لأوربا باعتبارها مشروع الأمل". هنا يتبنى جبرائيل موقف، ديتر هوندت واورسولا فون دير لاين، حرفيا: " في الثلاثين أو ألأربعين سنة القادمة سوف لا

تستطيع ألمانيا أو فرنسا بمفردها أن تلعب دورا سياسيا أو اقتصاديا ذا قيمة – مقارنة بمناطق العالم السياسية والاقتصادية الكبيرة مثل الولايات المتحدة، الصين أو الهند. أوربا برمتها فقط، تمتلك فرصة في التنافس العالمي على صعيد الأفكار والقيم، وعلى صعيد السياسة و الاقتصاد". ولهذا فان رئيس الحزب الديمقراطي الاجتماعي مستعد للتخلي عن حقوق ديمقراطية أساسية عندما أشار قائلا: "لا يمكن الوصول إلى اتحاد أوربي معزز دون التنازل عن جزء من السيادة الوطنية "(11). وينتظر من الخضر أن يتحولوا لحزب أوربي، وإذا ما تخلى الحزب الليبرالي الحر وأحزاب الاتحاد الديمقراطي المسيحي عن دعمهم اللامشروط للاتحاد الأوربي، فان حزب الخضر مستعد لملء الفراغ " (12).

ليس هنالك دليل على الفقدان المفترض لبلدان الاتحاد الأوربي لأهميتها، فإنتاج الصين لم يصل الآن إلى 10% من مجموع ما ينتجه العالم، في مقابل 60% هي حصة الولايات المتحدة الأمريكية وبلدان الاتحاد الأوربي، وإذا أضفنا اليابان كذلك، فان تفوق الثالوث الرأسمالي ساحق. إن تطور الصين والبلدان الصاعدة الأخرى يستند بدرجة كبيرة على استثمارات شركات المراكز الرأسمالية، ولذا فان النمو هناك هو في ذات الوقت مضاعفة لثروات الشركات هنا. إن قصص الرعب حول هبوط أوربي وشيك تنتمي إلى العنصر الأيدلوجي الرئيس لرأس المال المالي الأوربي، لتعبئة جميع القوى الاحتياطية بهدف تحقيق خططه في الهيمنة. في ستينيات القرن الماضي كان الادعاء إن الولايات المتحدة الأمريكية ستفرض اعتماد أوربا عليها، وفي الثمانينيات كانت اليابان توصف بالمنافس القوي (13)، واليوم يأتي دور الصين وحتى الهند التي تعاني الفقر ليكونا بمثابة شبح مرعب.

مكافحة اليمين الشعبوي

جميع المواقف التي تمت الإشارة إليها في ما سبق بعيدة عن الإجابة التقدمية عن الأزمة، فجميعها مواقف وردود إيديولوجية تحت غطاء قوة و مكانة أوربا عالميا، يراد منها تدمير الحقوق الديمقراطية التي حققتها، بشق الأنفس، شعوب البلدان الأوربية عبر عشرات السنين

إن الأيديولوجية الأوربية السائدة في ألمانيا، و التي تلقى العون و المناصرة من الحزب الاجتماعي الديمقراطي وبدرجة اكبر من حزب الخضر، هي إيديولوجية رأس المال المالي الألماني، والتي تعتمد أسلوب امبريالي لتعبئة جميع موارد القارة المتوفرة، لكي يتمكن رأس المال الألماني خوض الصراع الامبريالي العالمي بنجاح، على الأسواق و مناطق النفوذ.

من الضروري مقاومة اليمين الشعبوي الناقد لأوربا، لأنه يصرف، بدعايته البرجوازية الصغيرة ضد "الجنوب المسرف"، الأنظار عن أسباب الأزمة، ويخلق التوترات بين الشعوب ويحرضها على بعضها البعض، وبهذا يعيق التضامن بين القوى المناضلة هنا و هناك، ويحاصر نمو الوعي المضاد للرأسمالية. فاليمين الشعبوي ينتقد قيام الاتحاد العابر ولكنه لا يقول بان هذا الاتحاد يخدم رأس المال المالي، ويسكت اليمنيون الشعبويون عن الأسباب التي أدت إلى النمو المتفاوت في الاتحاد، وذلك عندما يتجنبون الإشارة إلى المنافسة الرأسمالية

المنفلتة المؤثرة في الاتحاد، فالحقيقة إن احتكارات المركز الأوربي هي التي تفرض مصالحها على منافسيها في الأطراف.

لا بد من دعم بلدان الإطراف، التي تتعرض للضغط من بلدان المركز الأوربي، في دفاعها عن سيادتها الوطنية، إذ إن " الحقوق البرجوازية – الديمقراطية في السيادة الوطنية لا يجري الدفاع عنها اليوم من قبل البرجوازية، بل من قبل العاملين الأجراء، لان برجوازيي بلدان أوربا المستقلة يسعون لضمان موقع لهم في هرم السلطة الامبريالية "(14).

إن الذين يشهرون بنضال بلدان الأطراف دفاعا عن مصالحها، باعتباره ضيق أفق وعودة للمنطلقات القومية، إنما يتجاهلون الكثير، لا سيما ما توصل إليه (لينين) بخصوص وجود نوعين من القومية يمكن التميز بينهما بوضوح: احدهما امبريالية عدوانية تقوم على اضطهاد بلدان أخرى، والثانية تساعد البلدان الضعيفة للدفاع عن سيادتها وحقها في تقرير مصيرها.

ولهذا يجب على القوى التقدمية في هذه البلاد التضامن مع بلدان الأطراف التي تتعرض للهجوم، إنها ألمانيا التي تحاول مجددا الحصول على موقع مهيمن في أوربا.

بلا رقابة برلمانية

إن الشروط المفروضة على بلدان الأطراف تؤدي إلى زيادة الضغط على ظروف العمل و المعيشة في بلدان المركز الأوربي، و "برامج إنقاذ اليورو" وحكومة اقتصاد أوربية تضيق فسحة التحرك السياسي للنقابات العمالية على جميع الأصعدة، ولهذا فان سياسة أجور نشطة تعتبر الآن ضرورية في ألمانيا.

سيؤدي رفع ألأجور والرواتب، وكذلك زيادة الإنفاق على الخدمات والبنية التحتية إلى خفض القدرات الاقتصادية الألمانية (في مجال التصدير خصوصا– المترجم)، التي لا تزال مرتفعة بالمقارنة مع بلدان الاتحاد الأوربي ألأخرى. فليس صحيحا إن بلدان الأطراف "عاشت في مستوى أعلى من إمكانياتها المتاحة"، ولكن الأجراء والمتقاعدين والمشمولين بالرعاية الاجتماعية، في ألمانيا، يعيشون منذ سنوات دون مستوى الإمكانيات المتاحة.

إن حكومة اقتصاد أوربية ستنزع سلطة البرلمانات الوطنية وستقلص مساحة التعاطي الديمقراطي في جميع بلدان الإتحاد ألأوربي بما فيها بلدان المركز، واتحاد عابر– تكافل مالي– لخدمة الأسواق المالية سينهي الرقابة البرلمانية.

وهكذا سيتم رفض حق البرلمان الألماني في إقرار، والإطلاع على تفاصيل، مساهمة ألمانيا في برامج الإنقاذ.

وسيتم اتخاذ القرارات المهمة في المستقبل حول منح القروض، في اجتماعات سرية للجان البرلمانية، وقرار المحكمة الدستورية الألمانية في 2011/9/7 لم يغلق الأبواب أمام نزع سلطة البرلمان. ومن هنا فان الدفاع عن الحقوق الديمقراطية يمثل اليوم المهمة الأراس في جميع أنحاء الاتحاد الأوربي.لا يمكن تحقيق أي تغير نحو الأفضل، دون مكافحة ناجحة للأسواق المالية، باعتبارها المسؤولة عن أزمة اليورو، وهذا يتطلب إجبار البنوك وشركات التأمين على إلغاء جزء من الديون.

* مقالة بعنوان: Europ?ischer Autoritarismus
Auf die Euro-Krise folgt der Demokratieabbau, Andreas Wehr, Junge Welt, 17.10.2011

الهوامش

-1Scheitert Europa?«, in: Handelsblatt ,19./20.8. 2011

2- »Trichet schl?gt europ?isches Finanzministerium vor«, in: FAZ, 3.6.2011

3- »Bundesbankpr?sident sucht Partner im EZB-Rat«, in: FAZ, 21.9.2011

4- Hans-Jürgen Urban: »Stabilit?tsgewinn durch Demokratieverzicht? Europas Weg in den Autoritarismus«, in: Bl?tter für deutsche und internationale Politik 7/2011, S. 78.

5-اليورو ضرورة"، إعلان في جريدة (الفرانكفورتر الكماينه تسايتنك) في21/6/2011 صدر عن اللقاء المشترك للشركات الألمانية -الفرنسية في مدينة إيفيان الفرنسية بمشاركة كبريات الشركات الصناعية، بما في ذلك الشركات المصنعة للأسلحة

6-Griechenlandhilfe spaltet die Wirtschaft«, FAZ vom 21.6.2011

7- »Viel mehr Europa, bitte!«, in: Süddeutsche Zeitung vom 20.6.2011

8- Dieter Hundt: »Ein Fünf-Punkte-Plan für Maastricht II«, in: FAZ vom 29.8.2011

9- »Die Kanzlerin und der Sündenbock«, in: FAZ vom 15.9.2011

10 -»Von der Leyen will eine EU nach Schweizer Vorbild«, in: Basler Zeitung vom 27.8.2011

11- Sigmar Gabriel: »Europa braucht tiefere Integration«, in: Die Zeit vom 15.9.2011

12- »Die Kanzlerin und der Sündenbock«, a. a. O.

13-يعتبر الصحفي و الناشر و السياسي الفرنسي (جان جاك سيفان– شرا يبر) الممثل التقليدي لتيار التحذير الأوربي، الذي أصدر عام 1968 كتابه المعنون: " التحدي الأمريكي"، وتمت ترجمته إلى15 لغة وبيع منه في فرنسا لوحدها 600 ألف نسخة. وفي عام 1980 أصدر شرايبر كتابا بعنوان: " التحدي الشامل، تضمن مرة أخرى التحذير من تخلف البلدان الأوربية.

14-Beate Landefeld: »Die EU-Krise schwelt weiter«, in Marxistische Blatter, Heft 4–11, S. 9

حـــــــــــــــوارات

حوار مع د. علي عباس مراد
الديمقراطية علاقة تفاعل بين المجتمع المدني والنظام - لتحقيق التوازن واستمرار الاستقرار

حـــاوره : سعـــدون هلـيل

الحوار مع الدكتور علي عباس مراد يذهب باتجاهات متشعبة، نظرية وفلسفية وثقافية وفكرية، ذلك أن الدكتور علي بمساهماته الفكرية ليس مجرد مفكر أكاديمي، على أهمية ما قدمه في هذا المضمار، ولكنه عنصر فاعل في الحراك الثقافي والاجتماعي العام، وله عدد كبير من المؤلفات من أهمها:- ديمقراطية عصر العولمة - موسوعة الفكر السياسي - مشترك 4ج- المجتمع المدني والديمقراطي. دولة الشريعة في جدلية الدين والسياسة عند ابن سينا. وله العديد من البحوث في المجلات العراقية والعربية.

● ***لنبدأ بالسؤال عن متطلبات بناء الدولة المدنية العراقية الحديثة..***

– لقد كان مطلب (العدالة) وما زال واحدا من أول وأهم المطالب الإنسانية، الفردية والجماعية، ليس فقط بحكم المعاناة الفعلية أو الافتراضية لغالبية المجتمعات من نقصان العدالة إن لم نقل غيابها شبه الكامل، بل وأيضا بحكم قدرة هذا المطلب على استبطان القسم الأعظم من المطالب الإنسانية الأخرى، إن لم نقل كل أشكال تلك المطالب ومستوياتها، الرامية لمعالجة شتى أوجه وأبعاد ظاهرة نقص العدالة أو غيابها في الحياة الإنسانية والمتمثلة في:

1- نقص أو غياب العدالة السياسية بفعل:

– احتكار حق ممارسة السلطة في المجتمع السياسي من قبل فرد أو أسرة أو قبيلة أو دين أو طائفة أو حزب، أو فئة أو شريحة أو طبقة أو تحالف قلة ما استنادا إلى أحد أو بعض تلك الأسس الاجتماعية.

– عدم اعتراف السلطة الحاكمة بشرعية المعارضة ولجوئها في تعاملها مع الأخيرة إلى الوسائل غير القانونية وتصاعد وتائر استخدامها للإقصاء والمضايقة والتهديد والمطاردة والاعتقال وقطع الأرزاق والقمع ضدها.

2- نقص أو غياب العدالة الاجتماعية والقانونية والإدارية بفعل التوزيع غير العادل للخدمات والوظائف والمناصب العليا والحساسة واختصاصها بجماعات أو فئات أو مناطق دون غيرها، وعدم مراعاة التشريعات القانونية والإدارية لمبدأ تحقيق العدالة بين المكونات المجتمعية مع مراعاة اختلافها وتنوعها.

3- نقص أو غياب العدالة الاقتصادية بفعل التوزيع غير العادل للثروة الوطنية على القلة الحاكمة وحرمان الغالبية العظمى من المواطنين من حقهم فيها بل وحرمانهم في غالبية الحالات حتى من الحصول على الحد الأدنى من وسائل العيش الكريم أو حتى جزء منها.

4- نقص أو غياب العدالة المعرفية بفعل تقييد أو إلغاء حرية المعتقد والتعبير عن الرأي والتعليم والنشر والإعلام بما يحرم الغالبية العظمى من المواطنين من حقهم في حرية التعبير عن معتقداتهم الدينية والدنيوية وممارسة طقوسهم والوصول إلى المعرفة والمعلومات.

● ***مارأيكم بشأن اختلاف الأفكار والجماعات لمضمون العدالة وطبيعتها من الجانب الانساني؟***

- لقد كانت العدالة وما تزال غاية كل الشرائع الدينية وجوهر جميع الأنظمة الأخلاقية ومرادفها للمثالية في سلوك الفرد والجماعة وبناء المجتمع وهدف كل القوانين الوضعية حتى وإن لم تلتزم هذه الأخيرة بها في التطبيق فعليا. ومن الواضح والمؤكد أن اختلاف الأفراد والجماعات بشأن كل ما يتعلق بطبيعة العدالة ومضمونها ومظاهرها وأسسها ومقدماتها ونتائجها في الحياة الإنسانية لم يمنع من اتفاقهم على كونها واقعة أساسية وشاملة ومركبة تتعلق بكل مكونات الحياة وعناصرها، ومن ثم فسيكون من الطبيعي الاستنتاج بأن نقص العدالة جزئيا أو غيابها كليا يمثل مشكلة هي الأخرى أيضا ذات طبيعة أساسية شاملة ومركبة، تعم بآثارها الضارة كل جوانب البناء الاجتماعي ومكوناته وأنظمته ومؤسساته وعلاقاته وتفاعلاته، وتشمل بنتائجها السلبية كافة نواحي الحياة الإنسانية وعامة مفرداتها الأساسية والفرعية. وحيث إن المشكلات الشاملة تحتاج إلى الحلول الشاملة، فلا مناص من وجوب حل مشكلة نقص العدالة أو غيابها حلا شاملا بما يتناسب مع طبيعتها ويستجيب لمتطلباتها. وإذ تجتمع تحت مفهوم (تحقيق العدالة) كل الصيغ المتنوعة والأشكال المختلفة لهذا الحل، فسيكون من المنطقي الاستنتاج بأن تحقيق العدالة في أي زمان ومكان، يجب أن يأتي في صيغة حل شامل ومركب تمتد حدوده أفقيا وعموديا لتشمل كل جوانب البناء الاجتماعي ومكوناته وأنظمته ومؤسساته وعلاقاته وتفاعلاته. ولأن مفهوم العدالة أعمق من مفهوم القانون الذي هو أحد وسائل وأساليب تحقيقها وأوسع من العدالة القانونية التي هي إحدى تطبيقاتها بما يوجب أن تكون هذه العدالة أعمق وأوسع من كل تطبيقاتها ووسائلها وأساليبها. فسيكون تحقيق العدالة بشكل فعلي وكلي وشامل في جانب من جوانب الحياة الاجتماعية متعذرا، حتى ولا في الحدود الدنيا وبالقدر الممكن إنسانيا، دون تحقيقها في باقي جوانبها بل أن الثانية (العدالة الكلية) إن لم تكن شرطا وأساسا

للحالة الأولى (العدالة الجزئية)، فلا أقل من أن تتزامن معها وتتوازى في الكم والكيف ليكون التطبيق الفعلي والكلي والشامل للعدالة في الحدود الإنسانية الممكنة محصلة للمجموع الكلي المتفاعل للأنشطة الفرعية المتخصصة الهادفة إلى تحقيق العدالة في كل جانب من جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

● برأيكم ماذا يستلزم التخطيط الشامل والكلي للعدالة الانسانية؟

– التجربة التاريخية للإنسانية قد أثبتت وما زالت تثبت أن التحقيق الفعلي والكلي والشامل للعدالة في الحدود الإنسانية الممكنة وفي كل زمان ومكان، يستلزم ليس فقط وجود سياسات وتشريعات قانونية تضمن ذلك وتؤمن بلوغه، بل ويستلزم أيضا وقبل ذلك وجود المؤسسات القادرة على رسم تلك السياسات وضمان تنفيذها وإصدار تلك التشريعات والحرص على تطبيقها. إن ذات التجربة أثبتت وتثبت أيضا أن المؤسسات التي تضطلع بهذه المسؤولية هي المؤسسات السياسية التي كان الناس وما زالوا يعتقدون أنها المسؤول الأول والأخير عن واقع العدالة في حياتهم في حالتي السلب والإيجاب. ولعل الأساس الأول لهذا الزعم وذلك الاعتقاد وعمودهما هو الحقيقة الثابتة التي تفيد بأن سيطرة أي بعد من أبعاد الحياة الاجتماعية على كل أبعادها الأخرى وعناصرها وتحكمه في جملة مفاصلها وتفاصيلها بشكل معلن أو خفي، مباشر أو غير مباشر، يعني بالنتيجة وحتما أولوية هذا البعد وأسبقيته وهيمنته على كل بعد سواه في هذه الحياة. وإذ لا يمكن إنكار ولا حتى تجاهل سيطرة البعد السياسي الكاملة والمطلقة على حياة المجتمع الإنساني وحكمه لها وتحكمه بها، فلا بد أن تكون البداية والنهاية دائما وفي كل شأن من شؤون الحياة الإنسانية من السياسة وإلى السياسة وبالسياسة ومع السياسة. وحيث إن السياسة لا تظهر ولا تتم ممارستها في أي مجتمع وعصر إلا من خلال السلطة الحاكمة التي تحتكر حق إصدار القرارات العامة وإلزام الآخرين بتنفيذها ولو قسريا بما يجعل من هذه السلطة التجسيد الأول والأوضح والاهم للدولة مفهوما نظريا وتكوينا مؤسسيا وتنظيما قانونيا ونظاما مجتمعيا. فسيكون من المنطقي والطبيعي الاستنتاج هنا بأن الأصل والمرجع في كل مشكلات الحياة الاجتماعية–السياسية الإنسانية هو مشكلات علاقة الارتباط والتفاعل في إطار الدولة بين المكونات الأساسية لهذه الحياة (السلطة السياسية والمجتمع المدني) القائمين في إطار الدولة على القاعدة المادية الجغرافية التي هي الطرف والركن الثالث لهذه الحياة وهذه الدولة بفعل ضعف أو انعدام شرعية هذه العلاقة. ويجعل ذلك معالجة أي من مشكلات الحياة الاجتماعية–السياسية الإنسانية مشروطة ومرهونة بالبدء بمعالجة الأصل والمرجع السياسي لتلك المشكلات، ويعني ذلك من منظور هذه الدراسة أن غياب العدالة السياسية في الدولة (عدالة بنائها تأسيسا على عدالة السلطة الحاكمة فيها استنادا إلى شرعية علاقتها مع مجتمعها المدني) يجعل تحقيق أي شكل من أشكال العدالة الأخرى القانونية والاقتصادية والاجتماعية في هذه الدولة أمرا متعذرا إن لم يكن مستحيلا طالما أن أيا من تلك الأشكال الفرعية المتخصصة

للعدالة ومضامينها وتطبيقاتها هو أولا وقبل كل شيء نتاج ومحصلة قرار سياسي بما يجعل مشكلة نقص العدالة أو غيابها وحل هذه المشكلة في النهاية مشكلة وحلا سياسيين.

● ***ولكن من المسؤول عن تحقيق العدالة ؟***

– أمر طبيعي أن تكون الإرادة السياسية السلطوية ومؤسساتها وسياساتها وقراراتها وتشريعاتها الدستورية والقانونية هي المسؤول ابتداء وانتهاء، نظريا وعمليا، عن تحقيق العدالة في نماذجها الفرعية المتخصصة وتوفير متطلباتها المادية والمعنوية وضمان الوصول إليها. وإذ لا يمكن للسياسة أن تحقق العدالة ما لم تتحقق العدالة أولا وابتداء في السياسة وسلطاتها ومؤسساتها التي هي صاحبة القرار الفصل في تحقيق العدالة والموكلة بتطبيقها، فلا بد للعدالة السياسية من أن تتمتع بأولوية التطبيق على باقي التطبيقات الفرعية المتخصصة للعدالة وتحتل موقع الصدارة بينها بحكم الارتباط المؤكد والدائم لمشكلة نقص العدالة أو غيابها اجتماعيا واقتصاديا بمشكلة نقصها أو غيابها سياسيا ليكون حل مشكلة البعد السياسي لهذه المشكلة شرطا وأساسا ومقدمة لحل مشكلات كل أبعادها الأخرى. وبحكم:

1– أن المتغيرات والتغيرات السياسية تسبق دائما وأبدا المتغيرات والتغيرات القانونية وتتقدم عليها بما يجعل تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية مشروطا أولا وأساسا وفي كل وقت وحال بالتأسيس السياسي الدستوري والقانوني لمفهوم وقواعد العدالة والتزام السلطات الحكومية بهما وحرصها على تطبيقهما وإلزام أفراد المجتمع ومؤسساته بالخضوع لهما.

2– أن جوهر العدل وفحواه هو أن يكون النظام الكلي للحياة الاجتماعية عادلا تأسيسا على مبدأ المساواة في معاملة الحالات المتساوية الخصائص (المتماثلة) القائم على:

– وجود قواعد مقننة للمعاملة في الحالات المحددة.

– القبول الاجتماعي بهذه القواعد والرضا العام عنها.

– عمومية هذه القواعد وشموليتها.

– نزاهة وحيادية تطبيق هذه القواعد.

3– أن هناك اتفاقا شبه عام على أن الديمقراطية هي الحل الإنساني الأكثر ترجيحا ونجاحا حتى الآن للمشكلات السياسية للحياة الاجتماعية، ومن ثم فقد تعاظم الاهتمام بها واتساع نطاق المطالبة بتحقيقها في كل المجتمعات والأوساط على الرغم من تعذر الجزم بتماثل إدراك كل الناس أو غالبيتهم لمعنى الديمقراطية وشروطها ومتطلبات تطبيقها ونجاحها.

فستكون الديمقراطية بذلك ليست فقط الحل والعلاج لمشكلة نقص أو غياب العدالة السياسية، بل وستكون الحل والعلاج أيضا لمشكلة نقص العدالة أو غيابها في كل جوانب هذه الحياة وأوجهها الأخرى المتعددة والمختلفة.

● ***ماذا عن الاسلام الليبرالي .. من حيث ماهيته .. وأطروحاته وأبرز أعلامه ؟***

– أود التذكير ابتداء بأمرين:

– الأمر الأول: إن عبارة (الإسلام الليبرالي) تنطوي على احتمالات الخلط بين

الإسلام الدين الإلهي المقدس، والمقصود بالسؤال تحديدا وهو الفكر الإنساني الذي صاغه المفكرون المسلمون واتخذ عند بعضهم طابع القراءة والاستنباط الليبراليين

– الأمر الثاني: إن من المتعذر تقديم إجابات تاريخية للأسئلة عما غاب ولم يحضر في الماضي لأنها لا تتعلق بحدث تاريخي حصل فعلا بل هي مجرد أسئلة افتراضية الهدف منها الاقتراب أكثر ما يمكن من المشكل المطروح، بقدر ما أن من المتعذر أيضا تقديم إجابات تنبؤية عما يمكن أن يحدث مستقبلا لاتساع نطاق احتمالاتها وتراوحها بين أقصى السلب وأقصى الإيجاب. لكننا سنحاول أن نقدم هنا إجابة عامة عن علاقة الإسلام بالليبرالية نتمنى أن يستخلص منها القارئ إجابة خاصة عن علاقة الإسلام بالليبرالية في العراق.

إن آراء الباحثين حول معاني الليبرالية (الحرية/التحررية) ومفاهيمها تتعدد وتتنوع بقدر ما تتعدد وتتنوع أيضا حول بداياتها زمانا ومكانا، ولكن تلك الآراء تتفق إجمالا على:

– إن معنى الليبرالية وبشكل مبسط هو الحرية الفردية الكاملة في مجالات الفكر والمجتمع والاقتصاد والسياسة في ظل أدنى حد ممكن من القيود القانونية والتدخلات الحكومية اللازمة لتأمين الحرية التي ارتبطت بالفردية ارتباطا عضويا وثيقا، وإلا فما معنى الحرية إن لم تكن حرية الفرد في فعل ما يشاء وقتما يشاء وحيثما يشاء بشرط احترامه لحريات الأفراد الآخرين. ولا توجد الحرية والفردية في المجتمع إلا في ظل سلطة الدولة، ولكن دون تدخلها في شؤونهما إلا بقدر ما تحميهما وتدافع عنهما، لذلك يرى فيلسوف النفعية (وليم جيمس) أن الدولة والقانون في النظام الليبرالي كضفتي النهر اللتان تقتصر وظيفتهما على تأمين انسياب مياهه دون عوائق ولا حواجز، ولكن الدولة والقانون تفقدان سبب وجودهما إذا تحولتا إلى عوائق في طريق حرية حركة الفكر والاقتصاد والمجتمع.

– إن ظهور الليبرالية وتطورها مرتبطان بالنطاق الحضاري الأوربي الذي توفرت فيه الشروط الواقعية الموضوعية اللازمة لذلك والتي كانت في بدايتها شروطا ثقافية واجتماعية واقتصادية عكستها وعبرت عنها فكرتا الحرية والفردية، ثم أصبحت في مراحل لاحقة شروطا سياسية عكستها وعبرت عنها فكرتا الدستورية (دولة القانون) والديمقراطية النيابية (سيادة الشعب وسلطته التي يخولها إلى نوابه عبر الانتخابات) بما يوفر لكل فرد وجماعة حق وحرية التعبير عن الذات والمشاركة في صنع الشؤون العامة والتشريع لها وإدارتها واتخاذ القرارات المتعلقة بها عبر آليات الترشيح والانتخاب لمناصب السلطة وتداولها سلميا ودوريا بما يجعل وجود الليبرالية الثقافية والمجتمعية والاقتصادية سابقا على وجود الليبرالية السياسية وغير مقترن بها على وجه الحتم والضرورة والديمومة.

– إن أهم أركان الليبرالية السياسية الأوربية هي:

– إن الشعب مصدر السلطات وصاحبها

– إن الشعب يمارس سلطاته بنفسه وبشكل مباشر (الديمقراطية المباشرة)، أو يوكلها إلى حاكم عن طريق (العقد

الاجتماعي) ليحكم باسمه ونيابة عنه (الديمقراطية النيابية غير المباشرة)، وله أن يستعيد سلطاته ممن أوكلها إليه عندما لا يقوم الوكيل بواجباتها وفقا لشروط العقد بينه وبين الشعب صاحب السلطة وله أن يعاقبه على تقصيره وأن يغيّره إن شاء.

– تداول السلطة سلميا ودوريا

– احترام حقوق الإنسان وحرياته.

– الإقرار بالتعدد والتنوع الاجتماعي والسياسي.

– الدنيوية أو العلمانية أو التي تعني فصل الدين عن السياسة وليس عن المجتمع ولا عن الدولة حرصا على استقلال وتمايز نطاق اختصاص ومسؤولية المؤسستين الدينية والسياسية وضمانا لعدم تدخل أي منهما في شؤون الأخرى منعا لتسييس الدين بقدر منع السلطة السياسية من التستر بالدين لتبرير سياساتها وشرعنة قراراتها.

●*على ما يبدو اننا لا نستطيع أن نتحدث عن الإسلام الليبرالي دون فهم المشروع الليبرالي في سياقات وفهم العقل الغربي*؟

– إن المشروع الليبرالي الغربي بدأ أولا كمشروع اجتماعي واقتصادي ثم أصبح مشروعا سياسيا، وبدأ المشروع الليبرالي السياسي فرديا ثم أصبح ارستقراطيا ثم ديمقراطيا في آخر مراحله، ومن ثم، فإن وصف فكر أو سلوك أي فرد أو جماعة بالليبرالية لا يحتم بالضرورة أن يكون الموصوف ديمقراطيا دائما لعدم وجود تطابق حتمي ودائم بين الليبرالية والديمقراطية (وأظن أن هذا جوهر السؤال عن الفكر الإسلامي الليبرالي). ويمكن للمتتبع لتاريخ الليبرالية أن يتلمس العداء الواضح للديمقراطية عند منظري الليبرالية ومؤسسيها الأوائل، حيث كانت مساعيهم الحثيثة لتطبيق الشعار الليبرالي (دعه يعمل، دعه يمر) تعارض مطالب الطبقات الشعبية في المساواة في الحقوق بين من يملك ومن لا يملك بما في ذلك حق التشريع والمشاركة في السلطة، بقدر ما كانت تعارض أيضا وفي آن واحد استبداد السلطة الفردية المطلقة وامتيازات النبلاء والكهنة ونفوذهم.

وبقدر ما كانت الليبرالية، بشقيها الاجتماعي–الاقتصادي ابتداء ثم السياسي استتباعا، تعبيرا داخليا وواقعيا مباشرا عن حاجات الطبقة البرجوازية الناشئة والناهضة في أوربا في عصري النهضة والحداثة للتصدي للمشروع الاجتماعي الإقطاعي المنهار وطرحا لمشروع اجتماعي جديد أكثر تقدما واتساقا وقدرة على دفع حركة التقدم الاجتماعي للإمام. فقد كانت الليبرالية في المجتمعات الآسيوية والأفريقية والأمريكية اللاتينية التي تعرضت للغزوة الاستعمارية الأوربية الأولى فكرة خارجية وافدة دعت الضرورات الاقتصادية إلى استقدامها وتبنيها، قبل أن تدعو لذلك الضرورات السياسية وأكثر منها، وهو ما حدث دون توفر الشروط والأسس الواقعية الموضوعية اللازمة لاستنبات هذه الفكرة في غير أرضها مما جعل منها نبتا بلا جذور، ومن ثم فقد كان تبنيها وتطبيقها في تلك المجتمعات مرتبطا بالخيارات الفكرية الذاتية للفئات والشخصيات المثقفة والحاكمة تأثرا من المغلوب بالغالب، أو رغبة في التشبه بالمتقدم والمتحضر، أو سعيا للقبول في المحافل الدولية، أو إعجابا فعليا بالقيم

الغربية، أو كل ذلك معا. ولعل هذا ما يفسر إعلاء الثورات الوطنية وأنظمتها في هذه المجتمعات لشعار الديمقراطية ورغيف الخبز قبل الديمقراطية السياسية وحرية التعبير، ومن ثم تجرؤها على إهدار وانتهاك حقوق مواطنيها وحرياتهم بما يفوق إهدارها وانتهاكها على يد السلطات المحلية وحتى الاستعمارية التي قالت هذه الأنظمة أنها جاءت لتحرير شعوبها منها وهو ما مهد لانفرادها لاحقا بالسلطة وتقليصها أو إلغائها كليا لمبادئ حرية التعبير والمشاركة السياسية والتداول السلمي والدوري للسلطة التي توفرت لتلك المجتمعات في مرحلة المد الليبرالي المصاحب للموجة الاستعمارية الغربية التي اجتاحتها.

وإذا كانت هذه المجتمعات وأنظمتها قد تبنت الليبرالية خيارا فكريا ذاتيا ابتداء، فقد تخلت لاحقا عنها في عهد الثورات الوطنية لصالح تبنيها للاشتراكية هي أيضا خيارا فكريا ذاتيا، وكان كلا الخيارين مفتقرين إلى الأسس والشروط الموضوعية الواقعية. وإذا ما كان الحديث يدور اليوم بعد التخلي عن الاشتراكية عن العودة مجددا إلى الليبرالية وقيمها وتطبيقاتها السياسية المتعلقة بالحرية والفردية والدستورية والديمقراطية بكل مشتقاتها المتعلقة باحترام الحقوق والحريات الفردية والجماعية، والإقرار بالتعدد والاختلاف المجتمعي والسياسي، والانتخابات، والمعارضة، والتداول السلمي والدوري للسلطة، ومحاسبة الحكام ومعاقبتهم وتغييرهم. فان ذلك كله لا يحدث نتيجة لتوفر الأسس والشروط الموضوعية الواقعية الداعية لذلك والضامنة لاستمراره واستقراره، بل هو الآن وكما كان في الماضي، مجرد خيارا فكريا ذاتيا يحركه عاملان أساسيان هما:

– عامل الاضطرار للاستجابة للشروط الملزمة للتكيف مع العولمة ونشاطاتها والاندماج فيها

– عامل الرغبة في الانتفاع من الموجة الليبرالية الصاعدة وركوبها بقصد الحصول على بعض المكاسب منها

ويرجح ذلك احتمال التخلي مستقبلا عن الخيار الليبرالي في أول فرصة سانحة كما تم التخلي من قبل عنه وعن غيره من الخيارات بفعل افتقارها جميعا إلى الأسس والشروط الموضوعية الواقعية واقترانها دوما وفي كل حال باحتياجات وأمزجة الحكام والنخب المحيطة بهم.

● ***هنا نريد أن نتعرف على تبني بعض المفكرين الليبراليين الاسلاميين ؟***

– ومن الطبيعي أن نتوقع في هذا السياق أن يكون تبني بعض المفكرين الإسلاميين أو حتى كلهم في الظروف الراهنة لليبرالية عامة والليبرالية السياسية خاصة خيارا ذاتيا قابلا للتراجع عنه لأي ظرف أو سبب كان، وألا يتخذ هذا التبني طابعا واحدا، وحتى إن حدث واتخذ مثل هذا الطابع فإن ما سينضوي تحته من مواقف ليبرالية أو ليبرالية سياسية ذات طابع إسلامي يمكن أن يتراوح بين أقصى اليمين وأقصى اليسار. فإذا أضفنا إلى ذلك أن مواقف المفكرين المسلمين من المسألة السياسية تنطلق في غالبيتها من مبدأ السيادة/الحاكمية الإلهية وليس السيادة الإنسانية/المجتمعية كما يرى الفكر الليبرالي الغربي بكل اتجاهاته، فسيخلق ذلك خلافا جوهريا بين الاثنين يتعذر حله دون تنازلات. وإذ تنقسم مواقف

المفكرين المسلمين من السلطة على موقفين أساسيين:

– الموقف الأول: يقول إن الإسلام دين ودنيا يشترطان وجود دولة.

– الموقف الثاني: يقول إن الإسلام دين ودنيا لا يشترطان وجود الدولة.

ويشتمل الموقف الأول على نظريتين سياسيتين هما حسب تسلسلهما التاريخي:

– نظرية الإسلام دين ودولة بالاختيار والبيعة من الأمة للإمام.

– نظرية الإسلام دين ودولة بالنص والوصية من اللّه للإمام.

وكل نظرية منهما تشتمل في إطارها على نظريات تطبيقية فرعية متعددة ومتنوعة تقدم أو تؤخر زمن قيام هذه الدولة وتختلف على شروطها وأركانها ووسائل إقامتها. فسيكون من المتعذر في ضوء كل ذلك تقديم حساب دقيق للاحتمالات المستقبلية لتبلور تيار إسلامي ذي منحى ليبرالي أو ليبرالي سياسي في العراق أو خارجه ملاحظين في هذا الصدد أن ليبرالية السياسيين العراقيين وحتى غيرهم ممن يقفون خارج دائرة الجماعات الدينية ليست خالصة ولا قابلة لإثباتها ولا البرهنة عليها بشكل جازم وقاطع. أما نماذج النظم السياسية في البلدان الإسلامية المجاورة فإن الجمهورية الإسلامية في إيران أنموذج تطبيقي خاص لنظرية النص والوصية، والمملكة العربية السعودية أنموذج تطبيقي خاص لنظرية الاختيار والبيعة، وتركيا أنموذج تطبيقي خاص للدولة العلمانية المفرطة في علمانيتها لأسباب داخلية وخارجية تاريخية وجغرافية وتحكمها تطلعات تركيا المستقبلية وارتباطاتها الإستراتيجية، وكل من هذه الأنظمة له طبيعته المميزة التي لا تبدو مناسبة للمجموع الكلي المتفاعل للخصائص والاحتياجات والارتباطات والتطلعات المجتمعية العراقية مما يقتضي بلورة أنموذج سياسي عراقي خاص سواء كان ليبراليا أم غير ليبرالي.

● ***إذا كانت هناك علاقة بين الديمقراطية والشرعية في النظم السياسية .. كيف نتفهم ونتعامل إذن مع هذه العلاقة وما هي طبيعتها*** ؟

– تتكون بنية المجتمع السياسي الحديث (الدولة) من أركان أساسية تضم إلى جانب الركن المادي المتمثل في الإقليم كلا من المجتمع المدني والسلطة السياسية ونظام الارتباط والتفاعل بينهما. وتعد السلطة، بمعنى قدرة إرادة ما على التحكم في إرادة أخرى وتوجيهها ولو على الرغم من هذه الأخيرة وبخلاف قيمها أو مصالحها، ظاهرة طبيعية في أي مجتمع إنساني طالما أن العيش دون سلطة أمر خيالي يصعب تصوره إذ كل شيء يوحي بالسلطة ويؤكد ضرورة وجودها. وكما يقول (الفن توفلر) فإن "السلطة في حد ذاتها ليست بالشيء الحسن ولا السيئ، إنها جانب لابد منه في أي علاقة إنسانية، وهي تؤثر في كل شيء، وما نحن سوى نتاج للسلطة". وإذ تشترك كل أنواع النظم السياسية قبل ظهور الدولة وبعدها في وجود وتعايش وتفاعل ركني المجتمع والسلطة على قاعدة الإقليم المادية، فإن ما سيميز الدولة كشكل مستحدث للتنظيم السياسي هو نظام الارتباط والتفاعل بين هذين الركنين. وبولادة الشكل الجديد لهذا النظام (الديمقراطية) وتطبيقه في الغرب، فقد باتت معادلات العلاقة بين أركان

الدولة (السلطة والمجتمع ونظام الارتباط والتفاعل بينهما ديمقراطيا) محكومة بمعادلات العلاقة بين الاشتراطات الثلاثة التي يقوم عليها نظام الارتباط والتفاعل الديمقراطي بين السلطة والمجتمع، وهذه الاشتراطات هي:

- الاستقرار.
- الشرعية.
- الديمقراطية.

ويؤثر الارتباط التفاعلي بين هذه الاشتراطات وطبيعة توازناتها ومعادلاتها بسعة وعمق كبيرين في منظومات ومعادلات التفاعل بين ركني المجتمع المدني والسلطة السياسية في أية دولة من حيث إنه العامل الذي يحدد مدى تعبير هذه السلطة عن إرادتها أو إرادة مجتمعها أو محصلة التفاعل المتوازن بين الإرادتين معا مما يحدد بالنتيجة طبيعة هذين الركنين وخصائصهما. فإذا كان الاستقرار يعني وضوح وتوازن مكونات النظام السياسي وعلاقاته واستمرارها دون تغيرات غير مرغوبة من طرفي هذه العلاقة على المستويين الداخلي المتعلق بوضوح وتوازن علاقات هذا النظام بالمجتمع المدني، والخارجي المتعلق بوضوح وتوازن علاقاته الثنائية والجماعية بالوحدات الدولية الأخرى.

● ***نعلم ان ثمة علاقة جدلية بين السلطة ونظامها الديمقراطي ، فكيف تفسر ذلك في ضوء الاشتراطات التي حددتها وما مدى استقرارها في نظركم؟***

– إن أساس هذا الاستقرار وقاعدته هي الشرعية الاجتماعية والقانونية والانجازية التي يتمتع بها النظام السياسي والتي تشير إليها الدراسات القانونية تحت تسميتي الشرعية والمشروعية. وحيث إن النظام الديمقراطي القائم على القبول الإرادي للمجتمع بالنظام السياسي الحاكم ورضاه الطوعي عنه وولاءه له هو المصدر الوحيد المتاح اليوم لمثل هذه الشرعية والأساس لعلاقة الارتباط والتفاعل المتوازنة والمتوازية والإيجابية بين المجتمع ونظامه الحاكم بما يحقق لهما الاستقرار والاستمرار بعيدا عن عوامل الاضطراب والصراع، فسيكون المعنى الأول والوحيد لغياب الديمقراطية هو قيام نظام سياسي لا يراعي مصالح كل أفراد المجتمع وفئاته، ويخدم مصالح القلة القليلة من أغنيائه وأغنياء بلدان العالم الأخرى على حساب كل الفقراء ومتوسطي الدخل فيه بما يحرمه من القبول الإرادي لغالبية مواطنيه به ورضاهم الطوعي عنه وولاءهم له، ليفقد بذلك شرعيته، ويجعل علاقة الارتباط والتفاعل بينه وبين الغالبية المجتمعية سلبية مما يؤسس لعدم استقراره ومعاناته عاجلا أو آجلا من عوامل الاضطراب والصراع التي تهدد استمراره. وإذ كانت الشرعية وما تزال شرطا لا غنى عنه لأي نظام سياسي، فقد جعل ذلك منها مطلبا أساسيا في التاريخين الاجتماعي والفكري لتكون النظم السياسية في سعي دائم وحثيث لإحراز هذا المطلب حتى غدا هاجس الفكر والعمل السياسي القديم والحديث ومعيارا أساسيا من معايير تحديد طبيعة الأنظمة السياسية ونوعية معادلاتها الفكرية في مختلف العصور وشتي المجتمعات. أما ما وقع من ثورات كبرى في أوربا ابتداء من القرن الخامس عشر فلم يستهدف إسقاط شرط الشرعية ولا القضاء

عليه، بل كان هدفه تغيير الشرعية السائدة والقائمة على مرجعية دينية مقدسة وإحلال شرعية جديدة محلها قائمة على مرجعية اجتماعية غير مقدسة. هكذا وضعت الثورات الإنكليزية عام 1688 والأمريكية عام 1776 والفرنسية عام 1789 نهاية حاسمة لعصر الشرعية الدينية المستندة إلى الإرادة الإلهية وافتتحت عصر جديدا للشرعية الاجتماعية المستندة إلى الإرادة المجتمعية المتجسدة في مبادئ وقواعد وآليات ومؤسسات الترشيح والانتخاب والتصويت والاقتراع العام السري الحر التي يؤطرها النظام الديمقراطي. وبذلك فإن تأسيس العلاقة بين المجتمع المدني والنظام السياسي في الدولة على قاعدة الديمقراطية يعني تولي المجتمع المدني للسلطة وممارسته لمسؤولياتها عن صنع السياسات واتخاذ القرارات وتنفيذها بشكل مباشر، أو توليه للسلطة وممارسته لمسؤولياتها بشكل غير مباشر/نيابي عبر اختياره للأفكار والبرامج والشخصيات التي تعبر عن إرادته وتحكم باسمه ونيابة عنه وفي الحالتين يحظى النظام السياسي الذي يحكم باختيار المجتمع وإرادته بالشرعية والاستقرار ولو بدرجات متفاوتة. ويترتب على غياب الديمقراطية حرمان المجتمع من حقه المباشر أو غير المباشر في تولي السلطة وممارسته مسؤولياتها عن عملية صنع السياسات واتخاذ القرارات وتنفيذها في وقت يكون فيه هذا المجتمع محور تلك العملية وغايتها وأداتها مما سيحوله إلى مجرد موضوع لأنشطة النظام السياسي ومادة لوظائفه إخضاعاً لجسده المادي وتطويعاً لإرادته المعنوية فردياً وجماعياً. فإذا كان استقرار الأنظمة السياسية واستمرارها مشروطا أساسا بشرعيتها، وشرعية الأنظمة السياسية في العصور الحديثة شرعية إنسانية اجتماعية مشروطة أساسا بأخذها بالديمقراطية، فستكون الديمقراطية شرط الشرعية والاستقرار وأساسهما وقاعدتهما في هذه الأنظمة مما يميز الديمقراطية عن شرطي الشرعية والاستقرار بجعلها معامل التوازن الأساس المحدد لطبيعة نظام الارتباط والتفاعل بين ركني السلطة السياسية والمجتمع المدني في الدولة.

● ***ما رأيكم في نشاطات ودور منظمات المجتمع المدني ودورها في تفعيل الديمقراطية في مجتمعنا؟***

– بمرور الوقت وتراكم منجزات النظم الديمقراطية الغربية ترسخ في القيم السياسية الحديثة الإيمان بأهمية الديمقراطية وضرورتها لخلق علاقة تفاعل إيجابي بين المجتمع المدني والنظام السياسي، مثلما ترسخ في هذه القيم أيضا الإيمان بقدرة الديمقراطية على تزويد هذا النظام بالكفاءة القائمة على إمكانية الفعل والإنجاز استناداً إلى تلك العلاقة حتى بات من ثوابت التجربة السياسية الحديثة أن "نظم الحكم التسلطية نادرا ما تقترن بالكفاءة". وتأسيسا على ذلك سيكون من الطبيعي الاستنتاج بأن أي نظام يعاني من مشكلة غياب الديمقراطية سيعاني أيضا من مشكلة غياب الشرعية مما يترتب عليه معاناته استتباعا من مشكلة غياب الاستقرار ومن ثم معاناته من مشكلة فقدان الكفاءة وإمكانية الفعل والانجاز. وإذ لم يعد من سبيل في هذا العصر لضمان شرعية وجود الأنظمة السياسية الحاكمة وتأمين استقرارها واستمرارها على أسس مجتمعية

توافقية سلمية إلا الديمقراطية، فإن الأنظمة التي ترفض الخيار الديمقراطي، وتفتقر نتيجة لذلك إلى الشرعية الاجتماعية، لا يبقى أمامها عادة إلا خيار الاستبداد والقسر والإرغام لضمان استقرارها واستمرارها. وإذ لا ينتج هذا الخيار ولا يولّد إلا المزيد من غياب الديمقراطية وانتهاك الحريات الفردية والحقوق الإنسانية الأساسية، فإن النظام السياسي الذي يتبناه ويستخدمه سيزداد معدل فقدانه لشرعيته مما ينعكس سلباً على استقراره وكفاءته وقدرته الإنجازية أيضا. ولما كان غياب النظام الديمقراطي أو تدني مستوى فاعليته سببا يدفع بالنظام السياسي في أية دولة إلى استخدام وسائل قسرية وقمعية لإظهار التأييد والحماس الشعبيين لسياساته وقراراته دون أن ينشغل كثيراً بالبحث في جدية الولاء والحماس المذكورين، فسيؤدي ذلك إلى زيادة حدة التوتر بين المواطنين والسلطة السياسية. وحيث إن الأنظمة السياسية التي تعاني من مثل هذه المشكلات تميل إلى عدم الخضوع للقواعد الدستورية والقانونية وتعمل على إفراغ التشريعات والمؤسسات المنبثقة عنها من كل محتوى حقيقي ليتحول الدستور فيها إلى وثيقة شكلية توضع لتغطية ممارسة الحاكم وإضفاء الشرعية عليها فيكون من السهل إقراره أو تغييره وحتى خرقه. لذلك سيغلب على هذه الأنظمة ممارستها لمفاعيلها السلطوية الأكثر زخما دون شرعية، واستخدامها آليات عمل تعجز عن تحقيق التوازن بين ضرورة استمرارها واستقرارها من جهة وضرورة حماية الحقوق والحريات الإنسانية الأساسية من جهة ثانية، وعن ذلك تنتج عادة اختلالات هيكلية ووظيفية تكون محصلاتها في الغالب لصالح استمرار النظام السياسي واستقراره وفاعليته على حساب مصالح المجتمع المدني وحقوقه وحرياته. وقد تزايد خطر هذه الاختلالات نتيجة تزايد زخم الفواعل السلطوية بفعل التحسن والتنوع المستمرين في آليات الضبط والتحكم الاجتماعي وتقنياتها وأنظمة الرقابة القمع ووسائلها وأساليبها. وفي ظل هذه الظروف المقترنة بظاهرة انعدام الضمانات الدستورية والقانونية الكفيلة بحماية الحقوق والحريات الإنسانية كظاهرة ملازمة لغياب الديمقراطية أو عدم فاعليتها، باتت النظم السياسية تتمتع بإمكانية أكبر على تطويع التعدد والتنوع الإنسانيين وقدرة أعلى على التحكم في البنية الكلية للمجتمع وخلاياه ومفاصله.

● ما الذي يميز الدولة القومية الحديثة في أوربا وما هي الفروقات بينهما وبين الدولة في الفكر الإسلامي؟

– ان الانضباط المعقلن الذي ميز الدولة القومية الحديثة في أوروبا، والمستند إلى اشتراطات الديمقراطية والشرعية والاستقرار، قد سمح لأنظمتها السياسية بتنظيم الفعاليات الفردية والاجتماعية وتوجيهها وفقاً لمبادئ تنظيم وتوزيع وتناسق القوى ومراكز التوجيه وأدوات التنفيذ، ووضع كل ذلك في إطار مؤسسات تضمن توازن علاقات القوة والتفاعل بين الأفراد والجماعات، وتشريعات قانونية تنظم نشاطات تلك المؤسسات وآليات عملها. فإن غياب هذه الاشتراطات عن آليات عمل الأنظمة الحاكمة في المجتمعات المتخلفة قد غيب عنها الانضباط المعقلن وزاد بشكل

مفرط من سلطاتها وقدرات الضبط فيها بقدر ما انتقص من عقلانيتها حتى وصل بها الأمر إلى حد التحكم الكيفي السلبي في حياة المجتمع المدني ومصادرة حقوقه وحرياته الأساسية. وإذ يحتم الطابع السلبي لعلاقة التفاعل بين النظام السياسي والمجتمع المدني اندفاعهما في اتجاهين مضادين واستخدام كل منهما للمتاح له من وسائل القسر والإرغام وأدواتهما لإجبار الطرف الآخر على التخلي عن مواقفه وخياراته والخضوع لإرادة الطرف الأول وقبول خياراته ومواقفه وتوجهاته. ولأن فرص وإمكانيات النظام السياسي للحصول على وسائل القسر والإرغام وأدواتهما هي الأفضل والأعلى، تدعمه في ذلك وتسنده قدرته على استخدامها في ظل القانون وتحت حمايته في ظل احتكاره لقانونية استخدامه لوسائل العنف وأدوات القوة. فإن ذلك يعني أن النظام السياسي سيكون الطرف الأكثر أهلية في هذه المواجهة لفرض إرادته على الطرف الآخر (المجتمع المدني)، لذلك فإن صورة الدولة ونظامها السياسي تتطابق في هذه الحالة في ذهن الحكام والمحكومين مع أجهزة القمع، وتغدو السياسة نشاطاً حراً ومطلقاً يتحقق ويتطور خارج الدولة ومن ورائها. ويترتب على سيرورة علاقات التفاعل بين النظام السياسي والمجتمع المدني وصيرورتها على هذه الشاكلة، عجز النظام السياسي عن أداء وظيفته بوصفه المعبر عن الإرادة العامة للمجتمع المدني والمجسد لها دستورياً ومؤسسياً في الداخل والخارج، لتصبح صلته بمجتمعه المدني نوعاً من العلاقة الميكانيكية التي يكون كل منهما فيها طرفا خارجيا بالنسبة للآخر.

● ***ولكن ما العلاقة الجدلية بين الاستقرار والشرعية في نظركم؟***

– تأسيساً على ما تقدم يمكن الزعم بأن علاقات التفاعل بين الديمقراطية وكل من الاستقرار والشرعية محكومة بالقواعد التالية:

1– إن علاقة التفاعل بين النظام السياسي والمجتمع المدني استناداً إلى شرط الديمقراطية تمنح النظام شرعيته الاجتماعية والقانونية، فيغدو بذلك المعبر عن الإرادة الاجتماعية والمجسد لها على صعيد العملية السياسية وقراراتها.

2– إن تمتع النظام السياسي بالشرعيتين الاجتماعية والقانونية يؤسس لتمتعه بقدر مواز ومقابل من الاستمرار والاستقرار المستمدين من هاتين الشرعيتين والمستندين إليهما.

3– إن افتقار علاقة التفاعل بين النظام السياسي والمجتمع المدني إلى شرط الديمقراطية سيحرم النظام من شرعيته الاجتماعية، على أقل تقدير، جراء قطيعته مع مجتمعه خصوصاً وأن هذا النوع من الأنظمة ينطلق من افتراض يفيد بأن من ليس معها فهو ضدها، وهذا ما يخلق الظرف المناسب للصراع وفقدان الاستقرار بسبب لجوء النظام إلى العنف والاستبداد في علاقته مع مجتمعه فالاستبداد يولد التمرد وأحدهما يستدعي الآخر.

4– إن فقدان النظام السياسي لاستقراره جراء فقدانه لشرعيته، سيدفعه لحماية أمنه وضمان استمراره واستقراره باللجوء إلى معامل القوة القسرية/العنف مادياً ومعنوياً لتحقيق ذلك.

5- إن استقراراً يضمنه استخدام النظام السياسي لمعامل القوة القسرية ومفاعيله هو استقرار هش وغير ثابت:

أ. لأن معامل القوة القسرية الذي يستخدمه النظام السياسي لفرض الاستقرار عُرضة للاختلال والتغير في حال فقدانه لأحد مقوماته أو لبعضها وكما يقول جان جاك روسو "لن يكون الأقوى بالقوة الكافية لكي يكون السيد دائما إلا إذا حول القوة إلى حق والطاعة إلى واجب"، فاستقرار أساسه معامل هش وغير ثابت هو الآخر استقرار هش وغير ثابت.

ب. لأن معامل القوة القسرية الذي يستخدمه النظام السياسي لفرض الاستقرار يستدعي ويحفز معامل قوة قسرية مضاد تلجأ قوى المجتمع المدني المعارضة لاستخدامه ضد النظام السياسي، وعلى حد قول (نعوم شومسكي) "فإن القمع يولد المقاومة"، أو كما يقول (ميشيل فوكو) فإن "الشعب بعد التعود على رؤية سيلان الدم، يتعلم بسرعة أنه لا يستطيع الانتقام إلا بالدم".

إن تصعيد النظام السياسي لزخم معامل القوة القسرية ضد قوى المجتمع المدني المعارضة يستدعي ويحفز تصعيد هذه القوى، إن عاجلاً أو آجلاً، وبالمقابل لزخم معامل القوة القسرية المضاد للنظام، وترفع الكلف الإضافية التي تتحملها المعارضة جراء ذلك من كمية وقيمة الاستحقاقات التي تطالب النظام السياسي بدفعها بما يزيد من حجم جرعة العنف التي يتبادلها الطرفان النظام والمعارضة.

● ***سؤالنا ما قبل الأخير حول كيفية فهم النظام الديمقراطي ومدى علاقته بالنظام السياسي؟***

- يترتب على ذلك أن الصور المتعددة والمختلفة للتعطيل السلطوي للديمقراطية وصيغها الفكرية والمؤسسية والإجرائية المتنوعة والمتعددة تولّد وتستتبع في كل الوقائع والنماذج تعطيلاً مقابلاً وموازياً لعلاقة التفاعل الإيجابي بين النظام السياسي والمجتمع المدني مما يتسبب تلقائياً في فقدان هذا النظام لشرعيته المجتمعية والقانونية، أو أنه على الأقل يجعلها شرعية شكلية فارغة من أي محتوى أو مضمون حقيقي. وإذ ينصب تركيز هذا النوع من النظم السياسية واهتمامها كلياً على الوظائف المرتبطة بحماية وجودها وضمان استمراريتها نتيجة القطيعة القائمة بينها وبين مجتمعاتها المدنية بكل ما يرشح عن هذه القطيعة من أشكال المعارضة الإيجابية والسلبية، فالنتيجة الطبيعية لذلك ستكون قلة تركيز هذه النظم على وظائفها الأخرى وضعف اهتمامها بها وتراجع نسبة إنجازها فيها لانشغالها بمسؤوليات حماية وجودها وضمان استمرارها واستقرارها فتفقد هذه النظم شرعيتها الثالثة (الشرعية الانجازية) بعد أن فقدت من قبل شرعيتيها الأخريين (المجتمعية والقانونية) لتصبح مفتقرة لكل أوجه الشرعية وتجلياتها (المجتمعية والقانونية والإنجازية). ولأن الدولة مفهوم نظري مجرد يتجسد مؤسسيا ووظيفيا وإجرائيا في النظام السياسي ومن خلاله، فإن فقدان هذا النظام لأوجه شرعيته وتجلياتها المتعددة يمكن أن يؤدي أيضا في حال تفاقمه إلى فقدان الدولة لشرعيتها ليصبح وجودها واستمرارها هي الأخرى موضع شك واختلاف. وعندما تعاني الدولة

أو نظامها السياسي أو كليهما معاً من مشكلة فقدان الشرعية، فسيكون من المتعذر على أي منهما امتلاك قدرة حقيقية ودائمة على القيام بمسؤولياتها الوظيفية أو على مواجهة التحديات والضغوط التي تتعرض لها. فإذا كانت شرعية السلطة والدولة وهي أول مقومات قدرتهما وأهم شروطها ومركزاتها مستمدة من أخذها بالنظام الديمقراطي الذي يعني مشاركة المادة البشرية الحية للدولة (السكان، المواطنين، المجتمع المدني، الشعب، الأمة) في تأسيس دولتهم ورضاهم عن وجودها واستمرارها، وقبولهم بالانتماء إليها والتعاطي مع نظامها السياسي وفقاً لقاعدة الحقوق والواجبات المتساوية والمتقابلة. فستكون الديمقراطية بذلك هي المرجع الحقيقي والوحيد لقدرة الدولة ونظامها السياسي على تبني سياسات تجسد إرادة المجتمع المدني وقيمه وتضمن مصالحه وتحقق أهدافه لأنها هي التي تجعل هذا المجتمع يقبل طوعيا بتحمل مسؤولياته عن تنفيذ تلك السياسات ونتائجها بكل ما يترتب على ذلك من الأعباء المادية والمعنوية ومهما بلغ حجمها أو قيمتها بما يعني قدرة الدولة ونظامها السياسي على الاعتماد على دعم المجتمع المدني لموقفهما ومساندته وتأييده لسياساتهما وقراراتهما الحرة.

● ***وسؤلنا الاخير يدور حول الدواعي المستجدة للديمقراطية في عصر العولمة؟***

– لقد باتت العولمة واقعا لا يمكن لأحد تعطيله ولا التملص من حبائله. ومن خصائص هذا الواقع أن من لا يصنعون مقدماته ولا تصلهم منه إلا نتائجه السلبية ليس أمامهم من خيار إلا محاولة دفع ما يمكن من أضراره واستجلاب ما يمكن من منافعه وذلك أضعف الإيمان. وعن سياسات العولمة المعاصرة واشتراطاتها وإرغاماتها باتت تنشأ دواع مستجدة تؤكد ضرورة الديمقراطية لأمثال هؤلاء وحاجتهم إليها كأحد شروط ومتطلبات تعاطيهم مع العولمة إيجابيا، بقدر ما تؤكد تلك الدواعي ضرورة الأخذ بصيغ وتطبيقات ديمقراطية أكثر مصداقية وفاعلية. وتتمثل هذه الدواعي المستجدة للديمقراطية في عصر العولمة في:

1– إن الديمقراطية تمثل الركن السياسي بين أركان النظام الرأسمالي الليبرالي الذي اكتسب طابعا متعولما في هذا العصر، ولا يمكن الأخذ بالأركان الأخرى في هذا النظام واستثناء الركن السياسي/الديمقراطية منه، فهذه المنظومة كما يقول أحد الباحثين "ليست برسم الاجتزاء والانتقاء، فهي كل لا يتجزأ".

2– إن التحولات الديمقراطية العالمية المتلاحقة والمتراكمة في الحقبة الفاصلة بين نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين وضعت الديمقراطية في المكانة الأولى بين المطالب الاجتماعية وجعلت المطلب الديمقراطي يعيش عصراً جديداً من الصعود والانتعاش في ظل ظروف أصبحت توصف بأنها "الكونية الديمقراطية". وينطبق هذا على كل الشعوب وفي مقدمتها الشعوب المتخلفة التي أصبحت الديمقراطية بالنسبة لها على حد قول أحد الكتاب مطلبا متقدما حتى على مطلب الخبز طالما أنها تعتقد أن حرمانها من الخبز "قائم هو نفسه على حرمانه من الحرية في كل معانيها"، فالديمقراطية بالنسبة لهذه المجتمعات الآن هي أنسب الأطر الفكرية والمؤسسية

والإجرائية لتلبية متطلبات معالجة مشكلات التخلف فيها لأنها توفر لها "أرضية صحية لمناقشة هذه المشاكل وبلورة الحلول العقلانية، وتكوين الإجماع الوطني الذي يحتاجه تطبيق هذه الحلول ومواجهة المشكلات". وإذ تقدم القول بأن النمو الاقتصادي هو أول وأهم مقومات اقتدار الدولة على مواجهة العولمة والتصدي لها وتغيير مساراتها، والاستقرار السياسي أول وأهم مقومات النمو الاقتصادي والشرعية السياسية أول وأهم مقومات الاستقرار السياسي والديمقراطية أول وأهم مقومات الشرعية السياسية، فستكون النتيجة هي أن الاقتدار مشروط بالتنمية ولا تنمية دون ديمقراطية، لتكون الديمقراطية بذلك أول وأهم مقومات اقتدار الدولة طالما أن هذه الأخيرة تستمد منها شروط استقرارها استمرارها ومقومات نموها وقدرتها على تحديد أهدافها ووضع خططها وصنع سياستها واتخاذ قراراتها وتنفيذها.

3- إن المجتمع الديمقراطي، وعلى حد قول أحد الباحثين، لا يمكن أن يضمن لنفسه الاستقرار والاستمرار، إلا حين يشعر الناخبون فيه ويلمسون أن حقوق ومصالح الجميع تراعى وتؤخذ بعين الاعتبار وليس حقوق ومصالح المتفوقين اقتصاديا فقط. وحيث إن التوازن بين حقوق وحريات الكثرة من المواطنين غير المتفوقين اقتصاديا وحقوق وحريات القلة من المواطنين المالكين لرأس المال هي "الفكرة التي قام عليها اقتصاد السوق المتكفل بالرعاية الاجتماعية"، وأن التخلي عن هذه الفكرة والأخذ بنقيضها هو ما قامت عليه وبه سياسات العولمة لأن التدهور في "مقدرة الدول على توجيه السوق يؤدي إلى أن تكون المسيرة في مصلحة الأثرياء في المقام الأول"، فسيكون قيام نظام ديمقراطي فعلي وفاعل شرطا لتزويد الدول بشروط الشرعية والاستقرار التي تزودها بالقدرة على توجيه السوق بما يضمن عودته إلى حالة التوازن بين حقوق وحريات الكثرة من المواطنين غير المتفوقين اقتصاديا وحقوق وحريات القلة من المواطنين المالكين لرأس المال. ومن منظور الاقتصاد السياسي يمكن القول أيضا أن الرأسمالية الليبرالية الحديثة بعد أن تطعمت بالروح الديمقراطية في بداية القرن العشرين، عادت في بداية القرن الحادي والعشرين لتتجه وجهة مضادة تبدو فيها الروح الديمقراطية متعارضة مع خصائص الرأسمالية الليبرالية المعاصرة وأهدافها بل ومتناقضة معها كليا. إذ ليس في سياقات التجربة الواقعية ونتائجها ما يثبت صحة الزعم القائل بتلازم نموذجي اقتصاد السوق والديمقراطية وانسجامهما وتلاؤمهما، والأقرب إلى الحقيقة "هو أن هناك تعارضا مستمرا بين كلا النموذجين اللذين يحتلان أهمية مركزية لدى الدول الصناعية الغربية". وإذ يشتد السعي في ظروف العولمة المعاصرة لتحرير الاقتصاد من كل قيد وعلى حساب الجميع، "يكتسب التناقض بين السوق والديمقراطية..قوة تدميرية"، ويتسبب هذا التناقض في هدم الأسس الضامنة لوجود الرأسمالية واستمرارها والمتمثلة في "الدولة المتماسكة والاستقرار الديمقراطي"، وعندما يحدث هذا تغدو "السياسة برمتها مسرحا يضم حشدا من رجال مسلوبي الإرادة، وتفقد الدولة الديمقراطية شرعيتها وتصبح العولمة مصيدة للديمقراطية".

ويستنتج عالم الاجتماع (أولريش بيكر) من ذلك "إن أولئك البشر الذين يتحقق لهم الحصول على سكن وعلى فرص عمل مضمونة..هم فقط أولئك المواطنون الذين يتبنون الديمقراطية ويضفون عليها الحيوية المنشودة. إن كلمة الحق الصادقة تصرخ بأعلى صوتها:

من دون أمن غوائل الدهر المادية لا حرية سياسية، أي لا تتحقق الديمقراطية، أي سيبقى الجميع مهددين بأن تحكمهم نظم وأيديولوجيات تسلطية جديدة". لقد جاءت ولادة الديمقراطية في الغرب كنتيجة لظروف محددة يلخصها أحد الباحثين في أن "الضغط التاريخي في اتجاه التنوع الاجتماعي ونحو نظم أسرع قد تطلب تغذية مرتدة اجتماعية حساسة.. والديمقراطية السياسية بإشراكها أعدادا أكبر فأكبر في صنع القرارات الاجتماعية، تيسر هذه التغذية المرتدة".

وبتيسيرها لهذه التغذية المرتدة التي تضمن للمواطنين حياتهم وأمنهم وهو أول وأهم حقوقهم وحرياتهم تبدو الديمقراطية القوة الوحيدة القادرة في عصر العولمة على مواجهة دكتاتورية السوق واستبداده، ولعل هذا أكثر ما تحتاجه الآن وعلى حد سواء كل المجتمعات وأنظمة الحكم الطامحة لامتلاك القدرة على خوض هذه المواجهة.

4- إن الطابع الديمقراطي بات هو الطابع الغالب على أنشطة العولمة ومجرياتها والتفاعلات الناتجة عنها والمصاحبة لها والمتمثلة في:

- ديمقراطية التكنولوجيا/الاتصالات.
- ديمقراطية التمويل/الاقتصاد.
- ديمقراطية المعلومات/المعرفة.

حيث تفرض الخصائص الديمقراطية لهذه الوقائع والتفاعلات على كل الأنظمة ومهما كانت طبيعتها امتلاك خصائص إن لم تكن متماثلة معها فليس أقل من أن تكون مقاربة لها إذا ما أرادت التعاطي معها بفاعلية ونجاح.

فإذا كانت "الحكومات، بما فيها تلك التي تضمر أطيب النوايا، تبدو عاجزة عن توجيه التغيير الوجهة الصحيحة"، وإذا كانت "قائمة فشل الدولة في التعامل مع فوضوية السوق العالمية تكاد تكون بلا نهاية"، فإن الحل لن يكون في إحلال الدولة الاستبدادية محل الدولة الديمقراطية، مثلما لن يكون هذا الحل أيضا في التخلص من الدولة ووضع نهاية لها، "فالدولة وحكومتها تظلان المؤسسة الوحيدة التي بمستطاع المواطنين والناخبين مطالبتها بالسهر على العدالة والنهوض بالمسؤولية وتحقيق التحولات المطلوبة"، لذلك سيكون من الضروري أولا بقاء الدولة، وأن تكون ثانيا دولة ذات طبيعة ديمقراطية.

أدب
و
فن

محمود عبد الوهاب ... وداعاً !

غيب الموت مساء الأربعاء 2011/12/7 في أحدى مستشفيات البصرة الأديب المعروف القاص الخمسيني محمود عبد الوهاب بعد صراع مع المرض كان خلاله محفوفاً بأصدقائه ومحبيه ورفاقه تعبيرا عن الوفاء والاعتزاز بسيرة المبدع ومنجزه وما حفره في ذاكرة أجيال من الأدباء والمثقفين من قيم ومواقف ورؤى وانخراط جاد ومسؤول في صياغة فهم للثقافة ينأى بها عن التزييف والتصنع والمداهنة وبوصفها رسالة ومعنىً ساميا وفعلاً خلاقاً.

محمود عبد الوهاب هو أيقونة الأدب النبيل والثقافة الرفيعة الذي بقيً عبر عقود من تاريخ البلاد وتاريخ الثقافة العراقية بكل تموجاتها وأشجانها شاهداً على تبدلاتها؛ مفعماً بالأمل والتفاؤل، مؤمناً بانتصار أرادة قوى الخير، منحازا لقيم التنوير والحداثة والعقلانية والتقدم لا يخالطه شك بأن المستقبل للمكافحين من اجل العدالة والحرية والمساواة.

لم يعش وحيدا وما مات وحيدا كما قالت له العرافة يوماً بل عاش حياةً مترعة بالمحبة والألفة والتواصل الحميم. محمود عبد الوهاب المولود في بغداد 1929 وأتم دراسته الابتدائية والثانوية والجامعية فيها، كتب المقالة الأدبية والقصة في النصف الأول من خمسينيات القرن الماضي وواصل مشواره الأدبي في اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين بعد ثورة 14 تموز 1958 وفي نقابة المعلمين وميادين العمل الديمقراطي. تعرض للاعتقال بعد انقلاب شباط 1963 ثم الفصل السياسي من الوظيفة في الستينيات وكان احد المرشحين في القائمة المهنية لانتخابات نقابة المعلمين أواخر الستينيات. صدر له رائحة الشتاء؛مجموعة قصص، رغوة السحاب؛رواية، ثريا النص؛ دراسة نقدية، سيرة بحجم الكف؛ تحت الطبع. شعرية العمر؛ يصدر قريبا من دار المدى، إلى جانب دراسات ومقالات في الصحف والمجلات الأدبية.

للفقيد الكبير محمود عبد الوهاب الذكر الطيب.. ولعائلته وأصدقائه ومحبيه وأدباء البصرة خالص مشاعر التضامن في هذا المصاب الكبير.

هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)

الصفعة

سلام حـــــــربه

الأنهار أرحام لا تعاقر سن اليأس والماء نبض يسري في عروق الأرض فتنبت المدن وتخضر وتتبرعم وتأتي ثمارها ابناء ملونين كبذور الفاكهة منهم المرّ المغشوش الذي يجرح الأنفاس ويسلخ اللسان وآخرون عسل نقي يرطب الروح والريق اليابس، مدن تتعتق بدنان التأريخ وتتوضأ كل صباح بالضوء والندى وبالخرير الذي يمسح النعاس من بين جفونها ، هكذا هي المدن العراقية التي ولدت من بين أفخاذ الأنهار وترعرعت من حليب مائها العذب وحتى سحن قاطنيها يترقرق فيها لون غرينها الحنّي فتبدو خصبة بكرمها وتتكحل عيونهم بسواد قهوة مضايفها ، لكن الذل المزمن رافقها زمن الولادة ليكسّر بعضا من الجسارة الوامضة في عيون رجالها ونسائها وأحفادها ويفطّر تقاطيع حزنها خطوطا غائرة على وجوههم كالأرض العطشى حين تصفعها شمس الضيم وتلهبها سياط القلق والخوف وهي تتقلب في جمرهما منذ مئات السنين..مدينة الحلة يشطرها النهر بقسمة ضيزى صوبين مفارقين كبير وصغير يمسكان بتلابيب بعض بجسرين هزيلين جديد وقديم، يبدو أن فتوة النهر تفضل غزل ضفة اليمين رغم بعدها عن نبض القلب ، عائلتي حطت رحالها في الصوب الصغير منذ قرون ، فقد ولد في هذا الجانب جدي الكبير وأبي وأنا ورسخنا دعائم محلة كبيرة وقديمة تدعى الوردية يقول المؤرخون بأنها النواة التي تشكل منها الجانب الصغير ولو أن الكثير من أبناء المحلة يسمونها ولحد الآن (محلة ناجي) تيمنا بالشرطي ناجي ذي القامة الفارعة والملامح الحادة والشوارب الطويلة والنظرات الصلفة التي كان يخر لها اقوي رجال المحلة صاغرا ومتوسلا الرحمة، كان بيتنا قرب المسجد وقد اعتاد أبي أن يؤدي فيه الصلوات الثلاث في مواقيتها وكان يصحبني معه وأنا صغير في العاشرة من العمر وحين ينهي صلاته يفرد يدين مقوستين ليلملم ما يتساقط عليه من الرحمة يبدأ بالدعاء بصوت هامس والدموع تسح من عينيه مدرارة ، لم أكن اعرف سبب بكائه وغالبا ما كنت ابكي معه فمن غير المعقول أن يبكي الأب ، رب العائلة ، دون أن يترك انكساره أثرا في نفوس أبنائه..مرة دنوت فمي من إذنه وسألته بكلام متحشرج شعرت به كبيرا يخرج من فم صغير..

لماذا تبكي كل يوم يا أبي..؟

تأمل براءتي بنظرة طويلة ، دموع عينيه تجرفان سيلا من اللوعات تحرقان وجنتيه

الضامرتين..أجاب بحسرة..

ياولدي، أنا خائف عليكم..

تلفتت طفولتي مقتفية براءتها في المسجد فليس هناك من خطر يحف بنا وكل المصلين منشغلين بالقيام والقعود أو منقطعين عن أنفسهم وهم يتمتمون بكلام غير مسموع كأبي وكثير منهم يحفر الدمع الجاري اخاديد في صفحتي وجهه..قربت رأسي أكثر منه ،سألته بارتياب..

ياأبي، مم تخاف علينا..؟

سحب نفسا عميقا وتعوذ من الشيطان الذي يتراءى له في كل حين..زفر بحسرة أجابني بنبرة هامسة..

من الشرطي ناجي ومن أبنائه في المستقبل..

تفجر الاسم في داخلي وتشظى رعبا يسمم الدم في عروقي ومنذ تلك اللحظة عرفت لمَ كان رجال المحلة يديرون وجوههم الى الحيطان حين يمر ناجي في الزقاق ولم واظبت نساء المحلة الذهاب يوميا الى بيته وبشكل دوري للخدمة فيه وعملت جردا وأنا ما زلت لم أتقن الفضول بعد عن عدد الرجال الذين اختفوا من الحي دون أن يجرؤ احد للسؤال عنهم لأنهم لا يحظون برضا ناجي ولم يطأطئو رؤوسهم عند قدميه مازالت أبواب بيوتهم مشرعة حتى يومنا هذا بانتظار خطاهم الضائعة.. توفي أبي وأنا في الخامسة عشرة من العمر وقد سبب فقدانه فراغا كبيرا في داخلي ، كنت اشعر بالخوف حتى من نفسي وأتوجس الاقتراب من الآخرين خوفا من يشي احدهم بي الى ناجي أو احد أبنائه الثلاثة ،الذين يسبقونني بسنين قليلة والذين شبوا وهم يمرغون جباه اقرانهم من أبناء المحلة في أوحال الرذيلة والخنوع ، كنت ابغض نظرات الناس وقطعت عهدا على نفسي أن لا تقع نظراتي على ناجي ولا على أولاده لئلا يتصدع كياني كزجاج مهشم ، لم يروض خوفي ويطرد الوحشة التي تحف بي إلا صديقي يوسف، المنخور بدنه بمرض السكر منذ صغره والذي لا يزيد وزنه عن الأربعين كيلوغراما، فقد تحسس غيابي بعد وفاة والدي فهو لم يألف بابنا موصدة على الدوام ،صرخات لهوي منطفئة في الزقاق، وعيناي بريئتان مذعورتان لا تستقران على شيء حين يطل رأسي من فتحة الباب بعد عودتي من المدرسة ،وشطب يوسف اسمي من سجل زبائنه الدائمين كما جفت تعليقاتي التي كنت ماهرا بإطلاقها ونحن نتناول من عربته عصر كل يوم الشلغم الشهي المنقوع بالدبس والدسمُ بالروائح الطيبة فكانت تختلط دموع ضحكاتنا مع اللعاب اللزج السائل من أفواهنا ، لا يحزن لما نقول بل بالعكس تحط على وجهه الضامر ذبابة ابتسامة لكنها سرعان ما تطير لأنها لا تجد ما يغريها بالمكوث عليه ،كنا نسميه دجاجة المصلحة فقد كان بعمري لكنه ترك المدرسة كي يعيل والدته المسنة بعد موت والده المفاجئ ،ربما كان يشعر بان دورته في الحياة قصيرة وعليه أن ينجز ما مطلوب منه عملا قبل أن يفارق هذه الدنيا ، كانت بنيته هزيلة الى حد كنا نخاف يوما، نحن أقرانه، ان تُطحن عظامه حين كنا نستدرجه الى النزال عنوة لننفخ في مصارعته رجولة أطفأها ناجي ومن بعده أولاده ، كان يوسف لا يلتقي بأحد من أبناء المحلة وحالما ينتهي من بيع قدر الشلغم تستدير عربته راجعة الى البيت لا نلمحه إلا في اليوم التالي وهو يقف وسط دائرة من الأطفال والشباب ، المنقطعين عما حولهم بنفخ ومضغ ومطق الشلغم الحار في مدخل السوق الصغير ،وقد خيطت ملامح

وجهه تعابير ووقار رجولة مبكرة بعد أن احرق طفولته اليتم وقص جناحيه مرض أنضب طاقته وأقعده عن اللحاق بملاعب صباه ..كان له الفضل بإخراجي من بيتي ثانية، بعد أن استل الموت أبي من بين عيني، ورتْقِ ما تمزق من وصل مع أصدقائي..ما زالت كلماته وهو يزورني في البيت ترن في داخلي..

لا تكن ضعيفا، الحياة تحب الأقوياء..

لا اصدق ما تسمعه اذناي ، من غير المعقول أن يتكلم يوسف عن الضعف والقوة وهو يتدحرج على الأرض ولا يقوى على النهوض من دفعة يوجهها له عبث طفل صغير..

توفي ناجي وشب أبناؤه الثلاثة النزقون تمتلأ عيونهم بالوقاحة والتهتك، كبيرهم عمل مستشارا عند المحافظ والثاني أصبح مسؤولا في الحزب الذي يحكم المدينة أما أصغرهم عامر فقد تخرج ضابطا يعيش في بيتهم المهيب في محلتنا بعد أن بنى أخواه بيتين كبيرين في حي الكرامة الحديث في الصوب الكبير كانا مثار لغط وحسد عند أهالي الحلة ،كان عامر يمشي كالطاووس أمامنا وكنا نتسابق كي نهش التراب عن طريقه ونلمع لصف النجوم على كتفيه وعوّدنا ، وهو يطرد بعصاه الطويلة ظلال رجولتنا أن نلثم الأرض التي تدوسها قدماه مقابل أن يوفر لأحدنا فرصة عمل وضيع أو يمنح محتاجا منا مبلغا بخسا من المال يخرس به جوع عياله أو يمنح أي منا رخصة عيش ذليلة يطرد بها عيون المتربصين بنا والذين يجسون أنفاسنا ويقيسون أطوال خطانا ،فإشارة واحدة من أبناء ناجي الثلاثة كافية بان تجعل من يمشي على الأرض يكون تحتها دون أن يرف لهم جفن ندم أو يختفي بلمح بصر لا تقدر كل بوصلات الحياة من الاهتداء إليه، لقد أدمن الجميع الاعتراف بان القسوة تنتقل كالصفات الأخرى بالوراثة رغم أن زوجة ناجي كانت تحوم حولها شبهات كثيرة ومُسكت متلبسة بالزنا لكن لا احد يدّخر شجاعة كي يهمس بهذا الموضوع حتى مع نفسه ،وواصلت نساء محلات صوبي الحلة الكبير والصغير التسابق في خدمة بيوت أبناء ناجي الثلاثة الى الحد أن يغمض الرجل عينيه حين يصله خبر مبيت زوجته في احد بيوت أبناء ناجي سهرا على أطفاله لانشغال الزوجة في سفرة أو في زيارة اعتيادية أو مرضية الى بيت أهلها..لقد أدمنا طقسا احتفاليا نقارع كؤوسه بتلذذ باهر ننتظره على أحر من الجمر حين يلتئم رجال المحلة في كل يوم جمعة أمام بيت عامر وقد شمروا عن سواعدهم وامسكوا بقطع القماش الملونة يقتفون آثار التراب الذي تمادى وحط على سيارة عامر الحديثة،كنا نعمّد بالماء السيارة المباركة المرصوفة أمام البيت وشفاهنا متشققة بجهير الدعوات أن تحفظ مالكها عامر يعكس زجاجها الصقيل قامته المديدة ورأسه الذي يناطح السماء كبرياء مرتديا ملابسه المنقطة بالنجوم فهو لم يفكر يوما ، مجرد تفكير ، أن نلمحه بملابس البيت ويعتقد أن هيبته وتبجيله وسحره الذي يأخذ بالباب الرجال والنساء معا لا تديمها إلا قيافة الشرطة بصبغة الزيتون التي تلونها وبجهامة مسدس طويل يتدلى من خصره ، كان قلق ضحكاتنا وجفاف أفواهنا وتقوس ضعفنا رسائل تتطاير باهتة ونحن نمسح بملابسنا بياض سيارته اللامع نقايض بها ابتسامة رضا قد ترتسم على شفتيه الورديتين نكسب بها أسبوعا من حياة

مجانية نكررها في الجمعة القادمة نراوغ زمنا داعرا حتى ينقضي أرذل العمر.في الجمعة الماضية وعند منتصف النهار، كان رجال محلة الوردية يفركون جلد السيارة ليستخرجوا لها جلدا آخر والابتسامة العريضة تباعد خدي عامر اللامعين وصوت المؤذن يلهج بالحمد من سيرة ناجي العطرة والتي طيبت حاضرنا وهو في مثواه المقدس وصنع أبناؤه المبجلون مستقبلا للمدينة له طعم خاص في أفواهنا ، ضجّ المسجد الصغير بالصلوات أمطرت على رؤوس الرجال المتجمهرين حول السيارة في الزقاق زخات رضا ، كمطر صيفي ، بللت بخجل تجاعيد الوجوه المتغضنة ..اجتازنا يوسف وهو يدفع متعبا عربة الشلغم دون أن يلتفت إلينا ،لم نسمعه يوما يبادلنا التحية ونحن نجدف بمستنقع هوان الجمعة كما كان يسميه ، من لمح عامر تلك اللحظة لن يكون بحاجة الى فراسة كبيرة كي يخمن أن يوسف بدبيبه الواهن الذي لا يدهس تراب الزقاق قد داس على كبريائه وذرّ على العهر في عيني عامر رماد الغنغرينا الذي بدأ يأكل أصابع قدميه.. صاح عامر بصوت جهوري أرعبنا جميعا..

يوسف..

توقف يوسف ونظر بلا مبالاة الى عامر ،سأل ساخطا..

ـــ ماذا تريد..؟

تعال..أريد أن أكلمك..

أقترب يوسف بخطاه الناحلة وقد أعياه حمل أصابع قدميه المتورمة بزرقة الغنغرينيا ،وقف قبالة عامر وعيناه مسمرتان عليه.

أتعلم بأنك الوحيد في المحلة الذي لا يتردد اسمي على لسانه ولا تساهم بتنظيف سيارتي وخدمة بيتي..؟

أجاب يوسف دون أن تخدش نبرة صوته..

ولكني لست بخادم..ولم أتربّ على خدمة العبيد ..

زعق عامر بكل ما يحتبس في رئتيه من صوت ويده تقترب من مقبض المسدس..

اخرس أيها الكلب..

تلمست عينا يوسف ببريق لحظهما كل ملامح الخنوع التي كانت تنفر بارزة في تقاطيع وجوهنا وتتموج في مياه حدقاتنا..استدار بسرعة وهو ينط كطائر فزع ليصفع عامر بقوة ،ارتجت للصفعة شبابيك البيوت في الزقاق واندلقت لهولها ألسننا من أفواهنا ،ارتطم عامر بجدار بيته وتكوم على الأرض ، لم نشعر إلا ونحن نمسك خدودنا بأيدينا فقد شعرنا بالصفعة انطبعت عميقا في وجوهنا ،لحد هذه الساعة لا نعلم هل صفع عامر أم صفعنا جميعا..؟ نهض عامر مجنونا وقد تلطخ زيتون بدلته بأوحال الزقاق وطبعة أصابع كف يوسف على خده تطاير لها مجنونا شعر رأسه ،وبلمح موت خاطف دوت في الزقاق صوت اطلاقة مسدس تهشم لها رأس يوسف وسقط مضرجا بدمائه ،لم تفق رؤوسنا من الصفعة ومن حلم حقيقة نراه إلا بعد زمن عصي على الإمساك..يوسف سابح ببركة دمه وابتسامة عريضة تشع لها عظمتا وجنتيه ، ما زال كل منا يتلمس التهاب خده ويصغي ذاهلا لذوبان جبال ثلوج الخوف في داخله وعيوننا تتنقل بين برودة ملاك يقف عند جثة يوسف وشيطان فاجر يتراقص في عيني عامر..

كلكم شهود بان هذا المجرم هو من بادر

الى قتلي..

لم يكمل عامر جملته حتى انقضضنا عليه جميعا ،لم تستقم ظهورنا إلا بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة بين أيدينا، انتبهنا الى حمرة الصفعة التي تحرق خدودنا..قدح أكبرنا عمرا عود كبريت وأشعل النار في السيارة..تطايرت السنة النار فوق محلتنا ، خرج الأطفال والنساء وكبار السن وهم يقسطون غضبهم بقبضات مضمومة ، دلف أبناء المحلة الى بيت ناجي..اخرجوا زوجة عامر وأطفاله من البيت وقطّعوا صور ناجي وأبنائه مزقا ابتلعها فم الريح واستباحوا خرافة الرهبة المترسبة في زوايا البيت القذرة وبين أنقاض النفوس الخاوية وطمروا في تلافيف النسيان رائحة ذكرياتهم العفنة،ارتج شارع المحلة المحاذي للنهر بالأصوات الحادة كالنصال تضللها أسراب النوارس البيض، تقدم نحوهم أبناء الأحياء والمحلات الأخرى في الصوبين الصغير والكبير، كانت أصابع الصفعة موشومة على خدود الرجال والنساء والأطفال في مدينة الحلة ،احترقت بناية المحافظة ومديرية الشرطة ومقر الحزب وتقطّع المسؤولون بين أنياب كلاب الموت، امتد صدى الصفعة المدوم في الآفاق طيرا محجلا برسائل خلاص حط في المحافظات والمدن وحتى القرى المنسية، كان كف يوسف يحتبس دما احمر صارخا في الخدود وانطبع صفة وراثية في جينات الخلايا قبضت عليه أجنة البطون ونفخ حياة في رماد الأرواح الباردة، توالت الأنباء عن هروب كل أبناء ناجي وأحفاده وتساقط تاريخهم الأسود من الكتب الصفر ومسح الغاضبون آثار خطاهم من الحاضر واقتفوا ندب نواياهم الدامسة في طلقات المخاض بالفجر الجديد، احتقنت الساحات والشوارع بالهتافات والاحتفالات والاعتصامات منذ أولى تلويحة للغبش وحتى تلوث وجه السماء برغوة الليل الأعمى، ونزعت المدن والمحلات والإحياء والأشخاص أسماءها ولبست اسم يوسف وقد فاض مجدا عن مقاس أجسادها وانتصبت عربة الشلغم تماثيل في كل التقاطعات والضمائر والقلوب وصوت الصفعة ما زال يرن في الفضاء وعبَر الحدود والتهبت بسببه آذان العالم كله..

قطّة المرحومة قدريّة

فاضل ناصر كركوكلي

فاضل ناصر كركوكلي ... فنان تشكيلي ومسرحي وشاعر.ولد في قلعة كركوك عام 1953 .أقام معارض مشتركة كثيرة مع فناني كركوك في السبعينات .أسس المسرح التجريبي في مدينة كركوك مع أصدقائه الفنانين هيثم عبد الرزاق .. عبد الرزاق محمد .. جعفر البياتي .. ياوز فائق .. عواد علي المعماري .. داوود زيا .. ومحمد قوشجو في منتصف سبعينات القرن الماضي .كتب عدة مسرحيات باللغة العربية منها (القرف) و (ثلاث حكايات تراثية) و (الحلاج يتأرجح) و (العودة) . له عدة مسرحيات باللغة التركمانية منها (الذين فقدوا ألوانهم) و (حكاية جدار) و (أورخان محمود زادة) و (الحانة) .أقام معرضين تشكيليين في السويد حيث يقيم وهو بصدد التحضير للمعرض الثالث الذي سيقام في مدينة كوتنبيرغ .انتهى مؤخرا من كتابة نصوص قصصية تدور حول قلعة كركوك بعنوان (البعوضة) . يشغل حاليا منصب رئيس الهيئة الإدارية للنادي التركماني في كوتنبيرغ السويدية ، و يدير إذاعة صوت تركمان العراق من كوتنبيرغ .

(1)

وأخيراً... ماتت العجوزةُ الطاعنة بالسنِّ (قدريّة) في غرفتها الدامسة وحيدةً تاركة قطّتها المرقطة جاثمةً بجنبها طوال أيامٍ عديدة حتى عرف الجيرانُ بأمرها فإقتحموا الغرفة وأخرجوا جثتَها لحوشِ الدار ملفوفةً بلحافِ نومها العتيق تبرزُ منه يدُها المعروقة الناحلة ذات الأظافر المتشققة ، فبادرت النسوةُ فوراً الى تسخينِ الماء و غسلِ الجثة و تكفينها قبل حضورِ بنات المتوفية اللاتي بدأت مع وصولهن مراسيمُ اللّطم على الخدود والعويلُ الذي يشق عنانَ السماء امام نظرات الجيران الساخطة اليهنَّ لإهمالهنّ الطويل والمتعمّد لأُمهنّ العجوز!!...

وبعد أيام، وجدت القطّة نفسها وحيدة تجوسُ في ضوء الشمس المفروش بالباحة و تلبدُ تحت أفياءِ شجرة رمّان ضخمة في الفناء متحفّزة تترقب لغطَ العصافير بعد أن لدغها الجوع و أنهكها التعبُ من محاولاتها المتكررة للوصول الى إلتهامِ تلك العصافير، ولكنها إكتشفت، بعد لأي ، بأنها بدونِ مخالب وانّ صاحبتها العجوزة كانت تقلّمُ مخالبها باستمرار و بكلِّ عنايةٍ و لطف حتى تجرأت الفئرانُ الصغيرة وبدأت تخرجُ من جحورها لتتقافز أمام أنفها بلا وجل ، كما أدركت بدهشةٍ محيّرة بأن بناتَ العجوزة ، بعد وفاة أمهن، لم يحفلنَ إطلاقاً بوجودها

في الدار، لا بل كنّ يركلنها بالأقدام حين تقوسُ ظهرَها و تدور حول أقدامهنّ تذللاً وإستعطافاً لتحصلَ منهنّ على ما يسدُ رمقَها حتى وصلَ الأمرُ بالإبنة الكبرى فبدأت بملاحقتها بفردة نعالها في طول الباحة و عرضها فاضطرت على اثرها بتسلق سلالم السطح لتقعي على ذيلها في آخر السلم مرتعدة تشهدُ على إحتدام الصراع بين بنات المرحومة الى حدٍّ التشابك بالأيدي و جزِّ الشعر و تمزيق الثياب لأجل الإستيلاء على بقايا أغراضها الى أن وصلَ هذا الصراعُ في اليوم الاخير الى ذروته حين بادرنَ الى إقتلاع الأحجار المرصوفة في الحوش والى هدم التنّور وشقِّ الوسائد وفتح أكياس المؤن في السرداب و كسر خوابي المخلّل بحثاً عن النقود و الليرات الذهبية التي خبأتها العجوزةُ عن أنظارهنّ كما كُنَّ يعتقدنَ ، وبعد أن يأسنَ تماماً من هذا الأمر تركنَ الدار ، في آخر المطاف ، قاعاً صفصفا بين الشتائم و اللعنات على روح المرحومة أمام أنظار قطّتها الذاهلة ، فأقفلنَ الباب الخشبي الخارجي عليها و تركنها في وحشتها مرةً أخرى تهيمُ على وجهها بين الغرف الخالية لتموءَ آناء الليل مستنجدةً تتضوّرُ جوعاً ولا تجرؤ للدخول الى غرفة صاحبتها الميتة خوفاً من أحاسيسها المؤلمة التي بدأت تمورُ بحرقة في قلبها الصغير المرهف ، فأخذت تدنو من الباب الخشبي المغلق و تقفُ على قدميها تخرمشُ الباب بمخالبها النامية للتو حتى أدمت قائمتيها في محاولاتها العقيمة للحصول على الطعام ....وبعد أيام قليلة شعرت بالوهن في كامل أطرافها و بالصداع و الدوار و بخفوت موائها التدريجي فأسبلت أجفانَها وهوت على الأرض تسحبُ جسدها نحو أفياء شجرة الرمّان إنتظاراً للموت بعد أن إستسلمت لليأس التام ، فتمددت تحت الشجرة محتضرة الى ظهيرة اليوم التالي ترمقُ بين الحين و الآخر الى الباب الخشبي متعلقة بآخر خيطٍ واهٍ للأمل في الخلاص...!!

وبغتةً ..... إمتدت يدٌ بضّة ذات أساور ذهبية تحمل صحناً من الاكل أدخلتهُ عنوةً من تحت الباب فإندلقَ الآكل من الصحن و تكوّمَ خلفَ الباب!!..

في البداية لم تصدّق القطّةُ ما رأت لأنها كانت تعيش ، و منذ أيام ، في أوهامٍ و غيبوبة تتصوّر في أحلام يقظتها كلَّ صنوف الأطعمة ، ولكن رائحة الأكل المتكوّم بدأت تنفذُ الى أعماق رئتيها فإستفاقت من أوهامها بكسل وإرتخاء و بدأت تهرول مترنحة نحو الطعام لتتمرغَ فوقه و تغمرَ رأسها فيه بإشتهاءٍ لا يوصف ، ثم نهضت متثاقلة من التخمة ونَهلت من الماء المتجمع تحت الحَبِّ الفخاري المنصوب في مدخل غرفة المتوفية و قبعت هناك ترقبُ العصافير التي هبطت على الحوش لتتلبّط أمامَ بصرها كالأسماك ...!!

لأول مرة ، بعد وفاة صاحبتها ، شعرت القطّةُ بأن الدنيا لا تخلو من الطيبة ، فنامت تلك الليلة قريرةَ العين غارقة في غبطةٍ علوية حتى ترآءت لها بأن صاحبتها العجوزة لا زالت حيّةً ترزق تنقل قدميها بتؤدّة فوق أحجار الحوش و تُوقد الفانوس الشحيح تحت ذؤابات القمر ثم تمدّ يدها المعروقة و ترفعها عن الارض لتضمّها فوق دفء قلبها النابض ، فتقفلُ بابَ غرفتها بالمزلاج وتنطرح فوق الفراش وهي تحتضنها برفق و تقبلها القبلة الأخيرة قبل أن يغالبها النعاسُ ليبدأ شخيرُها يختلط مع شخير قطّتها الرتيب ...

ولأول مرة في حياتها الجديدة شعرت بأن الطعامَ المتكوم يومياً خلفَ الباب يكفي لإطعامِ عشرة قطط سمان و إن الفئرانَ و الزواحف و حتى العصافير و الغربان بدأت تشاركها في وجبتها اليومية ، فأخذت تتعافى و تتراكضُ و تتقافز جذلة و تتشقلب فوق الأحجار وتحدُّ مخالبها النامية فوق لحاءِ الشجرة و على الأبواب الخشبية بعد كلِّ وَجبةِ دسمة..!

مرت الأيامُ تترى على هذا المنوال الى أواخرِ يوم غائم من أيام الخريف حين ولجت الإبنةُ الكبرى من الباب بصخب فغاصت قدميها في بقايا الطعام فإرتفعت عقيرتُها باللعناتِ على الجيران لقيامهم برمي الزبالة و الخراء المتعفن داخل دار أمها كما قالت والتي تنوي الإقامة فيها مع زوجها الى الأبد رغم أنفِ الحاقدين ، ولم ينقطع سيلُ شتائمها طوالَ نقل أثاث بيتها التي تولّى الحمالون أمرها لساعات عديدة ، ففرّت القطّةُ مذعورة نحو سلالم السطح و منها الى السطوح المجاورة لا تلوي على شيء بمجردِ سماعها صوتَ الإبنة الهادر...!!

ففي ذلك اليوم الغائم من أيامِ الخريف لم تعُد تلك القطّةُ المرعوبة تظهرُ ثانيةً في محلةِ (حمام مسلم) بقلعة كركوك .. !!

(2)

كثرت أقاويلُ الناس في حارتنا حول مصير القطّة الغامض ، فمنهم مَن قال بأن الإبنة الكبرى أقدمت على خنقها و دفنها تحت شجرة الرمّان ، ومنهم من أفادَ بأنها دخلت غرفةَ صاحبتها الميّتة وغابت عن الأنظار، أما صاحبة اليد البضّة ذات الأساور ، وهي عروسة حديثة الإقامة بالحارة ، فإنها كانت تؤمن إيماناً راسخاً بأنها لا زالت قابعة خلف الباب تموءُ و تستنجدُ ليلاً و إنها تتسللُ احياناً تحت غطائها و تلعقُ يدَها البضّة حتى الفجر ، كما أجهرَ مؤخراً بائع النفط الذي ينقل النفط الى البيوت بأنه وجدَها مختبئة في كوة حمام بيت العجوزة شبه محترقة و غارقة بالهباب و الرماد وإنها رجت منه بحرارة ، وهي ترتجف هلعاً ، بأن لا يكشفَ مخبئها لإبنة العجوزة..!!

المهم ، هذه الأقاويلُ اصبحت مدار حديث الناس تناقلتها النسوة من فوق السطوح والشرفات و النوافذ وفي جلسات أعتاب البيوت لتنتقل فيما بعد الى الرجال المفتولي الشوارب في المقاهي القريبة ليتلقفها منهم صبيانُ الحارة الذين تفننوا بكل جدارة في سردِها و تجسيدها بالأصوات و الحركات كلما صادفوا الإبنة الكبرى في الحارة غير مبالين لسلاطة لسانها ولعناتها عليهم والتي أصابها ما يشبه الهذيان والجنون وهي تركض خلفهم بعبائتها و ترجمهم بالحجارة ، وأخيراً بدأت تنتابها نوبات عويل أشبه بالمواء المخنوق تستنجدُ فيه مختار الحارة بالتدخّل فوراً ، فإستجاب المختار لطلبها وجمع وفداً من رجاله ليتقصى حقيقة الأمر متوجهين الى دار المرحومة يتقدمهم أحدُ العمال برفشة ويتبعهم جمعٌ من الحارات المجاورة بالإضافة الى أهل حارتنا الذين تجمعوا بفضول فوق السطوح المطلّة للدار ، فوسعوا الطريق للمختار ورجاله أمام الحشد المتجمع في الباب ليبدأوا عملهم فوراً في حفرِ الأرض تحت شجرة الرمّان وفي توسيعِ كوة الحمام لإستخراج الرماد المتفحّم وتفتيش كلّ شبر من أرجاء البيت ثم عيّنوا أحد الجرخچية العجائز ليبقى ساهراً مع بندقيته يسترق السمع من الباب لاستجلاءِ حقيقة المواء المزعوم ، فإنتشى الحارسُ من أول ليلة من إستكانات الچاي المهيّل التي تمدّها

اليه تلك اليدُ البضّة لكي لا ينام ، ولكنه بعد ليلتين طُرد من عمله بسبب شخيره الموسق الذي كان يصلُ لسابع حارة!!..

وبعد أسبوع ، أُعلنت نتائج تقصّي الحقائق من خلال مؤذن الجامع القريب من فوق المنارة ومن خلال منادٍ جوّال في الحارات والتي تضمّنت ما يلي:

أولاً .../ إن قطّة المرحومة (قدريّة) لم تُخنق ولم تُدفن تحت شجرة الرمّان ..

ثانياً .../ ليس لقطّة المرحومة أي أثر في كوة الحمام ...

ثالثاً .../ إن حكايةَ المواء خلف الباب ليلاً لا أساس لها من الصحة إطلاقاً ...

رابعاً.../ إن قطةَ المرحومة غادرت حارةَ (حمام مسلم) نهائياً الى جهةٍ مجهولة ...

خامساً .../...على الحاضر أن يبلغ الغائب ...

وبالرغم من هذه النتائج الحاسمة فإن بعضاً من الأهالي لم يصدقوها بل زادوا على أقاويلهم السابقة بأن المختار و رجاله وجدوا كنز العجوزة تحت الشجرة أثناء عملية الحفر وتقاسموه خلسةً مع الإبنة الكبرى بصفقة تستّر مريب على قضية القطّة، فازدادت الأقاويلُ ضراوةً وعنفا!

(3)

إستهلّ الصيفُ بلهاث سعيري يحرقُ حتى ظلالَ البيوت وأفياءَ الأشجار في الأحواش فإنزوى الناسُ بمهفاتهم اليدوية في الغرف و السراديب الرطبة يتقلّبونَ من ثقلِ قيلولاتٍ خانقة ، فإنحسرت الأرجلُ من الحارة فلم نعد نسمعُ من البيوت الا صوتاً جهورياً لبلاغٍ عسكري من مذياعٍ بعيد و نحيباً لطفلٍ غارق بالعَرق ورفّةَ جناحٍ منعشٍ لطائرٍ غامضٍ في شجرة قريبة...

وكانت الشمسُ النازفة في ذلك الصيف لا تقوى في الغروب على الإنزلاق من الجدران العالية الا بالدماء حين تمتزجُ رائحةُ الثوم المحروق في البيوت برائحة الدهون المقليّة فوق حبّات الرز إنتظاراً للعشاء في الباحات و أحياناً فوق السطوح المرشوشة بالماء هربا من الإختناق و إحتفاءً لمرور نسمة طريّةٍ عابرة ، فتزداد النجومُ المشعّة غبّ المغيبِ إلتصاقاً بالسماء خوفَ التساقط فوق السطوح العالية المزدانة بأكوازِ المياه و حزوز البطيخ الأحمر!!..

ففي منتصف شهر تموز من ذلك الصيف السعيري صعدت حاراتُ قلعة كركوك من الجحيم فلم نعد ، نحن الاطفال ، نسمعُ شيئا عن قطّة المرحومة (قدريّة) ولا عن هذيانات إبنتها الكبرى وجنونها فهوت أنفسُ الناس الى قعرِ ذواتها تبحث عن ملجأٍ في كينونة مشروخة تسعى الى تأسيس رغائب جديدة في حياةٍ غير مضمونةٍ تحت الشمس، فإنقلبت قصصُ العجائز عن العفاريت والجان والخوارق حول المواقدِ الى قصص خناجرِ الغدرِ و الطعن بحرابِ البنادق غيلةً والى قصص الدماء المتيبسةَ فوق الاعمدة و على الإسفلت الذي يلفظ لهيباً وقصص رجال تحولوا الى خضيب الدماء فذابوا مع أرديتهم كالشموع على الأرصفة فإنطفأت قناديلُ الليالي في السطوح وتسربلت المدينةُ بالظلام و تلحفت النسوة بالسواد الذي بدأ يخيم على المقابر وفوق الجثث التي حامت عليها الهوام لثلاثة أيامٍ بلياليها ، فأخذت الألعاب القديمة لصبيانِ الحارة تأخذ شكلَ سيوف الخشب و مسدسات عظم الخروف بعد أن غادروا الى الأبد ألعابَ الطائرات الورقية وفقاعات الماء الملونة المنطلقة من أعناق البكرات الخشبية ، فلم تعدُ البراءةُ في أحداقِ الأطفال تشفعُ لحنينهم الجارف نحو الرجولةِ المبكرة ، لقد ثُلمت ذواتهُم بلمعاتٍ

شريرة للخناجر المسمومة بحيث أصبح الزمنُ في تقلباته محض وهم مراوغ وأضغاث أحلامٍ مخادعة في نفوس الناس التوّاقة الى أحلامِ ماضٍ سحيق تشعّ أنوارُه في واحةِ إخضرارٍ عميق الغور حتى قدوم نهايةَ شباط من تلك السنة المنحوسة التي عصفت فيها الرياحُ المصحوبة بالأمطار والرعود فأدّت الى إنهيارات الجدران المتشققة وخلع الأبواب العتيقة والى إقتلاع الأشجار من جذورها في بعض البيوت فسُدّت النوافذ المطلة على الأفنية الداخلية بإحكام و بمزيدٍ من الدعائم والمسامير وإرتفعت المياه في مجاري الحارات و إقتحمت أحواشَ البيوت من خلال خصاصات الآبواب ، فساد ظلامٌ مخيف في بيتنا القديم في الحارة بعد إنقطاع التيار الكهربائي إثرإنفجارات مروعة للرعود التي تسبقها بروقٌ زرقاء يتتابعُ وميضُها الذي يخطف الأبصار فوق زجاج نافذتنا الكبيرة المطلّة على فناء الدار ، فنرتعدُ في غرفتنا خوفاً بعد كلِّ ومضةٍ خاطفة و نسحبُ أغطيتنا فوق رؤوسنا و نحن نرتجفُ بهلعٍ مشوب بلذةٍ وثأبة غامضة تحتلّ كاملَ كياننا الصغير ، وكان بيتنا المتداعي يهتزّ من الأساس بعد الرعود المدويّة فنضطرّ الى إطلاق أناتٍ متقطعة أشبه بالبكاء وأبصارُنا متعلقة على النافذة من تحت زوايا ألحفتنا كاتمين أنفاسَنا في حلكة الظلام لا نجرؤ على الإستنجاد بأبوَينا الغارقَين بالنوم في الغرفة المجاورة...

وفجأةً ... ظهرت ظلالُ شبح ضخم لقطّة سوداء على النافذة منتصبة على قائمتيها ، فإنتفضنا هلعاً ، وبدأنا نصرخُ و نعوّل منتشرين في زوايا الغرفة مع أغطيتنا نرقبُ شبح القطّة الهائل الذي كان يضيء و ينطفيء تحت ومضاتِ البروقِ ، لقد كانت القطّةُ تطلقُ صراخاً مدويا وموائاً عالياً يشبه عويلاً بشرياً ينطلقُ من أعماقها وكانت تكشّر عن أنيابها وتطلمُ الزجاج وتحفره بمخالبها بتتابعٍ سريع ، كانت تنتحبُ تحت البرد و الأمطار وحبات الحالوب مثل أمٍّ ثكلى فقدت جميعَ أبنائها ، وكانت في وقفتها وراء النافذة و ضرباتها الجنونية على الزجاج كمن يتقطّع بسكاكينٍ حادة فينتفضُ كلما تزداد آلامُه الحادة فبدأت تكيلُ ضرباتٍ أكثر حدةً وعنفاً على النافذة حتى أوشكت أن تحطّمَ زجاجَها وتقتحمَ غرفتَنا فهرعت الوالدة الى غرفتنا إثر الفوضى والصراخ العالي ووقفت تنظرالينا والى القطّة المجنونة بذهول لدقائق معدودة قبل أن تهتف بفرح غامر...

-إنها قطّةُ المرحومة (قدريّة) .. إفتحوا النافذة حالاً !!..

لم يتحرك أحدٌ من مكانه من هولِ المفاجأة فركضت الوالدة نحو النافذة و فتحتها على مصراعيها فوثبت القطّةُ بلمح البصر من النافذة بكامل بللها وولجت غرفتَنا و إختبأت في غرفةِ المؤن الصغيرة بسرعة البرق ، فساد في غرفتنا هدوءٌ مشحون بترقب حذر أطلقت فيه القطّة عويلاً أخيراً مؤلماً يشبهُ نحيباً موصولاً لأنثى تتقطّعُ أحشائهُا ثم همد كلّ شئ فلم نعد نسمع في الغرفة أية نأمة الا أنفاسنا المتقطعة وهدير رعودٍ محتقنة أخذت تنأى في سحبٍ تتلاطمُ و تومض في أفقٍ بعيد ، فأشارت الينا الوالدة بصمت بأن نعودَ الى فراشنا وأغطيتنا لننام !!..

في الصباح ، كانت زرقةُ السماء عميقةً و مضيئة بعد أيامٍ من العواصف و الرعود وكانت خيوطُ الشمس تتسربُ من النافذة بإشعاعٍ باهر وكأنها تحررت من أردانها بعد تململٍ طويل بالنقاهة ، وبدأت زقزقات

العصافير تتواثبُ بين الأغصان بإستيحاء لتعلن بشارةَ يومٍ وامض يشبه نكهة فاكهة لذيذة ، فقفزنا من فراشنا و تربعنا فوق الأغطية بفرح لا يوصف ، فحضرت الوالدة وهي تمشي على رؤوسِ أصابعها بتوجس ومضت صوبَ غرفةِ المؤن بعد أن أشرت لنا بسبابتها بأن نلتزم الصمت ثم أدخلت رأسَها داخل الغرفة لفترةٍ وجيزة عادت بعدها تنظرُ الينا بابتسامةٍ حلوة قائلة...

تعالوا ... انظروا!!..

فأدخلنا رؤوسنا معاً الى الغرفة ووجدنا القطّةَ مضطجعة على جنبها تنظرُ الينا بعينين تشعان إمتناناً تتقافز فوق بطنِها وأثدائها قططٌ صغار ولدوا للتو يتزاحمون كالعميان للوصول الى أثداءِ الأم ، فصرخنا معا ..إنها ولدت !!...

فأردفت الوالدة بشرود و ظلالُ دموع لامعة تدور في مآقيها...

– نعم ... كان مخاضُها عسيراً!!..

وبعد أقل من ساعة إنتشر خبرُ قطّة المرحومة (قدريّة) في كل حارتنا فتعالت زغرودة ذات رنّةٍ خاصة من بيت العروسة الحديثة بالحارة ذات اليد البضّة و الأساور الذهبية !!..

گوتنبورغ –السويد

العنوان وأيقونة الشهار

(يا حادي العيس)* إنموذجاً

فليحة حسن

يقول سعيد بنغراد في كتابه "الصورة الاشهارية " : إن (الإشهار موقف من العالم، من أشيائه وموضوعاته ومن كل ما تعج به الحياة من سلع وخدمات وأفكار وحالات وجودية)،

إذن، والحال هذه أفلا يشكل العنوان دالاً إشهارياً كونه مفتاح النص وداعيا من دعاة التواصل معه ؟!

خصوصاً وأنه ولوحة غلاف الكتاب أول إيقونتين يمكنهما التأثير على المتلقي بصرياً كونهما مكمن القيمة التحريضية للتلقي الأولي فيه ،وهما القادران على تبيان دلالة النص وإظهار مقصدية المؤلف وبإختصار أحياناً، إذ فيهما تمتزج الدلالتان البصرية واللغوية معاً، يتبعهما ايقونات أصغر في ذلك، كإسم المؤلف ودار النشر ومكانه وسنة الطبع وعدد مرات الطبع ولون الكتاب وهي العناصر الرئيسة للسمات المظهرية لكتاب ما؟!،

من هنا يتبدا لنا عنوان (يا حادي العيس) للروائي العراقي (سعد سعيد) ايقونة اشهارية مصرحة بها لجذب المتلقي نحوها ،

هذه الايقونة(الندائية) المعتمدة على (حرف النداء "يا" + المضاف"حادي" +المضاف إليه"العيس")، نراها تتضامن وتتضافر مع صورة الغلاف لتضع متلقيها في نوع من التوتر المعرفي القائم على التحفيز نحو الولوج لمضامين الرواية،

فصورة الغلاف المتكونة من (تخطيط لخمسة اعضاء في فرقة الجالغي البغدادي ، وهم كل من عازف النقارة والسنطور والرق مضافاً لهم عازفي العود والجلو و وهم معصوبو العيون ، يقف خلفهم جندي امريكي مرتدياً نظارة سوداء كبيرة وقد حجبت جلّ ملامح وجهه يشهربندقيته الى ظهورهم ،يقف الى جانبه رجل ملثم يتجلبب بالسواد ، ويحمل مدية كبيرة مصوباً إياها نحوظهورهم أيضاً، بينما توسطتْ الحائط سبورة سوداء كبيرة دُونتْ فوقها وباللون الابيض أغنية عراقية قديمة تقول كلماتها (يلي نسيتونا يمتى تذكرونا يمتى نجي ع البال وتساعدون الحال يمتى ..يمتى تذكرونا..)

وقراءتنا لهذه الصورة تجعلنا نقف على نقاط عدة فيها :

الاولى – إندماج الازمنة وإنضغاطها ، تتمحور لحظة اندماج الازمنة هذه في مكان واحد مرموز له بعدة دلالات تفضي كلها الى مكان مشخص علناً هو العراق، وهو هنا اندماج مستحضر على شكل اشارات متمثلة:

1– فرقة الجالغي البغدادي ومفردة "الجالغي" (مفردة تركية الأصل ومعناها الجماعة أو التخت الموسيقي، ويتكون هذا التخت من عازفي سنطور ،رق ،طبلة وجوزة.. اي رجال اربعة كلٌ يمسك بآلة معينة يعزف عليها ويرتدون في الأغلب زياً من الموروث العراقي او ملابس رسمية ويعتمرون السدارة) ، وهذا التخت عادة متصل بالاغاني العراقية القديمة المتوارثة ،حتى انه يعد من الفلكلور العراقي ،

غير ان الملاحظ للصورة سيجد فيها إضافة لآلات موسيقية حديثة لاتنتمي الى فرقة الجالغي كونها آلات تستعمل في الزمن الحاضر وليس لها علاقة بهذه الفرقة ، كونها آلات غير متواصلة مع الزمن الماضي وهي آلتا (الجلو والعود) وفي ذلك ملحظ مهم يشير الى إندماج زماني الماضي والحاضر وإنضغاطهما في لحظة تمتد الى مستقبل مجهول ومرعب في آن ،

مجهول بدلالة إنعدام الرؤيا (وجود عصابة العين والنظارات السود واللثام) للأشخاص جميعاً ، ومرعب بوجود (الامريكي وبندقيته والملثم وسلاحه الابيض)

2– الاغنية وهي في الاصل أغنية عراقية قديمة غير إنها هنا وقد أُضيف لها مقطع يقول : (رحتوا وغلقتوا الباب .. بوجوهنه يا أحباب ... ورحتوا وعفتونة ...جيتوا علينه منين يوم النطرتونة... يمته تذكرونه) ،وقد كُتبتْ على سبورة سوداء كبيرة فبدتْ وكإننا نسمعها من أفواه المغنين وقد ملأت أرجاء الكون، فهي إذن ليست اكثر من نداء إستغاثة ينبعث من أصوات مسحوقة ليس أكثر!

3– وضعية الفرقة وقد تقدموا المشهد جالسين ، بينما وقف الأمريكي والملثم شاهري السلاح وضعية تدلل على الخوف والارتباك صوّرتهم كرهينة محتجزة لاكفرقة تدعو للفرح وتنشر البهجة بحلولها !

4– من المعلوم ان التخت البغدادي يتكون من أربعة أشخاص،غير إن صورة الغلاف جعلتهم خمسة اشخاص وقائد الفرقة الخامس ذو الزي المغاير الذي لاوجود له على ارض الواقع قد أُلبس برأسه كيس ، كما يفعل الأمريكان لأي مشتبه ساعة الاعتقال ، بمعنى ان قائد هذا الجمع مغتال اصلاً ومحكوم عليه بالموت في زمن الحاضر ،وربما في ذلك إشارة الى إن القائد مغيب الحضور تماماً إذ إن حضوره في ذلك الغلاف كان حضوراً مادياً،

حضوراً جسدياً لم يعد يمثل القيادة لفرقته لانه معطل عن فعل القيادة الحقة بفعل تسط العدو عليه ، وفي هذا دلالة على غياب فعل الاهتداء عنها وضياعها ومن ثم ترك الفرقة دونما هدي وقد ضيعت طريق أفراحها ،

وفي ذلك تواصل كبير مع العنوان (يا حادي العيس) فالنداء هنا لشخص لم يعد موجوداً أصلاً والتواصل معه يقع في خانة المستحيل ،إذ إن مهنة حادي العيس كانت تقوم في الاصل على القيادة والهدي لجمع

وأن كان هذا الجمع أبكماً

وقد أنقرضت وتلاشتْ فهو نداء مبتوراصلاً ، فالعنوان هنا(يا حادي العيس) أشبه بصراخ معدوم التحقق لانعدام زمنيته حاضراً او مستقبلاً كونه مهنة منسوبة الى الماضي ، وهو نداء عاجز،كونه يرتد الى الماضي وصاحبه يبحث عن مخلص ماضوي ولايثق ببارقة امل في حاضره المعيش ولا في مستقبله الآتي ،

الثانية –الحنين،

ودلالات الحنين تكمن في شيئين (الجالغي البغدادي) و(حادي العيس) في(الصورة واللغة) ،في فرح ماض يعود للزمن الجميل وليالية المزدانة بالاغاني ورجع صدى ينكفأ دونما بارقة أمل في إنتظار مخلص لن يجيء،

الثالثة –الشعور باللاشيئية والتصحر، وهذا عائد الى استخدام اللون الاصفر القريب من لون الرمال وتلوين الغلاف الخارجي للكتاب به ، الامر الذي يرسخ فكرة ضياع الصوت وتلاشي النداء مع إمتداد الصحراء وتوالدها !

من هنا يتبين لنا أن (العنوان وغلاف الكتاب) يشكلان خطاً اشهارياً بدايته الاعلان عن النص وغايته التواصل مع النص أيضا.

*"ياحادي العيس"رواية سعد سعيد الصادرةعن دار فضاءات –عمان-2001

من أشكال التجريب في السرد الروائي العراقي *

القصة القصيرة تقنية روائية

(رواية عدن الخاوية نموذجا)

جميل الشبيبي

انطباع أولي

لابد لي قبل الدخول في القراءة التفصيلية لهذه الرواية المهمة تأكيد انطباع أولي يتجاوز كل الخطط والقراءات النقدية التي أحاول من خلالها الدخول إلى هذه الرواية الكبيرة . وهذا الانطباع يتركز على قوة التأثير الذي تمارسه الجمل السردية – المشهدية على قارئها فتثير انطباعا لديه أساسه الصدق الفني الكبير في سرد الإحداث وقوة وقعها وتأثيرها على كل الذوات المرهفة التي صورها الروائي بعفوية بالغة :فرجين الجميلة وباهرة المبتلاة بنتائج الحرب وزينة التي تطاردها الكلاب الآدمية في كل لحظة من لحظات حياتها وفضة وهي تواجه عالمها المضغوط وسط أدوات الزينة واكسسواراتها لاحتمال حياة ضامرة بسبب زوجها العاقر الدميم إضافة إلى صاحب اليد المقطوعة الذي يمثل الوعي الحاد بمجريات الحرب ونتائجها عليه وعلى مواطنيه كل هذا يجبر الناقد على التأمل في قراءته وكيف أنها ستكون قاصرة وضعيفة أن لم تستطع أن تجسد هذا الصخب المتواري خلف السطور وذلك الغضب العارم على من سبب الحرب وحوّل عدن من جنة إلى جحيم .

ورواية (عدن الخاوية) رواية حرب بامتياز ، وهي تتجاوز العديد من الروايات العراقية التي تناولت الحرب العراقية – الإيرانية ،وأسست عالمها على مجريات الحرب أو أجزاء خاصة منها ، إضافة إلى ميل واضح باتجاه تمجيد الحرب باستثناء روايات معدودة رصدت الانعكاسات الخطيرة للحرب على الذات العراقية ، في حين ترسم هذه الرواية عالم الحرب باختصار وتركيز شديدين من خلال اكتناز الجملة المشهدية– السردية بالعديد من المشاهد على شكل بانوراما متحركة تبدأ من نهاية الحرب – الهدنة عام ١٩٨٨– وصولا إلى أعماق

تحولاتها وإفرازاتها المهلكة على الشخصية العراقية في ميادين الحرب وفي المدينة . وقد حافظ الروائي فاروق السامر على حرارة الأحداث وكأنها تحدث أثناء حركة السرد بعد أن قام بمنتجة قاسية وكبيرة للأحداث التفصيلية التي نجد لها صدى واضحا في الجمل والمشاهد السردية التي شحنت بطاقة كبيرة من الحركة والتغيير في المكان والزمان عبر سياق سردي يحمل السطر الواحد منها أكثر من مشهد يتجسد أمامنا بأمكنة وأزمنة متنوعة .

إن الكتابة عن هذه الرواية الكبيرة التي استغرقت كتابتها أعواما عديدة منذ بدايات الحرب وحتى نهايتها وكأنها يوميات مركزة لكل الأحداث والانعطافات النوعية لهذه الحرب ، يحتاج إلى قراءة تفصيلية تتناول انجازات كاتبها في ما قدمه من جهد متميز في هذا العمل الروائي الكبير الذي يمثل شهادة صادقة على السنوات العجاف التي تجرع مرارتها وخساراتها وانعطافاتها العراقيون الجنوبيون بشكل خاص .

بدءا من العنوان نلمح رؤيا كابوسيه وتشاؤمية يؤسسه عنوان الرواية قبل الدخول إلى عالمها المتشعب ، فعدن في التراث العربي الإسلامي جنة وارفة الظلال لا يدخلها إلا من امتلك مواصفات الإنسان الكامل ، وهي موصوفة في التراث الديني على أنها فردوس المتميزين من البشر ، غير أن العنوان يعطي انطباعا مخالفا أساسه أن عدن خاوية ، واختيار كلمة خاوية دون غيرها من الكلمات لها دلالات تشي بان لا أمل فيها لحياة طبيعية سعيدة ومترفة أما لماذا عدن خاوية فنجد الجواب على لسان السارد الواعي بمصيره ومصير الآخرين ذي الذراع المقطوعة الذي أدرك (بان كل شئ قائم في جميع الأحوال ولا سبيل إلى دفعه أو رده أو تصحيحه ، الموت قائم ،الخوف قائم ،الرعب قائم ،الآلام قائمة ،والحياة قائمة أيضا .لا جنة خاوية في هذه الحرب ، لا جنة خاوية في الجحيم إطلاقا – ص255).

إن هذا التسليم بالقضاء والقدر عبر هذه الجمل الاسمية القارة يؤسس لوجهة نظر كابوسية تهتم بتأسيس مشاهد للرعب وانفراط الألفة والوحدة المخيفة ، التي تجسدت بشكل خاص بذلك الاحتماء في البيوت ، وعزوف الشخوص عن التواصل مع الآخرين سوى الأهل والأقارب المقربين ، وقد رسمت أجواء المدينة بغلاف من ضوء اصفر (يهيمن على المكان هيمنة مطلقة ويطلي سطوح الأشياء بنوره الكاسح ،كأن مئات المصابيح الخفية غير المرئية تساعد في خلق وولادة هذا الشعور المداهم .ص٤٤)، وهيمنة اللون الأصفر في العديد من صفحات الرواية ، يمثل وحدة أساسية في تضافر العنوانات الفرعية لأجزاء الرواية باتجاه التماسك في البنية الروائية باتجاه عالمها الضاج بالمشاهد والشخوص والمصائر ، وانفتاح افقها بنفس الوقت على قراءات متعددة من أي عنوان من عناوينها .

اكتمال البنية الروائية وانفتاحها على تقنيات متنوعة

تنفتح رواية (عدن الخاوية) على عالم الحرب، وتسجل عبر افقها الدامي موقفا ضد الحرب ، بشكل مطلق ، عبر لوحة صادقة فنيا بمشاهد و مشاعر وأحاسيس

ورهافة عالية وتعاطف كبير مع ضحايا هذه الحرب و اغلبهم من النساء كنماذج إنسانية تكشف مأساة هذه الحرب ووقع أحداثها الدامي على هذه النماذج والذوات ، وقد جرب الروائي فاروق السامر تقنيات مبتكرة لم تكن مستثمرة نسبة إلى تاريخ كتابة الرواية التي تأخر صدورها إلى عام 2010، وهي تقنيات منسجمة فنيا مع بنية تشكل الرواية وليست مفروضة عليها من خارجها فهي ضرورة فنية لتجلي أحداث هذه الرواية واكتمال بنيتها .ومن أهم هذه التقنيات.

1 -القصة القصيرة تقنية روائية :

تمثل القصة العراقية القصيرة منجزا متميزا في السرد العراقي والعربي القصير نسبة إلى الرواية ، وقد تفرد كتاب عديدون في هذا الانجاز منهم القاص والروائي فاروق السامر الذي حاز على جوائز عربية وعراقية في هذا المجال، وقد وظف بعضهم تقنية القصة القصيرة في كتابة الرواية منهم القاص الرائد محمود عبد الوهاب في روايته(رغوة السحاب)بما يسمى بالرواية الإطارية التي يتشكل عالمها بمجموعة من الحكايات ،والروائي لؤي حمزة عباس في روايته(الفريسة)، وقد لاحظنا أيضا أن بعض الروايات قد وصفها كتابها على إنها قصص قصيرة ، في حين تثبت القراءة التفصيلية لها بأنها روايات إطارية ،تتكون فصولها من قصص قصيرة متضامنة في معناها ومبناها، وقد قرأنا مجموعة (تيمور الحزين) للروائي احمد خلف على أنها رواية إطارية ،ويمكن عد مجموعة (رؤيا خريف)للقاص محمد خضير رواية بقصصها المتضامنة وهي تسرد تاريخ مدينة بصرياثا وحاضرها ومستقبلها،وبهذا المعنى نزعم أن الروائي فاروق السامر قد استثمر إمكانات القصة القصيرة كجنس أدبي وتوظيفه بشكل متقن ودقيق كتقنية روائية لبناء عالم روايته (عدن الخاوية) وقد وفر استثمار القصة القصيرة في هذه الرواية أفقا في الانفتاح على عالم أفقي واسع من الذوات التي اكتوت بنار الحرب ،وهي ذوات نسائية في معظمها وبنفس الوقت فأن،هذا الاستثمار قد عمق الإحساس بمأساة الحرب ووقعها على شخوص الرواية و باتجاه تعمق لوعة الذات وهي تحاور نفسها أو أمثالها كبناء عمودي يكثف الدلالات ،في أجواء الحرب الشرسة وشراسة وقعها على هذه الذوات البسيطة المعذبة .

وتظهر القصة القصيرة كتقنية فنية في بناء عالم رواية (عدن الخاوية) ،من خلال العناوين ،التي تضمنت ست عشرة لوحة قصصية باستثناء الافتتاح ببانوراما الأشباح والنهاية المسماة (زحل) ،وهذه اللوحات القصيرة تتمتع بخصائص القصة القصيرة منها:الوحدة التي تعني ، فكرة واحدة وشخصية واحدة ،وحدثا واحدا ، والتكثيف، والدراما التي تخلق الحيوية والديناميكية والحرارة في العمل، وهي تشكل وحدات مستقلة ،تنفتح على قراءة خارج الترتيب الطباعي للرواية –أي القراءة من أي مكان فيها– ،فتعطي انطباعا بالمأساة والمصائر المفجعة في كل عنوان من هذه العناوين بنفس الاتجاه والانطباعات التي تولدها القراءة الخطية للرواية من بدايتها إلى نهايتها ،وقد أسهمت هذه التقنية الفنية المبتكرة في كسر التوقع الذي تؤسسه

الكتابة الروائية المألوفة ، باتجاه انفتاح القراءة على عناوين متنوعة وهي بنفس الوقت تعنى أيضا باكتمال البنية وانضباط تفاصيلها باتجاه العالم الداخلي للرواية ثم قدرة هذا الشكل في الانفتاح على دلالات توفرها القراءة التراتبية من البداية والنهاية ، وبهذا المعنى فأننا نعد رواية (عدن الخاوية) انجازا تجريبيا في الرواية العراقية، وفي رواية الحرب بشكل خاص.

ومن الانجازات المهمة لاستثمار تقنية القصة القصيرة كتقنية روائية في هذه الرواية :

– قدرة هذه التقنية على إشاعة التزامن في بنية الزمن الروائي وإيقاف حركته على تفاصيل الأحداث التي تجري في يوم واحد وساعة واحدة بما يسمى بالمؤاقتة في بنية الزمن، الأمر الذي أسهم في الانفتاح على عالم واسع لا يمكن للقصة القصيرة أن توفره لوحدها بل أن ذلك من أساسيات البنية الروائية ،وقد أصبح هذا النظام احد العناصر الأساسية في توظيف القصة القصيرة كتقنية روائية ، وواحد من براهينه المهمة في هذه الرواية .

ومن أمثلة التزامن في هذه الرواية توقف الزمن عند الساعة السادسة عصرا في كل اللوحات القصصية وإشاعة جو من الخوف والترقب الذي ينظمه ويهيمن عليه (اللون الأصفر)الذي يحيل إلى الموت وترقب الموت : (كان العصر يعلن أبدية هذه الساعة الصفراء ،الجامدة الساكنة ، المتحجرة،المطلية بماء الذهب البراق...ص21–حراء الدامي).

فرفعت بصرها نحو الساعة المثبتة على الجدار ذات الإطار الساجي والميناء المذهب ،فوجدتها عاطلة رغم أن عقاربها كانت تشير إلى السادسة كما هو الوقت بالفعل بيض من رمل37).

(كان الضوء الأصفر يهيمن على المكان هيمنة مطلقة ويطلي سطوح الأشياء بنوره الكاسح ، كأن مئات المصابيح الخفية غير المرئية تساعد في خلق وولادة هذا الشعور المداهم –العنزة الذبيحة ص44).

(كانت السماء صفراء بلون الذهب البراق يمتد من الأفق إلى الأفق على شكل عباءة واسعة مترامية الأطراف ص90).

(وقلب ناظريه في السماء المغاظة ،كانت ذهبية صفراء بلطخات داكنة ص101–102).

– الانفتاح على عالم مشخص وكثيف الدلالة لشخصيات نسويه على الأغلب تأثرت بأجواء الحرب بشكل مباشر مما شكل أزمة شخصية لها واثر في ديمومة حياتها واتضاح علاقاتها مع غيرها من الشخوص النسوية في هذه الرواية وانشغالها في نفس الآن في دفع ضرر الحرب على نفوسها الحساسة ويتضح ذلك بالعنوان الرئيس لكل لوحة قصصية وهي تحكي مأساة حياتها أو حياة صديقة لها:

ففي قصة (بيض من رمل) تظهر باهرة (خائفة خوفا جارفا، ومرتعبة ارتعابا مريعا، وقلقة قلقا لا يضارع ص31) وهي تنتظر قدوم صديقتها (زينة)التي ستجلب لها دواء يساعدها على إسقاط الجنين الذي تشبث في أحشائها في وقت غير ملائم، وهي عندما تتذكر لحظة الإحساس بهذا الحمل تشعر (بهيام سحري جارف لحظة الفعل الخارق بلذته القصوى، بما يشبه الفرصة السريعة الملاطفة أو ضربة الدبوس المفاجئة ص35)

لكن زوجها يرفض هذا الحمل رفضا قاطعا قائلا (إنها الحرب وإنجاب طفل وسط الآلام والفوضى والدمار غباء أنساني لا حدود له ص35). ثم يضيف بصوت خافت هادئ: (الرجال في الجبهات ولا يعرف ما الذي سيحل بهم وليس في المدن إلا سحالي الغرباء وأفاعيهم وعناكبهم وسوف يتقولون بأشياء كثيرة في المستقبل عن الذين سيولدون الآن. إنني أناشدك إرجاء هذا الأمر حتى تتوضح الأمور ص35–36). غير أن الأوان كان قد فات، وهي تنتظر صديقتها (زينة) من اجل إسقاط هذا الجنين. ومن اجل إدامة التزامن أو التواقت في هذه الرواية نلاحظ استعداد باهرة لذلك من خلال إعداد قالب (من الكيك المحلى بالسكر تحسبا لحضور (زينة)عصر هذا اليوم ، وقد نشرت بفوضى عارمة على مائدة الطعام بكراسيها الستة المدفوعة تحت جوانبها، عدتها وموادها الكثيرة ص32). وبنفس هذا الوقت يرصد السارد العليم حركة (زينة) وهي تستعد للحضور إلى بيت صديقتها باهرة في قصة (العنزة الذبيحة) (نفضت عنها ثيابها ورمتها على السرير الفاره الموحش فتكشف لها جمالها على حقيقته صارخا، مضيئا، متحررا، منتفضا وكانت موجات الضوء الأصفر الفائرة المنبعثة عبر سيم الشباك مقتحمة عري الغرفة ووحشتها قد زادتها لمعانا وإشراقا، وجعلت جسدها المغري الناصع يغلي بالذهب المذاب المتقد – ص 47).

وهناك دلائل نصية ترفد تزامن الحضور بين شخوص القصة على الرغم من تحقق وجودهم في أماكن مختلفة ويظهر ذلك جليا من تواتر أسماء الشخوص في اللوحات القصصية في القصص الأخرى وبالشكل الذي يشي بالعلاقة الخاصة التي يوفرها المكان الواحد أو الذي يوفره نظام الصداقة بين الشخصيات وقد اتضح ذلك في أكثر من قصة في هذه الرواية ، فشخصية الرجل ذي الذراع المقطوعة او الرجل الشاحب ، او الرجل الشارد ترد في عدة قصص منها ظهوره في قصة (حمامة أم غراب): (واقتربت من السياج دون وعي وراحت تطلط من وراء ثغرات عين البزون ، حابسة أنفاسها، فاكتشفت أن الرجل الشارد قد غادر مكانه وما عاد يرى – ص79). وفي صفحة 84 (وطلطت من جديد علها ترى (الرجل الحزين) مبتور الذراع، لكنها لم تبصر سوى باب الحديد المنخب وصفار الدنيا من حولها) إضافة إلى وجود الشاحنة الصفراء ثلاثية الهيكل وبعجلات كثيرة وهي تغلق الدرب لنقل أغراض بيت (عرفات) إلى بغداد ص101) في عدة قصص كبرهان مضاف الى تقنية التزامن في هذه الرواية .

وإذا كانت هذه البراهين النصية تؤكد تضامن اللوحات القصصية مع بعضها وانعطاف أحداثها باتجاه البنية الداخلية لرواية (عدن الخاوية) ، فأن ذلك لا يمنع من التأمل في العالم الخاص الذي ترصده كل قصة قصيرة، وما فيها من تنوع في وجهات النظر واللغة القصصية التي اغتنت بتفاصيل ثرة عن حياة النساء في هذه القصص وقدرة مؤلف الرواية ومعرفته التفصيلية بما يحيط ويؤثث العالم النسوي. وفي هذا المجال سنكتفي بما شخصه الكاتب المبدع بنيان صالح حين لاحظ ذلك خلال الاحتفاء الذي أقامه اتحاد الأدباء في البصرة مع مجموعة

من أدباء البصرة حين أكد على (وجود شخصيات نسائية برزت العمل وخرجت به عن إطار الحرب والدمار...السيدات في الرواية، ست سيدات وخمس رجال هؤلاء هم اللاعبون الاساسيون في الرواية وابتداء نلاحظ إن للسيدات كانت أجمل الأسماء زينة درة فضة فرجين باهرة وأخيرا زحل وهذه إحدى الخواص الهامة لهذه الرواية. كما نلاحظ إن الكاتب كان من الإحاطة الشاملة بعوالم المرأة ضليعا بتقلباتها النفسية والعاطفية عارفا بملابسها الداخلية والخارجية وأقراطها وحليها وعطورها مما جعل كفة النسوة أثقل في الوجود واثبت تأثيرا من دمار الحرب وعذاباتها ، وحدهن السيدات كن فاعلات يمارسن ما يغري فاروق بمواصلة كتابة الرواية ومتابعة تحمل قراءتها بالنسبة لنا نحن القراء).

2- استثمار تقنيات السينما

من التقنيات المهمة التي استثمرها الروائي فاروق السامر في روايته تقنية سينمائية – مشهدية في القسم الأول من الرواية الموسوم ببانوراما الأشباح أبدع فيها حين استدعى من عمق بدايات الحرب وصولا إلى الهدنة في نهاية الثمانينيات ،أحداثا وشخوصا مدماة تحمل جراحاتها في مشاهد بانورامية –كتلوية ،وهي تعبر ممرات الحرب والموت باتجاه حياة مجهولة ، وبنفس الوقت وعبر زمن اللحظة المشهدية هذه خطى خطوات حاسمة وبكثافة عالية نحو ساحات الحرب كاشفا أهوالها وتآمر آمريها على الجنود والمراتب. وبهذا المعنى كثف الروائي عبر هذه التقنية أحداثا ومصائر متنوعة استمرت عشر سنوات بصفحات محدودة، ونحن نلاحظ أن هذا التكثيف جاء ضاجا وعنيفا، بعباراته النارية والوصف الأخاذ الذي جسد تلك المشاهد، وقد استنفر الروائي جميع الصفات الدالة على الوحشية والهمجية والخسران وضخها في تفاصيل المشاهد الحية باستثمار تقنية المونتاج الكتابي والتكثيف العالي لإنارة فترة زمنية طويلة، تعرضت فيها هذه الرواية إلى حذف العديد من أحداثها واستقرارها على الشكل الجديد والمؤثر .

ونلاحظ في بنية بانوراما الأشباح تجسدها في جمل اسمية، تعنى أساسا برسم مشهد لكتلة من البشر تبدو ساكنة ولكنه يطلق حركتها حالما تظهر كصورة مرئية، باستثمار أفعال مختبئة في الجمل الاسمية ،إضافة إلى استثمار الصفات ذات النبرة العالية في المعنى لشحن طاقة الجملة المشهدية بعنصر الانفعال والإحساس الحاد بما جرى في هذه الحرب :

(وبأعجوبة خارقة غامضة، ظهر الجميع على الفور في المشهد:القادة والمخططون، النواب والرؤساء، القضاة والعارفون، الشعراء والمفكرون، الفنانون والمغنون، ضاربو الطبل وعازفو الناي(.....) المغامرون والمهربون، الطلاب والمعلمون،البلهاء والمهتمون(....) كلهم ظهروا على الشاشة المرتجفة الراعشة ن بلحاهم النابتة ، وشواربهم المشوشة ،وهندامهم المبهدل،غارقين في خبر الهدنة تلفهم الحيرة والدهشة والاستغراب ،وهم يحدقون في الآفاق المعتمة المجهولة –ص 7).

ولا تتوقف الصورة على حاضر السرد (الهدنة) بل أن المشهد البانورامي يتحرك باتجاه الأيام التي سبقت الهدنة وهي تصور

حالة المدينة أيام القصف المدفعي عليها :

(كانت المدينة قد ضربت من وراء الشط القريب بالقنابل والراجمات بضراوة لا حدود لها ،وطرقت طرقا متواصلا كطرق الحداد على الحديد (....)وكان بين هزة وهزة ،ورعدة ورعدة،يتهاوى سقف ضعيف او يتهافت سياج دائخ او تنهار ستارة ركيكة لأحد البيوت ،وقد جن جنون المدينة ،وجن جنون الناس في الصور التفصيلية اللاحقة وراحوا يفقدون الصبر والقوة ورباطة الجأش –ص 8).

وبنفس هذه التقنية، تتوقف الصورة قليلا أمام عين المتلقي ثم تتحرك وتختفي فاسحة المجال إلى صور أخرى، تشترك جميعها في بناء شريط سينمائي متحرك ببطء، أساسه الجملة الاسمية المشهدية، التي تعتني ببناء بانوراما مكثفة لما جرى للمدينة وما وقع عليها من أهوال، من خلال التجسيد الصوري المقرب (اللقطات السينمائية الكبيرة). وبهذه التقنية استطاع الروائي فاروق السامر أن يحيط بمجريات زمن طويل من الحرب امتد عشر سنوات بتكثيف شديد ونبرة عالية من الإحساس بالمأساة .

3- تقنية اللوحة التشكيلية

ولم يكتف الروائي فاروق السامر بالتقنية التي تستفيد من منجزات السينما في بانوراما الأشباح في القسم الأول من الرواية بل استثمر تقنيات أخرى أهمها تقنية اللوحة والتأمل في تفاصيلها ونثرها على شكل حكايات دالة على مصائر إنسانية معذبة وطموحة للارتقاء إلى عالم عادل وقد وظف لذلك بعض اللوحات العالمية (لوحة المتقامران لسيزان –الصيد القبيح – آلكريفو- حقل القمح والغربان فان كوخ- مذبحة ساقز- دولاكروا) التي تستشرف واقعها لآفاق إنسانية واسعة وعمد إلى نثر أجزائها، وتفسير محتواها بشكل يتلاءم مع وجهة نظر مجموعة الساردين في القصص القصيرة الموظفة توظيفا فنيا باتجاه بناء روائي متكامل، وبالخصوص صاحب الذراع المقطوعة الذي يمثل وعيا متقدما بالحرب وماذا أفرزت وسحقت وأدمت ،وقد جاء الفصل الأخير على شكل محاورة بينه وبين (زحل)التي ظهرت على شكل فتاة رائعة الجمال تحاول استدعاءه إلى فضاء أرحب بعيدا عن منغصات الحياة التي يعيشها والمجاميع البشرية التي تحيط به .

وتتحقق هذه التقنية في توزيع مفردات اللوحة وألوانها على فضاء طباعي واسع مع إضافات إلى فضاء اللوحة ،تستفيد من فضاء الحلم في تغيير مفردات اللوحات الفنية من عالم الاغتراب والخوف والتهميش إلى فضاء التفاؤل وتجاوز الألم والخوف ، ففي اللوحة الأولى (المتقامران لسيزان) تنثر تفاصيل اللوحة بشكل رجلين (يجلسان إلى مائدة ضيقة في خمارة صاخبة ويتقامران ويكرعان النبيذ بشغف ص238) وفي اللوحة الثانية (الصيد القبيح ل ال كريفو) وعل جريح تهاجمه مجموعة من الكلاب وتحاصره بنادق الصيادين، لكن وجهة نظر زحل تتوقف عند لوحة الفنان (دولاكروا- مذبحة ساقز) التي يستوحي الروائي فاروق السامر من فضائها الأصفر ذلك الجو المتزامن في لوحاته القصصية الذي اشرنا إليه ،فالدنيا في هذه اللوحة تبدو (صفراء بلون الخردل ، وكان روح الموت يصعد من ظلماته الباردة ليلامس بإطراف أصابعه

المعقوفة أديم الأشياء والموجودات ص238).
أما تفاصيل هذه اللوحة فيجسدها الروائي بالصوت والصورة والحركة حين نتحسس أنين الجرحى والمحتضرين، العويل والدماء ،رجال ينزفون بغزارة (وهم يتكئون على أكتاف نسائهم) نساء متفاجئات من هول الصدمة، طوابير عوجاء طويلة من الرجال يؤخذون إلى (حفر واسعة عميقة ويعدمون بالرصاص) أجساد ممزقة ونازفة لنساء (وقد درج الأطفال نحو أثدائهن الميتة الباردة للارتواء وإطفاء الغليل) صبايا هائجات منتفضات، ممزقات الثياب عاريات الصدور- ص239). ونلاحظ في نثر أجزاء لوحة (مذبحة ساقز) تناصها بشكل خاص بالمأساة التي خلفتها الحرب العراقية – الإيرانية ، وهي تتعاضد مع بانوراما الأشباح التي تجسد بكثافة عالية وقائع الحرب الدامية على ذوات بريئة ومندهشة من هذا الدمار الذي أصابها. ومن اجل كسر أفق وحشية الحرب والدمار الذي خلفته يعمد الروائي في الفصل الأخير من الرواية إلى (مسح تام) لآثارها بيد الكائن الأسطوري زحل ونثر تفاصيل تلك اللوحات في فضاء آخر خال من أدوات العسف ورجاله: (لم تكن ترضيها مجزرة الأبرياء التي تراها متجسدة أمامها بهذه الوحشية والهمجية والتطرف ، فتبدلت مشاعرها فجأة إلى نوع من الغضب والتوعد والثار- ص240) فعمدت إلى: فك وثاق الفتيات المربوطات إلى قوائم الخيول والعجلات وأمرتهن بالإسراع بالهرب (وأخذت يد الطفل الراجفة المتشبثة وقربتها من ثدي أمه الناحل الذي طفح الآن بالحليب،وأفرغت قبضة ماء في فم الرجل الفاغر الذي كان يحتضر في حضن امرأته البائسة فاخذ يعود إلى الحياة ...ص240). وفي اللوحات الأخرى :حطمت كؤوس الشاربين ثم هشت على غيمة الغربان (المحومة فوق حقل القمح المذهب ، ففرت من أمامها مذعورة (...) وصفرت مصفقة بيديها نحو الكلاب الرقطاء التي تهاجم الوعل الجريح فريستها ، فاختفت هاربة مولية الإدبار نحو عمق الغابة وهي تعوي من الخوف- ص240-241).

لقد استثمر الروائي فاروق السامر خياله الخصب في تفعيل تفاصيل اللوحات، أولا بنثرها في فضاء الرواية مستعيضا عن اللون والصورة الدالة الجامدة، بقوة الوصف المطعم بالصفات الدالة على الإحساس بالألم والغضب والتعاطف مع الضحايا فيها، كما أضفى عليها حركة هي من أساسيات تحويل الصورة إلى سرد. أما الإضافة المهمة الأخرى فهي تخريب جو الحرب في لوحة دولاكروا ومسح أثار الحرب عنها وإعادة الصفاء والألفة إليها، وطرد الكلاب والغربان من اللوحتين الأخريين .

وإعادة تشكيل اللوحة بتفاصيل جديدة خالية من أدوات القتل والتعذيب هو ابتكار تقني يحسب كمنجز فني للروائي، وهو بنفس الوقت تمثيل جمالي لوجهة نظر الروائي التي تدين الحرب وأهوالها، وتكرس الانسجام والعلاقات المتآخية بين البشر.

*التأسيسي الأول للرواية العراقية الذي انعقد في مدينة البصرة في 6 تشرين الأول 2011

سلام إبراهيم يُبدع مِنْ بَاطن الجحيم..!!

صباح كنجي

قرأتُ في العدد 48 من مجلة (الكلمة) الرواية التسجيلية الموثقة (في باطن الجحيم) لسلام إبراهيم، التي تستندُ في بنائها على ثلاثة أركان لتكوين نسيجها، عبر توزيع محكم تنفرد به بين السرد والتحقيق والاستطراد التفصيلي لعذابات الناس تجمع بين حدثٍ وفن ووثيقة في توليفة درامية متوترة تمتزجُ بدم الوريد ونزف الروح تتابع خطوات العنف والدم والموت، وتفيض بالعواطف الإنسانية النبيلة لشاهد على فضائع وأهوال مَرةً وسيرة شخصية تارة، أستمدَ وقائع أحداثها الحقيقية من معاناته ومشاهداته وهو ينتقل بين مدن استحكمَ بها الدكتاتور ورهطه بقوّةِ جيش شرس يقودُ الناس ليقذفهم في آتون محرقة الحرب، وأجهزة قمع تعتقل الأبرياء لتذيقهم أنواع العذاب وتغيّبهم في دهاليز معتقلاتها.

قبلَ أنْ يلتحق بالأنصار الحالمين بوطن خال من العسف والاضطهاد.. هذه الأحلام التي أجهضها الدكتاتور وقتل من حلمُ بها بكيماوي طائراته الحربية، ومدافعه العملاقة أسفرت عن أهوال كارثة إنسانية.. بحكم فداحة الخسائر وكثرة الإصابات وعمق الجراح.. وانعدام وسائل العلاج.. وجهل الأطباء وعدم معرفتهم بنوع السموم التي أصابت الجرحى..

مِنْ هذه اللحظات سَيسحبك وأنتَ تقرأ روايته لتغوص في باطن الجحيم، سيدخلك للعمق.. لتعيشَ تجليات الحدث يتتبعُ آثار ما خلفه صاروخ سقط بالقرب من أبي فؤاد العائد للتو من رحلة علاج تسمم بالثاليوم، الموعود بلقاء زوجته وأبنائه المنتظرينَ لهُ بلهفةٍ تستغرق مسيرَ يوم بين مَقرَيْن للأنصار، زيوه في العمادية، الذي تعرض للقصف الكيمياوي لمرتين وتحول إلى ساحة للموت، ومراني في الطرف الآخر لكاره.

يتابعُ سلام ما حلّ بالأنصار من تلك اللحظات، يركز الرؤى.. يلتقط مشهداً صغيراً، من ساحة وقوع الصاروخ، ليبدأ في نسج حكاية جريمة خطيرة حدثت، عبر تحولات ناشئة في، الوجوه، العيون، احتراق الجلود والبقع السوداء التي ظهرت بين الأرجل وتورم الأعضاء التناسلية، تضخم البلاعيم، وغيرها من التشوهات..

يستمدُ من معاناة (أبو فؤاد) في ساعاته الأخيرة وهو يُنقلُ نحو الطبابة التي أفضت ملامح الدكتورة عن مشاعر ألم دفين لتعلن

عجزها أمام هذا الهول وهي تذرفُ دمعاً وتطلق آهة، معَ مَنْ يُساعدها في نقل المصابين ومعالجتهم مثالاً يختزلُ الوجع ويكثفه للدخول في عمق الكارثة في مقر زيوة، الذي تحول إلى جحيم يئنُ فيه المعذبون من الجرحى (أم هندرين التي بدت شديدة الارتباك.. لم تواجه مثل هذا الموقف من قبل .. ليس لديها اللوازم الطبية الكافية لمواجهة الوضع).

لا بل أنّ (أبو رزكار) المصاب الآخر بحروق بليغة قاتلة أبى أن يفارق (أبو فؤاد).. كان يحضنه كما حضنت مريم المسيح..(لا أستطيع نسيان مشهدً .. كلما وقع بصري على لوحة لمريم في الكنائس .. أمام غرفة الطبابة جلس أبو رزكار متربعاً على الأرض واضعاً رأس أبو فؤاد في حضنه، ومنحنياً عليه، يهمسُ كأم تحنو على وليدها.. وقسمات أبو فؤاد بدأت تسودُ شيئاً فشيئاً كأنها حُرقت بفرن)..

يا لروعة سلام في توثيقه للمشهد المؤلم ليعيد تصويره للحدث عبر هذه الرواية، لا لنقله كحدث من تاريخٍ مَرَّ ومَضى.. بل لينقلنا لتلك الأجواء ويعيدنا للمكان، لنسمع معه صرخات وأنين جرحى الكيماوي، نشارك أبو فؤاد عذابه من لحظة سقوط الصاروخ فيحترق وجهنا وجسدنا مع وجهه وجسده.. لم يكن وحده جريحاً مصاباً بالغاز محترقاً يتأوهُ بل نحْنُ المحترقين نتأوه من شدة الألم.. نحن الجرحى والضحايا.. نحن المعذبين في أقبية الموت والمعتقلات التي مرّ فيها سلام وغُيّبت شقيقه كفاح..

انه لا يكتب الحدث وهو ينزفُ دماً وروحاً بل يعيد خلقه من جديد، يحيي الموتى.. يعيد صرخاتهم.. يُسمعنا آهاتهم.. يقربنا من لهاث عذابات ما قبل الموت بلحظاته الجليلة ونحن نسير في البرزخ الواهي الفاصل بين الحياة والغياب الأبدي..

لذلك تعاطفنا وفرحنا معه في مشهد محاكمة الدكتاتور.. (مستمتعاً..كلما ظهر وجه صدام في لقطة مقربة منصتاً لسردِ الضحايا.. أرى نفسي في قمة الهرم وهو في أسفله).

يشاهدهم في القفص.. يشاهدُ الجلادين والقتلة وهذا النمط المعادي للإنسانية والبشر.. يتابع حركاتهم وردود فعلهم وصلافتهم.. يتابعُ عدم اكتراثهم بما ينزف به الشهود الكرد وهم يسردون بعفوية ما حلّ بهم في تلك الأيام على يد من في القفص ..

هاهي النصيرة سعاد.. (بغتةً، ظهرت رفيقتي القديمة سعاد في مواجهة الطاغية.. أخذتني إلى تلك التجربة وهي تذكرني باسمي الحركي وقتها، أبو الطيب، كيف أصبت بشدة وأنا أهب مع رفيقين لإطفاء الحريق الذي شبَّ في المقبرة.. أخذتني إلى ذلك الغروب.. كان كل شيء هادئ في ذلك الوادي العميق على مجرى نهر الزاب الأعلى). تدلي بشاهدتها كضحية أصابها الكيماوي بالأضرار.. أنها الآن سيدة الموقف.. سيدة المكان.. تروي بالدليل ما حلّ في ذلك اليوم.. تصفُ الطائرات.. حالات المصابين.. توجهُ أصابع الإدانة للرئيس المعتقل.. تهينُ وزير دفاعه الذي حاولَ استعطافها.. تومئ نحوهم:

ـ سفلة.. قتلة..

لبوة مستفزة كانت وهي تدفع بشهادتها الحية عن الحدث/الجريمة مستذكرة ضحايا زيوة أبو فؤاد..أبو رزكار وبقية المصابين.. يتراجعُ الرَيّسْ وينكمشُ.. يصغر ويصغر.. يعود لحجمه الحقيقي.. يتلاشى مع بطانته في القفص.. سلام يقهقه في كوبنهاكن متابعاً محاكمة يديرها قاضي يساهمُ في دفعه للمزيد من الضحك وهو يطرد الرئيس..

أو يطلب:

- جيبو .. جيبو.. خلي يدخل ..

يدخل الدكتاتور القفص ذليلاً يجلسُ في المكان المحدد له صاغياً للأوامر.. هذا المشهد يخففُ من معاناة الضحية.. يقللُ من آلام الناس.. يخفف عذاباتهم.. يطببُ جراح أبو فؤاد وبقية المصابين ممن عجزت آم هندرين عن معالجتهم ودفنوا في تلك الأصقاع..

هاهم يعودون.. أم فؤاد في مشهدٍ تزور قبره أعادَ تصويره سلام بصيغةٍ تعيدكَ لفصل آخر في جحيم الوطن الذي ينوءُ من هول وبشاعة الجرائم المرتكبة فيه.. مشهدُ الشجن والوفاء وهو يتابع خشوعها وهي تندبُ التراب وتعصرُ القبرَ كي ينهض ولو للحظة واحدة.. ثمة ما يمكن أن تقوله لهُ.. ثمة أشياء يستوجبُ سماعها.. أكيد انهُ سمعها.. سلام موقن أنّ أبو فؤاد سمعها تطلق من نزيف روحها صرختها الأخيرة تناديه متوسلةً..انهض.. لا تخذلني جئت لزيارتك...

(لمحنا من المسلك الهابط من العمادية ثلاثة مسلحين وامرأة بثوبها الكردي الفضفاض.. مسرعين، تبين أنهم من الفوج الأول.. زوجة الشهيد جاءت.. سألتْ عن قبره. ارتبكت الوجوه.. كررت وثالثة، فهبطت قلوبنا إلى أسفل أقدامنا، ممعنين بالصمت.. إلى أن أنقذتنا بهار:

- سآخذك إليه!.

قادتها من ذراعها .. صوب المسلك الهابط جوار مجرى النبع.. سحبتها برفق من معصمها الناحل إلى.. القبرين. رأيتها تشير نحو كومة التراب المرتفعة قليلاً.

- هل كانت تخلّقه من جديد من ذاكرتها؟!. هذا ما بتُ متأكداً منه..هل كانت بصمتها الطويل الذي أربكنا ووتّرنا تمارس طقساً من طقوس الموت لدى الطائفة اليزيدية؟!..لا ادري!. تلك اللحظات أشعرتني بفداحة الفقد المباغت لمحب حميم. لا أدري كم من الوقت ظلت ساكنةً كتمثالٍ من حجرٍ.. فزمن تلك اللحظات زمن مختلف لا يقاس.

تمتمت بصمت فيه جلال، وقليلاً قليلاً بدأ الصوت يظهر ضعيفاً مكسوراً أول الأمر، ثم شرع في التماسك شيئاً فشيئاً إلى أن بات واضحاً.. بدأت بسرد قصة حبهما وكأنه متجسدٌ أمامها. تقص وتعلق كأنها تسمع ما يقوله لها.. صرخت صرخةً واحدةً طويلةً حادةً أصابتنا بالكمد وارتمت على كومة التراب. غطتها مولولةً صارخةً باسمه..أم فؤاد تناديه كي يقوم من جديد قابضةً على ذرات ترابه في حركة تشتدُ وتنبسط وكأنها تحاول خلقه من جديد. وحدها زوجتي بدت متماسكة منتظرة لحظة مناسبة كي تنتشلها من وهم عودته.. أحسستها.. تحاول الغور في التراب).

هذا المشهد المؤثر للزيارة قبل الأنفال التي غيبتها يستقدمهُ سلام إلى كوبنهاكن في الزمن الجديد ليتابع بشغفٍ المحكمة بحضور ومشاركة أبو فؤاد وأم فؤادٍ.. ينفي موتهم وغيابهم.. يعيدهم للوجود.. يحييهم ليتابعون ويشاهدون معاً الجلسات التي تدفعُ بسلام ومن معه للمزيد من القهقهة والفرح.. الموتى، الدكتاتور وبطانته في القفص منكمشين على بعضهم.. يلتمسون بذل من رئيس المحكمة أشياء غير مهمة.. يتلعثمون عند الاستفسار عن اسم أو واقعة، أدلى شاهدٌ تفاصيلها، يحاول إنكارها مُتهم مُدان بينهم، وعندما يعرض المدعي العام وثيقة موقعة وتسجيلا صوتياً وفيلماً موثقاً للجريمة تتجمدُ وجوههم.. أنذال منزوعي الضمير يفتقدُون للأحاسيس والعواطف.. لا بل موتى لا يستجيبون أو يتفاعلون مع ما

يحيط بهم.. هم موتى إذن.. نحنُ الأحياء.. الدكتاتور هو الميت وأبو فؤاد حي يتبادلُ نخب النبيذ مع سلام..

هكذا تداورُ الرواية الأسماء.. يأتي كفاح شقيقه، يتبعه أبو رزكار.. أبو جواد.. ومهدي خريبط.. ميثم جواد و.. ينهضُ ضحايا القمع.. يقهقهون.. يرقصون.. يتهامسون.. تتحول المحكمة لميدان رقص وفرح وانتصار.. يتحول الألم إلى لذة ونشوة.. تقرع كؤوس النبيذ..

ليست هذه كل أحداث الرواية، سلام عودنا على ما يمكن أن نوصفه بالفضاء المفتوح في الرواية.. لم يختار لها بطلاً محدداً أو مجموعة شخوص للبطولة، ترك ملامح الحدث ونسيج الرواية يمتدُ حيثما امتدّ القمع والإرهاب، لا يتوقف عند حدود العراق.. ولا يحصرُ التهمة ويقصرها في شلة القفص.. انه يسعى لتوثيق حجم الجريمة كما هي في تفاصيلها، متابعاً خفايا الحدث..

لا يكتفي بذكر الوقائع.. الأسماء.. الصور.. الوثائق التي تخص الضحايا والمتهمين.. يَسحبكَ من أجواء الحرب وأقبية التعذيب ومقرات الأنصار إلى أوربا "المتحضرة" لتسيرَ معهُ عبْرَ محطاتٍ جديدة تفضي بواباتها الموصدة، إلى صالة تحقيقات دولية تتابعُ الشركات والأشخاص الذين دعموا الدكتاتور..

ليفاجئك أن البعض من الأنصار بينهم – كاتب السطور– الذي كانت عائلته من ضحايا الأنفال ما زال يكافحُ ويتابع الجريمة وذيولها في محاكم لاهاي عبر ملاحقة التاجر الهولندي– فرانس فان الذي مُنح الجنسية العراقية باسم (فارس) وبيتاً للسكن في شارع حيفا في بغداد بأمر من صدام.

يتقدم في المشهد يفاجئك ببراعة المبدع الذي يتقنُ حياكة نسيجه يسردُ لك تفاصيل لقاءه بصديق فارقه، شاءت الأحداث أن يكون شاهداً من داخل المؤسسة العسكرية على ما حلّ بالمفقودين و عوائل الشيوعيين ضمنهم عائلة أبو فؤاد وصباح كنجي لحظة تجميعهم في قلعة نزاركي بينهم، فصديقه يحي الأميري الشيوعي المجند من الفرقة11 يكلف مع تشكيل من كتيبة مدرعات حطين بحراسة الأسرى والمعتقلين، يقدم تفاصيل مزعجة عن جريمة حدثت في القلعة يرويها في كوبنهاكن عبر سرده لبعض مِمَا مرّ عليه من أحداث في تلك الأيام المتوترة التي افترق فيها عنه..

يتذكرُ تتبعه لأثر الصاروخ من لحظة الانفجار وما أعقبها، يعود بذاكرته لمشهد في غاية الألم من موقع الجريمة إذ يرى أبو فؤاد ينقل على عجل من رفيقين له يسعيان بشق الأنفس للوصول إلى الطبابة في محاولة لإنقاذه، لكنه كان يرى شيئاً آخر يدفعه لليقين أن أبي فؤاد سائر نحو برزخ يؤدي للموت لا محالة هذه المرة بعد أن صمدت روحه أمام حالة تسمم وقاوم جسده الموت من جراء سم دُسّ في طعامه من قبل عميل للمخابرات اختير ليكون وسيطاً لقتله بالثاليوم..

في الأنفال بعد سنة من حادث القصف أي في الشهر الثامن من عام 1988 ستعتقل عائلة أبو فؤاد كلها وتضيع في المقابر الجماعية إلى الأبد...

أما الكاتب فكانت إصابته لا تقل خطورة وأدخلته هو الآخر في باطن الجحيم ليقترب من الموت.. كان موتاً بطيئاً يأتيه من مشاهداته لآلام الآخرين وصراخهم وما حل بهم، لم يكن أبي فؤاد إلا واحداً منهم والبقية كانوا في حكم الموتى يتمددون حوله في ذلك

العراء وهو يعاني من آثار حالة خاصة لم تمر عليه حتى في ساحات الحرب، كانت أجزاء من جسده تفيض بما لا يطاق تحمله من عذابات تجعله يحسدُ سيزيف في معاناته ويتمنى الموت للخلاص وهي أمنية راودته في دهاليز معتقلات الدكتاتورية..

ويمر سلام بمراحل الفحص الطبي الأولية من بودقة طبيبين لا يكترثان لحاله فيتعقد وضعه، هما لا يفهمان معاناته ومحنته، كما لم يفهم الدكتاتور محنة ذلك الكردي الشاب الذي تشوه وجهه من جراء القصف وبات أولاده يخافون النظر إليه.. يستمر في التذكير بالمزيد من ضحايا القمع والعنف الذي رافق سيرته من صباه، هو عنف ينبتُ في الحارة وينمو في ساحات الحرب يمتد لضفاف نهر الزاب في زيوه، عنف يتواصل في كل الفصول وفي كل الأماكن، عنف يتسلسل ويتناسل بأشكال غريبة يتوالد في أقبية الموت ومؤسسات الدولة البوليسية وينتقل بواسطة القذائف في الفضاء ليخطف اعز ما عرفهم سلام في حياته بين الديوانية والحدود وحتى أقاصي شعاب الجبال في كردستان وما وراء الحدود في سجن أيفين الرهيب الذي روى حكايات الموت فيه النصير أبو جواد بصيغ مضحكة وساخرة، عنف يمتد نحو الحدود مع الحشود الهاربة المذعورة وهي تسعى للخلاص في لحظة بؤس تترافق مع (صوت قصف يقتربُ سريعاً.. سريعاً.. مما جعل الجمع المحتشد أمام بوابة الحدود يصاب بالهلع.. هلع غير عقلي.. هلع غريزي ابتدأ لغطاً لكنه سرعان ما تحول إلى صراخ ينبعث من تزاحم كتلة بشرية هائلة متلاصقةٌ، مرصوصةٌ، ككتلة من الأسمنت الصلب الجاف، متأهبة لاقتحام لا خط الحدود الوهمي بل حتى خط السماء. كتلةٌ كقلبٍ صلبٍ .. فكلما ابتعدنا عن نقطة الحدود شعرنا بمزيدٍ من الأمان)..

أمه فجعت بابنها كفاح حينما أعدمه الطاغية وسيلحق به محمد ابن بنتها وداد بعد مشاركته في الانتفاضة عام1991، هذا في عائلته أما أصدقائه ورفاقه ممن روى عنهم حكايات الموت في زيوه (أبو رزكار كان مسلوخ الجلد، وجهه .. ظهره.. بطنه.. ذراعيه.. الجذع الأعلى العاري تتزاحم فيه الفقاعات. أعدتُ مرات عديدة شريط هذا الفلم، فوجدته يسرح بعينيه المفتوحتين عكس كل المصابين في عالم بدا غريباً عن عالمنا.. أيقنت وقتها أنه كان في البرزخ يمضي.. في ضيق ذاك الممر المحشود بالغرائب).. فقد غادروا بطرق غير مألوفة لا تمت للموت الطبيعي بصلة..(أبو الوسن واقفاً بالمقلوب تماماً. يرتكز على رأسه، المحشور لصق ساق شجرة بلوط متينة، تحيط بها سيقان شجيرات أصغر وأعشاب أحاطت بالرأس والجسد، فحافظت على وضعه قائماً بالمقلوب).

أبو الوسن وأبو سعد سينتحران بعد تعرضهم لغاز الأعصاب وسيدفنهم الكاتب على عجل.. (أول ما فكرنا فيه هو دفنهم والانسحاب على عجل، فبين لحظة وأخرى كنا نتوقع تجدد القصف، أو سيطرة الجيش على السلسة المحاذية للزاب فيقطع خط انسحابنا كنا نظن أن هذا الدفن مؤقت حفاظاً على أجسادهم من نهش الحيوانات ليلاً.. بربك أسرع.. لازم نغطيه زين حتى ما تأكله الحيوانات ولا تجرفه سيول الربيع.. أسرع حتى لا نرقد جواره).

قذائف المدفعية أخذت تسقط تباعاً..أسفرت عن حالة جديدة (ضُربنا كيماوي.. ما ندري.. صارت بينا هستريا.. كل واحد ركض بصفحه. أحنه ركضنا

باتجاه الزاب وسحبنا أبو سعد وعبرناه للجهة الثانية، لكن لما ركبنا التللفريك صرخ بنا.. لا تتركوني. تره أضرب رأسي بطلقة.. لا.. لا.. !.. أرجعوا.. أرجعوا!.

سلام لم يكتف بسرد ما حلّ برفاقه في تلك المحنة غاصَ في لجّة الحدث متقصياً مهموماً يستكمل الجزء المفقود غير المرئي منه، عبر صديقه يحي بعد عقدين من الزمن في أوربا، إذ يقصُ على سلام مشاهداته من الطابق الثاني في القلعة التي تحولت إلى مكان للتعذيب..(توقف موتراً قامته القصيرة، ورمقني بنظرة عميقة وقال:

ـ هل تعتقد يا سلام أن الجندي العراقي المساق قسراً لأداء الخدمة العسكرية يقبل بما يجري في باحة القلعة؟!. لزمت الصمت: لا.. لا.. سوف لا أنسى ما حييت ذلك المشهد الذي جعلني أنحبُ بكتمان، وينتحب من حولي الجنود لائذين خلف أعمدة طارمة الطابق الثاني.. يحيى يقص عليّ تفاصيل.. خط سير وحدته..

سألته ماذا صار بالعوائل والبشر التي لم تتمكن من الوصول إلى الحدود التركية؟!. جمّعوهم في قلعة رهيبة، قلعة قديمة لها بوابات هائلة تستوعب دخول دبابة..في أطراف دهوك قرب المنطقة الصناعية.. وحدات الفرقة11 تشغل المكان.. وحدتنا كتيبة مدرعات حطين ..تشغل الطابق الثاني، جمعوا في باحة القلعة الشاسعة الآلاف العوائل المتلاصقة حددوا لها مكاناً مسوراً بأسلاك شائكة تركوهم أياماً دون أغطية ولا طعام... سمعتُ ضجة وصراخ وشتائم وبكاء أطفال ونساء من باحة القلعة.. أسرعت بالخروج ..

رأيت رجال أمنٍ بملابس مدنية يصرخون مطالبين بخروج جماعة خالد* لا أعرف ماذا تعني جماعة خالد حتى الآن، كانت الكتلة المحجوزة تتكتل ملتمة فتحولت إلى كتلة واحدة..انهالوا على الكتلة ضرباً بالكبلات المحشوة بالحصو فتفتت الكتلة وسحبوا المطلوبين سحباً. طرحوهم أرضا، ووضعوا على أجسادهم الناحلة إطارات قديمة لمدرعات وجلسوا عليها. راحوا يقفزون ضاغطين على الأجساد المختنقة وسط عويل أمهات وزوجات وأطفال من يُعصر ويُخنق تحت الإطارات.. كان يرتجف كأنه يرى المشهد.. قتلوهم خنقاً تحت ضغط الإطارات أمام أعيننا. لحظة لفظ أنفاسهم ضجت الزوجات والأمهات بالعويل والنحيب،والندب بترديد..رثاء باللغة الكردية..أستمع لرواية صديقي القديم مستعيداً وجوه وقامات العديد من المقاتلين الذين حينما خيروا بين ترك الأهل والاختفاء بأمل التسلل إلى دول الجوار اختاروا البقاء مع زوجاتهم وأطفالهم وهم من واجه عناء القتل والذل المضاعف. أشطح بذاكرتي إلى تلك الوجوه الكردية التي أحببتها والتي ضاع ذكرها إلى الأبد، كما هو الحال مع عوائل اليزيديين الأكراد ممن أسر في حملة الأنفال.

طوبى لسلام الذي أنجزَ ما لم ينجزهُ من قبله الآخرون في عمل روائي هام سَجّل وقائع مُرة مِمَا مَرّ به العراق، هذا الوطن الذي ما زالت تنمو فيه درنات القتل والإجرام عبر محطاتٍ جديدة من الانحطاط السياسي حولت المجرمين والقتلة المطلوبين للقضاء إلى سياسيين وقادة في مؤسسات الدولة.. أنها رواية لا تدين الماضي فقط بل تدين الحاضر المنحط وتحذر من منح غطاء لمن ارتكب تلك الجرائم في كردستان والعراق..

قصيدان

حسينة بنيان

آخر آه

سمعتُ ألآه
وأهل الآه
وبيوت الترتيل القسري
بأسم ألم
والمالك يسجد ..تحت ألم
وأبو جهل ..يهلهلُ
تحت..ألم
وسوط القاضي بالباطل
يبدأُ مسرحةَ الويلات
ويصدرُ حكماً بأسم الاحزاب (الموقوتة)
بأسم ..ألم
وزينة مجلسنا (العرفي)
يفرش تربة النقدية
ليطبعَ فيها ..صلاة الليل الملقاة
فوق جباهٍ زوَّرها السيدَ
في (سوق مريدي)
أو غيره..من اسواق الفجر الفاجر
والسبل الملوية
يكشفها الأغبى
من هذي الارض المسمارية
ليدخلِ مسجدهُ المخطوف
من أضلع شبان الدربونة
وبنات الدربونة
وأبو جهل ..يهلهل
ويعانق كلَّ الحيتان
(في قبضة الدولارية)
وعذراً للحرف العربي
حجرُ كلِّ المبهورين
من أسمى خطبة..وآخر آه
تُطاق من أفواهٍ شتّى
وملوك العصر السابق ..في الخضراء
غرقى..
بملفّات العار المحمول
فوق صدور فرغت من ابسط صورة
لجراح نزفت من شحرور
أو من عرس دامٍ
صُبَّ بكأس خيانة..دم المهدور

والمالك يرسو فوق العنق الفلاحي
ليعيد القصص الاقطاعية
في عصر الظلمة الوطنية
وضياع العلم المحني
فوق السطح الفسفوري
بين الالوان المحبوكة
للمهزلة الصحراوية
وردود الفعل المكبوتة
خلف نشيد الاستهزاء
بكل شجون الحريات
(وحب بلادي ..فرض فؤادي)
والمالك بكك
الاسهم..
مشارك
ودروب الآه
تتشعبُ بين جباه تسقط من محملها
وبين رفات المستقبل
لحياة مازالت
ترسم ُاصواتاً صغرى
أو .. كبرى
تصرخ
وا.....جباه

منذ رحيلك

منذ فاجأك الموت
وحتى البيت
وحتى الهاتف ..لم يتكلم
لم يسمعنا لحناً آخر
منذ كانت غيبتك الاخرى
لم يتكلم
والشجر الاخضرُ
يتسترّ في وجه الليل
والعلقم لم يعد العلقم
منذ رحيلك
صار الموقد عند القلب
ودوار العمر المعتوه
يتهادى خلف الجدران أين القوة
أين الشعر المتناثر والخلوة
ومبيت الحلم المترامي
صار امامي..لايتكلم
منذ رحيلك
اوصدت الباب بأوصالي
حتى يبقى جسدي واحد
فلقد مزّق كلَّ الصبر رمك الخالد
منذ رحيلك

قصيدتان

وفاء الربيعي

أطيع
اله العشق

الازمنة تقتحم خواطري
اعلو واسمو علني الامس نجمة
أزيل عنها عشبا واشحنها بالضوء
اتخبط بين خطوط الاستواء
شرقا وغربا
اتيه بين الخرائط
احمل الفرح مرة والحزن مرات
اجعل من غصن الكرز
سريرا افترشه
يحملني . يمر بحني
ارسم من شعاع الشمس الذي يتسلل من
بين اوراقه احلاما
تنحدر كشلال
حين يقود عربتي هوزي
يوصلني الى قمة
تتلاشى بين اصابعي
تصير منحدرا

يهتز غصن الكرز
اتغلغل بينه وجذع النخلة
أغرر زائي بأن تحرري
من زاك الذي يدب فيها
كدبيب نملة
من زاك الذي يتخذ الالفة عادة ليست له
ومنه تفوح
رائحة الغابة
ابسط راحة يدك ياهذا
اجعلها مرآة
لضميرك المستتر
سأرمز لك في قصائدي
بانك المنقلب المتقلب
متحدا تبقى هكذا بقشرة الاوهام
لن اتركني
اتجرجر وراء ظلك
فقد صار سرك اكثر علانية
سأظل كما انا
أطيع اله العشق

حروف الاستفهام

انا التائهة بين حروف الاستفهام
والهمة . وانا احترق بين ايديهم
باني انير ظلمة ضمائرهم
المرفوعة بالنصبوالهمة
وانا اتدفق سائلا في جسد الصحراء
باني ارطب حروفها
لتتناسل العيون فيها
فتولد ممنوعة من الصرف
والهمة
وانا انتظر ملاكا
في تلك الزوايا
يفك سلاسل العمى
من عيون المنصوب عليهم
والهمة انا
وانا اغازل شمسا
في غير مكان اعرابها
ان
انشقي عن تلك اللغة
لتكون اكثر سطوعا
فيصح لها العطف
بدل المعطوف عليه
لكني لست والهمة
بان الوقت يتعكز
على اليمين مرة وعلى اليسار اخرى
وعلى جسدي واجساد المجانين اخرى
ليقف عند ادوات الاستفهام
لماذا
كيف
ومتى
نملأ الفراغات ونكون الضوء
بدل الظل

من مقامات بديع الزمان إلى مقامات هذا الزمان

وهاب المرعب

المقامة

تعد المقامة نوعاً من الفنون الأدبية، ظهر في القرن الرابع الهجري، ويعد "بديع الزمان الهمذاني" أول من كتب به، حيث كانت تدور القصة التي تشملها المقامة على شخصين أحدهما "عيسى بن هشام" وهو شخصية تاريخية روى عنه البديع، والثاني أبو الفتح الاسكندري، وهو يمثل شخصية المكدي ويجمع بين الكدية والقصص، أي الكدية بأسلوب بليغ.

وبعد قرن من الزمان، أغنى "الحريري" التراث العربي بمقاماته التي عُرفت باسمه، حيث كانت شخصية "الحارث بن همام" هي الشخصية المحورية في المقامة.

اتسم هذا النوع من الفن الأدبي بمجموعة سمات أهمها وجود الشخصية المحورية (عيسى بن هشام وأبو الفتح الأسكندري لدى بديع الزمان، والحارث بن همام وأبو زيد السروجي لدى الحريري) والسمة الثانية هي السجع والبديع كأسلوب كان يُنظر إليه كدليل على مقدرة الكاتب وتفوقه، أما السمة الأكثر أهمية فهي الجمع بين القصة والمقالة وما يعرف بالخاطرة في الأدب الحديث، فالمقامة هي مزيج بين هذه الفنون، وعليه فأنها وسيلة جيدة للتعبير عن الأفكار والآراء بشكل غير مباشر...

والمحاولات التالية، محاكاة لهذا اللون الأدبي، مع الابتعاد عن الصناعة المتمثلة بالسجع والبديع، وبهذا فأنني اشعر بأنه لون مناسب لعصر الانترنت ولقراء الرسائل الالكترونية والأعمدة الصحفية...

تأخذ هذه "المقامات" شكل رسائل موجهة إلى "أبي صلاح" وهو يمثل شخصية المثقف العراقي الذي غادر وطنه بحثاً عن الأمان أو الرزق... بحثاً عن مكان يوفر له الشعور بأنسانيته... لم يكن "أبو صلاح" سنياً أو شيعياً، نصرانياً او صابئيا، عربياً أو كردياً أو تركمانيا.... كان عراقياً فحسب. رغم هجرته ولكنه ظل يحن إلى العراق.... أما محور المقامة الأول فهو "هالك مادي" والقاريء يتعرف عليه من خلال "المقامات"؛ عراقي، عنيد، قد يفتقد إلى الكثير من الصفات التي تؤهله إلى الوقوف بمضاهاة أقرانه ممن نعموا بمعطيات التكنولوجيا الحديثة، جراء حرمانه القسري منها طيلة

حكم الطاغوت... فهو لم يتعرف على الكومبيوتر وبرامجياته وعلى "الانترنت" و"الفيس بوك" و"التويتر" و"النانو" و..و.. ولكنه ذو تأريخ عريق، مرت عليه حضارات وثقافات متنوعة جعلته متفتح العقلية، يتعايش مع كل الظروف ويتفاعل معها، طيب القلب، مستعد للتضحية، يدافع عن معتقداته بعصبية أحياناً.... ولربما سنتعرف على المزيد من خلال قراءة الرسائل وتتبع المقامات...

وهاب المرعب

(الأولى)

لمقامة البكائية

عزيزي ابا صلاح

استمتعت كثيراً بمشاهدة الصور التي أرسلتها عبر البريد الالكتروني والتي كانت تحمل عنوان (بغداد أيام العز).. ومن شدة إعجابي بها سحبتها على ورق وعلقتها على جدار غرفتي.. فكنت أحدق فيها وأتذكر أيام مجدنا التليد... وذات يوم زارني صديقي هالك مادي، وهو شخصية عجيبة، كما تعلم، تراه في أماكن وأوقات غير متوقعة... شاهدوه مرة في ميدان التحرير يوزع تمراً على المعتصمين. ومرة رأوه يدفع العربة مع محمد بو عزيزي بعد أن أعياه التعب.. وفي ساحة التحرير في بغداد كان يواجه الهراوات وخراطيم المياه ببسالة وشجاعة تشبه الاستهتار... قال عنه الشيوعيون أيام زمان بأنه يتعاون مع الأمن وقال عنه البعثيون بأنه قومي وقال عنه الأمن بأنه شيوعي... يقال بأنه حارب في اليونان مع الفيلق الأممي ولكن الثوار في أسبانيا يعتقدون بأنه كان مع جيش فرانكو... حدثني في إحدى تجلياته عن غيفارا حديث العارف بتفاصيل الأمور وبواطنها... ذكره حيدر الحيدر في روايته (وليمة لأعشاب البحر) ضمن حديثه عن مجموعة خالد أحمد زكي في الأهوار.. انت تعرفه ولولا رغبتي وشعوري بالسرور في الحديث عنه لما تحدثت عنه بهذا التفصيل وكأنني سأخصص له هذه المقامة... ومع ذلك فأنا أرجو أن يتسع صدرك لتسمع شيئاً عنه في مقامتي القادمة... أعود للحديث عن زيارته الأخيرة لي وقد رآى الدمع في عيني وأنا أرثي بغداد لما وصلت إليه... كنت محرجاً.. لم أشأ أن يراني وأنا في هذا الحال. ولكنه ذكي لماح، سحب الكرسي وجلس عليه وكأنه يركب حصاناً وقال بدون مقدمات : "من شابه أباه فما ظلم" .. قلت؛ هل كنت تعرف أبي... قال كنت أعرف أباك آدم. هل تعلم من أول من بكى على الماضي التليد وظل يندبه... أنه أبوك آدم، فبعد أن أخرجه اللّه من الجنة ظل يتذكرها ويتذكر أيامها.. أنهارها وشوارعها .. فنادقها وساحاتها .. زقزقة العصافير فيها وتغريد الطيور.. غناء المنشدين وأصوات الشعراء الملائكة تصدح في مديح خالقها.. ظل على هذا الحال وأبنائه يسمعون ولا يفقهون شيئاً مما يقول فهم لم يدركوا تلك الأيام ولم يعيشوا في مكان غير هذا المكان وزمان غير هذا.. ولكنهم ظلوا يروون لأبنائهم حنين أبيهم إلى الجنة وكيف سيأتي يوم يعودون فيه إليها... وعندما ازداد النسل ، وتوسعت البقاع بالأبناء والأحفاد وعندما ظهر الظلم وانتشر، ظل الأمل بالعودة يملأ قلوب المظلومين وصار لليهود مخلّصهم وللنصارى مسيح

مخلص واعتقد الأمويون بظهور السفياني الذي سينقذهم ويعود بهم إلى الأيام الخوالي وأعتقد الشيعة بظهور المهدي الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن امتلئت ظلماً وجوراً.. صحيح إن بعض الأبناء لم يؤمنوا بذلك ولكن، بشكل عام، ظلت هذه هي الرواية المتوارثة... وعلى الرغم من كل ذلك لم نسمع عن أحدٍ عاد إلى الجنة ولا عن أحدٍ ظهر... وظل الزمان يسير إلى أمام ولا يعودٍ إلى وراء.." قال لي "ولكن هل أستطيع أن أمنعك من البكاء...هذا هو السؤال..."

المقامة المالكية
(الثانية)

الأخ أبا صلاح

حدثتك في رسالتي السابقة عن صديقنا هالك مادي حديثاً أثار شجوني وعاد بي إلى أيامٍ خوالٍ، ظننت أن القلب قد سلاها ورماها في زاوية النسيان، وإذا بها تبرز "كالوشم في ظاهر اليد".. الإنسان لا يستطيع أن يمحو تأريخه... ولا يستطيع أن يتنصل عنه.. وتبقى ذكرياته معيناً لا ينضب لشحذ همته والصمود أمام تقلبات الزمان ومحنه لذا قلت لك أن الحديث عن صديقنا هالك مادي يسرني ويبعث في نفسي الفرح والأمل، في زمن شح فيه الفرح وانحسر الأمل حتى كاد القلب يغرق في ظلام كريه، أحسسنا أيام صدام كأننا في سفينة والأرض من حولنا غارقة... كان الطوفان.. الدروب خالية مهجورة موحشة.. لا أهل ولا خلان خارج السفينة... واليوم نحس كأن السفينة نفسها غارقة.. الموت في كل مكان.. من يجمع الشتات المتناثر في أرض اللّه الواسعة. من يمد قلبه جسراً من أستراليا إلى لندن ومن بغداد إلى دبي مروراً بدمشق وبيروت وعمان. من ومن ومن... من ينسى انتمائه الإسلامي أو المسيحي.. السني أو الشيعي.. العربي أو الكردي... من غير هالك مادي يستطيع أن يفعل ذلك... من يستطيع أن يحكم عقله دون أن يفقد مشاعره وأحاسيسه.. سرق اللصوص خزائننا، سرقوا الأموال والأعمال. لا بل الأهم من ذلك سرقوا التأريخ. التأريخ الذي أقامه الفقراء من دمائهم.. شيده الشرفاء بآلامهم وأحزانهم.. بدموع الأطفال وحرمانهم.. هذا التأريخ يسرقه اليوم اللصوص الجدد.

هنا تذكّر هالك مادي.

ولقد اعتدت مذ كنت صغيراً، ما أن أذكر شخصاً أو أمراً ما حتى أراه ماثلاً أمامي.. فبعدما حدثتك عنه في رسالتي السابقة وجدته عند عودتي إلى بيتي مساءً.. كان منظراً غريباً ومفاجأة مدهشة أن أراه جالساً على الرصيف قرب داري وحوله عدد لا أعرفه من جيراني ملتفين حوله مستغرقين في جلسة سمر لم أشهد مثلها من زمان... جالسين كأنهم أصدقاء قدامى يتحدثون بحماس وانفعال. ما أن رآني حتى هب واقفا من بينهم بوجهه المدور الذي يشبه رغيف خبز تأخر في التنور وبدأ بتقديمهم لي.. أنا الغريب وهو رب الدار... قال: هذا أبو ياسين .. مهندس، قلت لنفسي "لا أطيقه" قال وهذا د.علي،طبيب .. أبو أحمد سائق.. طه، مدرس فيزياء ، صحح طه قائلاً رياضيات .. وهذا.. و.. ولكني قلت مبتسماً: أعرفهم جميعاً إنهم جيراني. قال " لا أظنك تعرفهم جيداً" قلت لنفسي "ها قد اخذ المبادرة واللّه وحده يعلم إلى أين سينتهي"

قال "جئت لأدعوك للتظاهر في ساحة التحرير يوم الجمعة.. والأخوان سيحضرون جميعاً" وقال أبو أحمد "لا أستطيع ترك صلاة الجمعة" رد عليه صديقنا "قلنا لك إن الصلاة في ساحة التحرير أثوب. صل في ساحة التحرير.."..قلت "ولكن ما هو هدف المظاهرة؟" قال "هؤلاء المتأسلمون "يدّعون الديمقراطية وهي منهم براء"،"يخادعون الشعب وما يخدعون الا أنفسهم" سنقول للمالكي وعلاوي والنجيفي و..و.. سنقول لهم كلكم سواء وأنتم مسؤولون أمام الشعب وأمام التأريخ عن كل ما يجري..." قال جاري د. علي "إحنه مو بعثيين.. نريد حقنا.. عيشة مال آوادم" قال آخر "إحنه مثل البعير،شايل ذهب ويأكل عاكول" واختلطت الأصوات تعلو بحماس "نريد محاسبة السرّاق والمفسدين " "نريد تخفيض رواتب المسؤولين بنسبة متقل عن سبعين بالمية" . "حكومة تكنوقراط"." تعديل الدستور" نريد.. نريد... مطالب واضحة. كنت أظن أنني لو أفنيت العمر مع جيراني ما كانوا ليلتفوا حولها وينسون انتماءاتهم العرقية والطائفية والدينية... ولكنه هالك مادي.. قلت له أمازحه بعد أن دخلنا الدار وأصبحنا لوحدنا "هل ستؤمهم للصلاة يوم الجمعة". قال "نعم. لو اقتضى الأمر ذلك. ليكن في علمك أن علمانيتي ليست إلحاداً وإن تديني ليس تزمتاً وعصبية.. موعدنا ساحة التحرير.. فمن شاء أن يحضر فليحضر طاهر القلب نقياً.."

المقامة الرشيدية

(الثالثة)

الأخ أبا صلاح

وصلت إلى مقربة من ساحة التحرير بصعوبة، حيث اضطررت أن أسير على قدمي من الصالحية إلى جسر الأحرار فحافظ القاضي إلى شارع الرشيد مروراً بالأورزدي القديم فعمو إلياس ثم المقهى البرازيلية وبعد أن اجتزت أسواق حسو، افترشت الرصيف قرب جقماقجي... فكما تعلم بأن الآلام في قدميَّ تعيقني من الحركة. شارع الرشيد كان كئيباً كعجوز هرم حطمته الأيام وأهمله البنون والأحفاد. إستباحته الحمير فراحت تركض فيه محملةً ببضاعة رخيصة بعد أن كان المرور فيه مقصوراً على الفخم من السيارات... تذكرت الصور التي أرسلتها وتذكرت هالك مادي وهو يقول إن أبانا آدم كان أول من ذرف الدمع على الماضي... لربما سنبقى نذرف الدموع ما دام الظلم سائداً والعدل مفقوداً والجهلة والقتلة يتحكمون بالعباد. متى يحكم أرضنا أبنائها الأكفاء الطيبون.. من يقود السفينة بهذه الأنواء المتقلبة العاصفة.... آهٍ يا مظفر! حقاً ما تقول..

"شلون كلبك طاوعك..ما تكف عالجيدوم..
وجهك ليل ونجوم وحلم
تنطينه كل لحظة إتجاه الريح
تشتاك الكمر يطلع كمر..
ما بجيتك... ما بجيتك..
آني بجتني السفينة...
تدري نوبات السفن لو ضاك خاطرها
بجبن قبطانها تسورب وحدها..."

ضاق خاطر سفينتنا وها هي مسوربة بريح ومطر..

هل سأصل إلى ساحة التحرير في الوقت المناسب... عينَّي أحو يا رجليَّ.. وقبل أن أتمكن من الوقوف ثانية، طارت حمامة كانت تقف باطمئنان على أحد أسلاك الكهرباء..

أفزعتها أصوات قادمة من الساحة. أعرف هذا المشهد.. عشناه كثيراً. هذا مشهد التحدي والخوف. إعلان الرفض والفرار.. المتظاهرون سِلماً يلاحقهم جلاوزة السلطة. رأيت عدداً من الشباب يركضون بإتجاه شارع الرشيد، فيما راح عدد آخر أكبر سناً يجرّون أنفسهم جراً باتجاه شارع أبي نؤاس. وقبل أن أفتح فمي بالسؤال عما حدث، قال أحدهم بصوت متقطع: هجموا علينا، سكاكين وعصي ... لم يكن هناك من يلاحقهم ولكن الضجة كانت تأتي من جهة ساحة التحرير... سرت معهم مبتعداً وخوف مقرف يملأ فمي. عادت حليمة لعادتها القديمة... سكاكين وعصي .. ألم يأخذوا عبرة من مبارك والقذافي وغير الصالح علي عبد اللّه ... والحبل على الجرار... ألا تذكرهم ساحة الفردوس بمصير الطغاة المتفردين بالرأي المتسلطين على العباد... ترى ماذا حل بجيراني الذين أقنعهم هالك مادي بالتظاهر، وماذا حل به هو شخصياً وأنت تعلم بأنه لا يهرب في مثل هذه الحالات... توقفت. قررت العودة إلى ساحة التحرير وليكن ما يكون. وفي مدخل الفرع المؤدي إلى سينما الخيام رأيتهم. أبو أحمد السائق يسند هالك مادي و د.علي يسير خلفهم. قلت لنفسي: إنه مصاب... أسرعت بما سمحت به قدماي المتعبة، لحقت بهم وقد أجلسوه قرب محل مغلق، تشير اللوحة المعلقة فوقه بأنه محل لبيع الملابس الرجالية. تمعنت في المكان. هنا كان رومانس. كم شربنا بيرة في هذا المحل قبل الدخول إلى سينما الخيام. نظرت إلى صديقنا برضا واطمئنان. قلت: إصابة بسيطة! طعنة سكين؟ قال د.علي: إصابة سطحية خفيفة وقال حجي ياسين (أبو أحمد): اللّه ستر.. وأرسل سيلاً من الشتائم."ظنناهم متظاهرين مثلنا. الحكومة أرسلتهم"... صحيح إن حجي ياسين رجل بسيط ولكنه أصر على إن ما حصل ليس "ديمقراطية" وأصر بأن الحكومة بكل مكوناتها كاذبة بإدعاءآتها، فلا ديمقراطية ولا حقوق إنسان... ولا.. ولا.. لا تغيير الا بالوجوه.

عدت وصديقنا إلى شارع الرشيد وقد فارقنا كل من حجي ياسين و د.علي. كان وجهه أصفر. ظل ساكتاً حتى وصلنا المربعة حيث قام هناك بغسل وجهه "بطاسة" ماء... هل رأيت هالك مادي منخذلاً منكسراً يوماً ما... هل رأيت عينيه يوماً بلا بريق أمل... "مجرمين.." قالها بغضبٍ مكبوت. "يسمون أنفسهم كتل سياسية...لماذا لا يسمون أنفسهم عصابات".. سرنا من المربعة حتى حافظ القاضي دون أن ننبس ببنت شفة وقبيل عكد النصارى، في (رأس القرية) وقف نصب جديد للشهيد عبد الكريم قاسم. وقفنا أمامه، ولأول مرة هذا اليوم رأيته يبتسم، قال.. "القتلة المجرمون يرميهم الشعب والتأريخ في المزابل... أما الشرفاء.. أنظر.. لم يكن عبد الكريم بلا عيوب ولكنه كان أميناً شريفاً مخلصاً... مخلصاً للناس، مخلصاً للعراق.." سرنا بإتجاه الشورجة... سوق دانيال وسوق العرب وسوق الصفافير على يسارنا... عاد الأمل بريقاً جميلاً في عينيه... "أتعلم " قال لي متحمساً ونحن نقف في ساحة الرصافي: "العراق أنجب أبطالاً، جيلاً بعد جيل.. أبو الثمن، الجادرجي، فهد، سلام عادل، عبد الكريم الماشطة.... ليس في السياسة وحسب". إزداد حماساً وهو يقول "عبد الجبار عبد

اللّه، جواد علي، علي جواد الطاهر، طه باقر، مهدي حنتوش، محمد مكية، محمد حديد، إبراهيم كبة، جواد سليم، الجواهري، عبد الوهاب البياتي، مظفر النواب... عشرات... مئات، أطباء، مهندسين، اقتصاديين، فنانين، شعراء... العراق لم يجدب ولم ينضب معينه ليتسلق هؤلاء ال... سيدي أغلب هؤلاء لا يصلحون لمناصبهم... ولكنهم رجال مليشيات. يختلفون على الغنائم فينصبون المفخخات ويتقاتلون بالكواتم وعندما يشعرون بالخطر جراء غضب الشعب ونفاد صبره، يواجهون الشعب بالهراوات والسكاكين. يخلقون أبو سيف وأبو دركة والمفتي والقاضي وال.. وال.. قتلة محترفون..

أنهكني التعب. جلست لأرتاح قليلاً بينما ذهب خيالي إلى بلدٍ آمن تسوده العدالة ويسيِّر أمره أناس اكفاء، مليئين بالإخلاص والحماس... نظرت إلى الأزبال والخرائب من حولي... من سيهب لشارع الرشيد رونقاً وجمالاً يستحقهما كأقدم شارع في عاصمة المليارات النفطية... كان هالك مادي واقفاً ووجهه مقابلاً لجسر الشهداء، قلت له: "ألم تتعب. ألا تجلس " أجابني وهو يسير صوب شارع المتنبي: "يقول المالكي أن المتظاهرين هم الشيوعيين وجماعة المدى... أنا ذاهب إلى جماعة المدى ففي كل يوم جمعة لهم لقاء في المتنبي".....

(ملاحظة: لأسباب فنية لم تدرج المقامة الرابعة، مقامة شارع المتنبي)